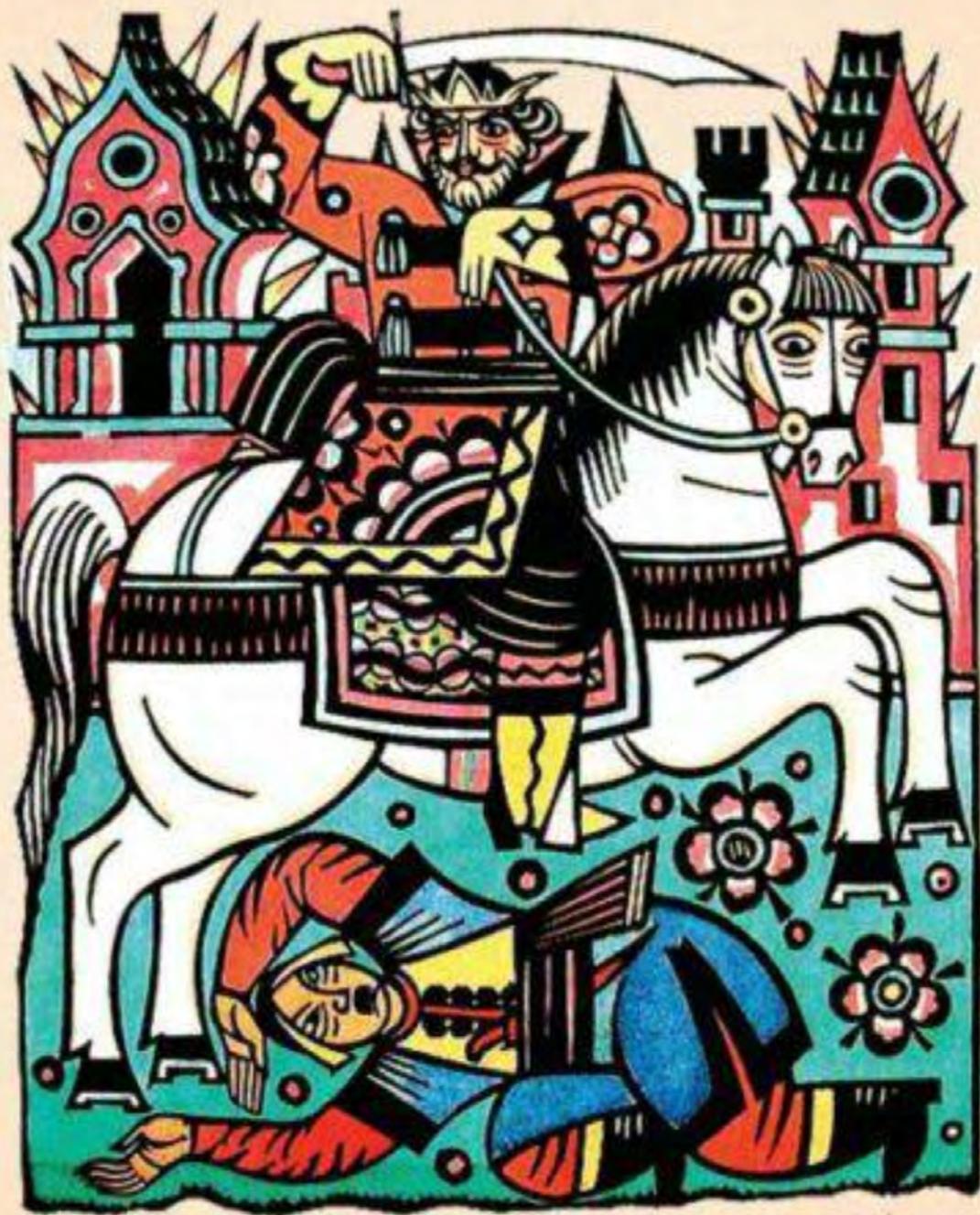


# من ديوان الشعر الروسي



ترجمة وتقديم: د. حياة شرارة

من ديوان الشعر الروسي



**Title:** From Russian Poetry  
**Translate:** Dr. Hayat Sharaara  
**Cover designed by:** Majed Al Majedy  
**P.L.:** Al-Mada  
**First Edition:** 1983  
**Second Edition:** 2017

**عنوان الكتاب:** من ديوان الشعر الروسي  
**ترجمة:** د. حياة شرارة  
**تصميم الغلاف:** ماجد الماجدي  
**الناشر:** دار المدى  
**الطبعة الاولى:** 1983  
**الطبعة الثانية:** 2017

**Copyright © Al-Mada**

**جميع الحقوق محفوظة**



**للإعلام والثقافة والفنون**  
**Al-mada for media, culture and arts**

• 964 (0) 770 2709 999 • 964 (0) 770 9090 800 • 964 (0) 790 1919 290	<b>بغداد:</b> حي ابو نواس-محلة 102-شارع 13-بناية 141 <b>Baghdad- Abu Nawas-neighborhood 102-13 Street-Building 141</b> www.almada-group.com email: info@almada-group.com
• 961 706 18017 • 961 125 2616 • 961 125 2617	<b>بيروت:</b> الحمراء- شارع لبيون- بناية مصور- الطابق الأول dara@almada-group.com
• 963 11 232 2276 • 963 11 232 2275 • 963 11 232 2289	<b>دمشق:</b> شارع كرجية حداد- متفرع من شارع 29 أهدار al-madahouse@net.sy ص.ب: 8272

All rights reserved. No part of this publication may be reproduced or stored in a retrieval system, or transmitted in any form or by any means; electronic, mechanical, photocopying, recoding or otherwise, without the prior permission in writing of the publisher.

لا يجوز نشر أي جزء من هذا الكتاب أو تخزين أي مادة بطريقة الاسترجاع، أو نقله، على أي نحو، أو بأي طريقة سواء كانت الكترونية أو ميكانيكية، أو بالتصوير، أو بالتسجيل أو خلاف ذلك، إلا بموافقة كتابية من الناشر مقدماً.

# من ديوان الشعر الروسي

ترجمة وتقديم: د. حياة شرارة



## توطئة

الشعر الروسي غور لا يسبر ولا يمكن أن يحتويه كتاب واحد بين دفتيه، شأنه شأن الشعر القومي في أي بلد يمتلك تراثاً شعرياً ضخماً.

ومع شعورنا أن هذه المختارات غيض من فيض، فإننا عقدنا العزم على ترجمتها لتوفير انطولوجيا في الشعر الروسي الذي يشغل منزلة رفيعة بين عيون الشعر العالمي، ولإطلاع القارئ العربي على نماذج تعتبر - حسب رأينا - من غرره.

القرن التاسع عشر هو الفترة الزمنية التي توخينا الترجمة لشعرائها، لكن وجدنا لزاماً علينا العودة إلى بداياته ومعرفة امتداداته القديمة التي لعبت دوراً كبيراً أو قليلاً في تطوره وبلورته. لذلك صارت «أغنية حملة إيغور» وأشعار البيليني والأشعار الدينية وبعض شعراء القرن الثامن عشر؛ نقطة البدء في ترجمتنا، لكي نستطيع أن نعطي صورة تاريخية واضحة عن نشوئه. وقد نقلنا «أغنية حملة إيغور» عن ترجمة أبولون مايكوف الشعرية لها إلى اللغة الروسية مع مقارنتها - بقدر ما استطعنا - مع النص الأصلي الذي كان مكتوباً نثراً.

ترجمنا لسبعة عشر شاعراً يمثلون مختلف الاتجاهات والمراحل التي شهدتها مسرح الحياة الشعرية. ومع ذلك لم

يتسع أمامنا المجال لتقديم شعراء آخرين مثل كريلوف Krylov و فيازيمسكي Vyazemsky و كارولينا بافلوفا Karolina Pavlova وغيرهم ممن كان لهم نصيب في رفد الشعر الروسي ونمائه.

أردنا التوقف في مختاراتنا عند الشاعر نيكراسوف Nekrasov باعتباره آخر شعراء القرن التاسع عشر المعروفين، وهذا أمر مسلم به ولا غبار عليه. ولكننا آثرنا - مع ذلك - الترجمة لشاعرين آخرين، هما بلوك Blok (١٨٨٦-١٩٢١) ويسنين Esenin (١٨٩٥-١٩٢٥).

اعتاد النقاد السوفيات في تقسيماتهم الزمنية إدخالهما ضمن الفترة السوفياتية لأنهما نظماً قصائد تعاطفا بها مع الثورة مع أن نتاجهما ومعظم حياتهما يقع ضمن إطار الشعر الروسي وليس السوفياتي، لأن أشعارهما ونزعاتهما وتفكيرهما تشكل امتداداً للشعر الروسي في مضمونه وروحه ولا يمكن لصورة الشعر الروسي أن تكتمل بدونهما.

لم يكن عدد القصائد المترجمة متساوياً لجميع الشعراء، بل ترجمنا لهم حسب مكانتهم وأهميتهم في الحياة الشعرية. أكثرنا مثلاً من ترجمة: قصائد بوشكين Pushkin و ليرمنتوف Lermontov وتوتشيف Tyuthev و نيكراسوف Nekrasov. أما الشاعر فيت Fet فنشعر أننا لم نوفه حقه لعدم توافر ديوانه لدينا، مما اضطرنا إلى الاقتصار على ترجمة ما وجدناه في كتب المختارات الشعرية وهي قليلة لا تفي بالغرض المنشود. هذا إلى أننا نتوقف في الترجمة لأولئك الشعراء عند قصائدهم الغنائية بل اخترنا أحياناً نماذج من رواياتهم ومسرحياتهم الشعرية أيضاً.

اعتمدنا لدى ترجمة القصائد على مصادرها الروسية مع مقارنة معظمها بالترجمة الإنكليزية. كما قمنا بمقارنتها مع القلة القليلة من الترجمات العربية المتوافرة لدينا.

كتبنا شرحاً موجزاً لنشوء الشعر الروسي وتطوره عبر الحقب التاريخية المتتابعة، وأشرنا إلى الروافد التي رقد منها ودور كل شاعر في مدّه بإضافات جديدة. أعطينا أيضاً نبذةً مختصرة من سيرة الشعراء الذين ترجمنا لهم. أما الشعراء الآخرون الذين لم نترجم لهم وورد ذكرهم في مقالاتنا عن الشعر الروسي فإكتفينا بذكر تاريخ الولادة والوفاة كي يكون القارئ محيطاً بالفترة الزمنية التي نظموا فيها. كتبنا، إضافة إلى ذلك، حواشي إيضاحية لبعض الكلمات والأحداث ولو أن ذلك قد أفضى بنا أحياناً إلى تكرار أشياء سبق أن مر ذكرها في كتب أخرى لنا مثل «مدخل إلى الأدب الروسي» و«وبيلينسكي».

لجأنا إلى استخدام المصطلحات الشعرية الأجنبية في سبيل الحفاظ على ظلال معناها ودقته. فأبقينا كلمات بيليني وأودا وبوئما وساتير وهلمجرا على ما هي عليه. ولا نجد خيراً في استخدامها بدل المرادفات العربية التي لا تنقل مضمونها نقلاً كاملاً. ولا بد من التذكير، في هذا الشأن، بأن اللغة العربية قد استوعبت كثيراً من المصطلحات الأدبية الكلاسيكية والرومانتيكية وغيرها، وبوسعها أن تمثل كلمات ومصطلحات أخرى.

في الختام نود الإشارة إلى المصادر التي اعتمدنا عليها في تقديمنا وترجمتنا لهذه النماذج الشعرية، فقد استعنا بدواوين الشعراء أنفسهم - حين توافرها لدينا - إضافة إلى كتب المختارات الشعرية باللغتين الروسية والإنكليزية. واستعنا كذلك بكتب تاريخ

الأدب الروسي التي أعانتنا على التتبع التاريخي لتطور الشعر  
الروسي مثل كتاب «تاريخ الأدب الروسي في القرن الثامن عشر»  
لبلاغوي و«تاريخ الأدب الروسي» الصادر عن معهد الأدب الروسي  
«دار بوشكين» التابع لأكاديمية العلوم، و«تاريخ الأدب الروسي في  
القرن التاسع عشر» تحت إشراف البروفسور بيتروف، إضافة  
إلى عدد آخر من الكتب النقدية وكذلك بعض الكتب المتعلقة  
بالأدب الأوروبي الغربي.

## المتجمة

## الشعر الروسي وتطوره

لعل القارئ يتعجب للوهلة الأولى من تلك الوثبة التي وثبها الشعر الروسي في مطلع القرن التاسع عشر ومن الازدهار الذي تحقق له على أيدي فطاحله كبوشكين وليرمنتوف وغيرهم. ولا نخال القارئ قد جانب الصواب في عجبه ولا نخالفه الرأي في ذلك. وجُلّ ما نروم قوله أن هذه الوثبة لم تظهر بين عشية وضحاها، بل تمتد إرهاباتها بعيداً في مضارب الماضي. ولا مندوحة لنا من العودة إلى سفر النشوء والتكوين الذي ابتدأ منه الشعر الروسي لكي ندرك مصدر النماء والعطاء الحاليين.

بدأت قصة الشعر الروسي قبيل قصة النثر، بل وقبيل ظهور الحروف الأبجدية. وظل الناس يتناقلونه شفاهاً جيلاً عن جيل وينشدونه ويغنونه. وما كاد يشرف القرن العاشر على أواخره حتى تكاملت الحروف الأبجدية السلافية وأخذت المخطوطات بالظهور مكتوبة على ورق الرق. وقد أملت العلاقات الحكومية وازدهار التجارة الحاجة إلى الكتابة وتدوين المراسلات وحفظها.

كانت مدينة كييف مهد الأدب الروسي في القرون الوسطى وهي عاصمة المملكة الأوكرانية المزدهرة قبل أن تحتلها القوات المغولية في القرن الثالث عشر. صوّر الأدب الحياة الأوكرانية القائمة على نضال الشعب المتواصل ضد الغزاة والمعتدين

والإبانة عن روح البطولة والتضحية في سبيل بلاده. وتعرض كذلك إلى النزاعات بين الأمراء والخلافات والمشاحنات التي سادت أجواء المملكة ولا سيما بعد عام ١٠٥٤ مما أفضى إلى زعزعة أركان المملكة الأوكرانية وسيادة روح الانفصال. كان الشعب يخشى سيطرة القبائل الغازية على وطنه من جرّاء انقسام الأمراء على أنفسهم. وفي عام ١١٨٥ قام سفياتوسلاف فيولودوفيتش - أمير كييف - بحملات ناجحة ضد الغزاة. وجمع الأمير إيغور أقاربه وجنده وقام بالهجوم على الغزاة في السنة نفسها، لكنه باء بالفشل ومُني بالهزيمة فوق أسيراً وقويت شوكت القبائل الغازية.

صورت «أغنية حملة إيغور» أحداث هذه الفترة من تاريخ روسيا، وقد سماها بيلينسكي Belinsky: «الزهرة العقبية في الشعر السلافي الشعبي». تمثل الأغنية لوناً من أدب البلاط، وهي تستحث حمية الأمراء وتشحذ همهم في سبيل توحيد كلمة روسيا وجهودها ودحر الغزاة. فالشجاعة والبطولة تعجزان عن بلوغ النصر إذا ظل الشعب متنافر اللحمه مشتتاً. تعطي شخصية إيغور الباسل عظة ودرساً في هذا الشأن، فهو مقدم قوي الشكيمة، يندفع لخوض الحرب معتمداً على قواه الخاصة فتلحق به الهزيمة وتفتح حدود روسيا أمام الغزاة. تضم «الأغنية» شخصيات متنوعة مثل ياروسلافا الزوجة المحبة الوفية وفسيفولود الشجاع الذي يدعو للدفاع عن حياض الوطن والمغني بويان الذي يضيف مسحة خيالية على أجواء «الأغنية».

تعرض «الأغنية» صوراً متباينة للحياة الروسية في القرنين الحادي عشر والثاني عشر، تزخر بهموم الماضي وأحزانه ونوائبه وبطولاته ويتعالى منها غبار المعارك وصليل السيوف ممزوجاً بالصلوات والابتهالات والأغاني الدينية والأناشيد الخطابية

الحماسية. تتكون من هذه الألحان المتعالية المتنوعة سمفونية جامعة بين أصوات الماضي والحاضر، بين الهزيمة والنصر، والهجوم والدفاع، القنوط والتفاؤل، الخوف والتفحم.

تجمع «الأغنية» بين أسلوب السرد الدقيق لصحائف التاريخ والعرض الأسطوري الخيالي لها. ويمتزج فيها الواقع بالخيال والصور التاريخية بالصور الرمزية واللون الأدبي بالصبغة الشعرية الفولكلورية، لتغدو نسيجاً فنياً ناصعاً لأدب القرون الخالية وتحفة أثرية ظلت موضع إعجاب الكُتّاب والناس دهوراً طويلة.

تحفل «الأغنية» بالأساطير الشعبية وحكايات السلف والمأثور الشعبي، ناقلة إلينا مناخاً مضمخاً ببخور الماضي وطقوسه ومعتقداته. تتخذ فيها الرموز معنى من المعاني الدقاق للبسالة أو الحزن أو الخوف. فها هو العقاب يحلق في أجوائها رمزاً لروح التفحم والبطولة والإقدام لدى الشعب، وهدفاً للقنص والصيد لدى الملاكين، أما الغراب فهو نموذج للفظاظة والوقوف فهو وجه للحزن والآلام، تُشبهه به ياروسلافنا الكئيبة الاسوانة.

تتكرر بعض الأبيات كلحن ملازم للأغنية، الغرض منه التذكير بالكوارث التي نزلت بالوطن أو الدعوة للاستمانة في الدفاع عن حمى البلاد مثل «من أجل الأرض الروسية، من أجل جراح إيغور، الابن الشجاع لسفياتوسلاف» التي تطالعنا في نهاية كل مقطع في بعض الصفحات مشيرة إلى الأرزاء والنواب التي حلت بإيغور وهو في الأسر.

لا بد من كلمة أخيرة بشأن شكل «الأغنية» الذي يبدو أقرب إلى النثر منه إلى الشعر. لقد سماها واضعها المجهول الاسم «أغنية»، مما ينم عن غرضه الشعري المنشود، هذا إضافة إلى استخدامه

اسلوب النظم السائد آنذاك والقريب من الشعر الشعبي، وقد اعتبرت «الأغنية» من فرائد الشعر الروسي المبكر.

تعود أشعار البيليني Byliny إلى القرون الوسطى أيضاً، ونظمها شعراء مجهولون. وهي عبارة عن قصائد بطولية، كانت تغنى بادئ ذي بدء في البلاط، وبعد ذلك شرع الشعراء المتجولون يغنونها على ألحان آلة موسيقية شعبية تسمى بالالايكا Balalaika. وقد وصل بعضها من مملكة أوكرانيا قبل أن تحتلها القوات الغازية. يدور عدد كبير منها حول شخصية الأمير فلاديمير الذي حارب التتر والوثنيين في سبيل انتصار العقيدة المسيحية، ومن أشهر أشعار البيليني «الرحلة الأولى لإيليا موروم» التي تتضمنها هذه المختارات.

تمثل مدينة نوفغورود التجارية، التي ازدهرت حضارتها في القرون الوسطى ولا سيما في القرن الرابع عشر والنصف الأول من القرن الخامس عشر؛ المهد الثاني لأشعار البيليني بعد مدينة كييف. ومن أشهر قصائد البيليني القصيدة الطويلة المنظومة بالتاجر الشجاع سادكو الذي يتجشم الأخطار ويركب البحار في سبيل تجارته وإغناء مدينته، وتتكون من ثلاث حكايات، ترجمنا منها «سادكو وملك البحر».

ثمة لون آخر من الشعر هو الشعر الديني الذي شاع في القرن الخامس عشر خصوصاً. ويمثل روح الورع وتقديس المسيح وأمه مريم وحياة الرسل والقديسين، وما لاقوا من عنت وعذاب في سبيل عقيدتهم، ويشف عن نزعة التقوى والتدين لدى الروس. وكانت بعض هذه القصائد تغنى في أثناء إقامة الطقوس الدينية. لقد استقت شكلها من الشعر الشعبي ومضمونها من الإنجيل. إن شيوع الشعر والنثر الديني ظاهرة ملحوظة في كثير من البلدان. ففي إنكلترا مثلاً، انتشر الشعر الديني قبل ظهور تشوسر Chaucer وسبنسر Spenser ودرابتون

Drayton وغيرهم من الشعراء المعروفين. واعتمد في محتواه على قصص الإنجيل. ومن شعرائه المعروفين كايدمون Caedmon وسايونوف Cynenuff. استخدم شعراء مشهورون أيضاً، مثل ملتون Milton بعض القصص الدينية، وهذا ما نجده في كتابه «الفردوس المفقود».

هذا هو اللون الشعري السائد قبيل ظهور المدارس والاتجاهات الشعرية الحديثة، وهي لا تشكل امتداداً طبيعياً له ولو أنها لا تخلو من تأثيراته فيها ولا سيما «أغنية حملة إيغور» - بل استمدت أصولها من الأدب الأوروبي بالدرجة الأولى.

\*\*\*

ثمة شعراء كثر أسهموا في حركة النهضة الأدبية الروسية، وكانوا من أعيانها وروادها لكن لم يكتب الخلود الفني لتجاتهم وأصبح معظمها من المعالم التاريخية الماضية. ومع ذلك لا مندوحة لمتتبع تطور الشعر الروسي من التمهل والتوقف عند تلك الأسماء التي رفدت مسيرته بالزاد والعطاء حتى تم له النماء والازدهار.

إذا كانت النهضة الأوروبية قد يمتت نواظرها نحو الآداب اليونانية واللاتينية لمحاكاتها واستلهاها لغرض إطاحة أدب القرون الوسطى - الذي تبلور في اتجاهين واضحين: ديني وفروسي -؛ فإن النهضة الروسية قد التفتت إلى الغرب وإلى الماضي أيضاً لخلق ثقافة قومية ذات سيمياء جديدة. وكما تمخضت النهضة الأوروبية عن ولادة الاتجاه الكلاسيكي منذ القرن السابع عشر وحتى مستهل القرن التاسع عشر تقريباً، فإن نَفْضَ غبار العصور الوسطى عن روسيا تجلّى عن نشوء المذهب الكلاسيكي. كان هوراس Horace، الشاعر الروماني، وبوالو Boileau، الشاعر الفرنسي، من أساطين الكلاسيكية اللذين استرشد الروس بتعاليمهما وأفكارهما. وضع بوالو في كتابة «فن الشعر»

أسس المذهب الكلاسيكي في الأدب الفرنسي، وقد تأثر الشعراء الروس خصوصاً بالكلاسيكية الفرنسية. دعا بوالو للاستجابة إلى نداء العقل وجعله معيناً لا ينضب لرفد الأعمال الأدبية. العقل والإدراك يحتلان مركز الصدارة لديه، أما العواطف الإنسانية فلا ينكرها، لكن من الضروري إخضاعها لسلطان العقل ولا يجوز أن يسلمها الإنسان قياد نفسه، بل عليه أن يمسك بعنانها. الشعر يكشف المشاعر باعتبارها بؤرة ضعف في حياة الإنسان، فيجدر تنبيه الناس إلى خطورتها إذا خرجت من قمقمها الذي تنطوي داخله. زد على ذلك أن المشاعر ينبغي أن تظل ضمن تخوم معينة مما تواضع عليه المجتمع من تقاليد وأعراف ومفاهيم.

كيف كان المنحى الذي نَحَتْهُ الكلاسيكية الروسية؟ اتجهت، بالدرجة الأولى، نحو خلق ثقافة روسية قومية، إذ سددت ضرباتها لأدب القرون الوسطى وكانت متنوعة النزعات والتيارات. قبل الحديث عن لومونوسوف<sup>(١)</sup> Lomonosov الذي يعتبر الممثل البارز للاتجاه الكلاسيكي classicism، لا بد من الإتيان على ذكر شعراء آخرين كان إسهامهم ملموساً في هذا الشأن.

يعتبر كانتيمير Kantemir (١٧٠٨-١٧٤٤) من الشعراء الكلاسيكيين المتأثرين بمدرسة بوالو الحديثة، وإن كان ينحرف عن قواعدها أحياناً، لكنه ظل مؤمناً بها نظرياً. ومع أن الكلاسيكية عظمت اللغة الفخمة المتسمة بالجزالة والسمو، لكنه كان يميل إلى أسلوب الشعر الشعبي ويستعير بعض مفرداته. ورغم عنايته بصقل الشكل الفني لأشعاره وبنائه بناءً متماسكاً،

١. سبق وأن تعرضنا للحديث عنه وعن تطور الأدب الروسي في كتاب: مدخل إلى الأدب الروسي في القرن التاسع عشر. تأليف د. حياة شرارة، د. محمد يونس. المؤسسة العربية للدراسات والنشر. بيروت ١٩٧٨. ص ٩-٣٧.

فإن قصور اللغة الشعرية وعدم مرونتها يشكل حائلاً دون بلوغه درجة فنية عالية. أدت سيادة اللغة الكنسية والكتيبة، في تلك الحقبة التاريخية، إلى إعاقة تطوير الشعر، وسعى كانتيمير إلى تطويع اللغة واستخدام اللهجة الدارجة ولا سيما في قصائده الساتيرية «الهجائية».

كتب الأغاني في مستهل حياته الشعرية ولقيت رواجاً واسعاً وشهرة كبيرة. انتقل بعدئذ إلى نظم الشعر الاجتماعي ولا سيما الساتيري «الهجائي» منه وتعرض إلى مختلف الآفات الاجتماعية، كالجهل والنفاق والفساد، بالنقد وعظّم من شأن المعارف والعلوم ومن قيمة الفكر ومنزلة العقل. كان الساتير «الهجاء» موجهاً في الحقيقة ضد مظاهر التخلف والتأخر الاجتماعيين ودعا إلى سيادة الأفكار التنويرية والتحررية والإعلاء من منزلة الكفاءة الفردية. زد على ذلك أنه نادى بضرورة الرأفة بالعبيد والشفقة والحدب عليهم. شابت نقده روح من السخرية الظريفة التي تشيد الضحك والأسى، في الوقت ذاته، من مساوئ الأوضاع القائمة، مما يشكل الإرهاصات الأولى لكتابات غوغول Gogol في هذا المجال. كان كانتيمير نفسه يقول: «أضحك في قصائدي، وأبكي في قلبي من سوء الأخلاق».

نظم مجموعة من الشعر الساتيري «الهجائي» التي تعتبر من عُرر قصائده. فقد كان يجيد النظم في هذا اللون أكثر من غيره. وبلغ به الميل نحو كتابة الساتير «الهجاء» إلى درجة اعتذر فيها للإمبراطورة آنا إيفانوفنا عن كتابة المدائح بها، لأنه شاعر لا يحسن إلا نظم الأشعار الساتيرية. صرح بذلك بعد أن وشى به الوشاة لديها وسعوا للإيقاع به، فما كان منها بعد هذا الاعتذار إلا أن أرسلته للعمل في الخارج، حيث ترك نظم الشعر فترة

من الزمن ثم عاد إليه لإظهار معاناته ومشاعره إزاء آفات الواقع الاجتماعي وغيوبه وتأثيره على الفرد.

غلب الطابع التقليدي على شكل قصائده غير الساتيرية وعلى محتواها، فلم يكن لها شأن متميز في مجرى الشعر الروسي كما هو الحال في ساتيرياته. إن منزلته الشعرية تعود إلى أشعاره النقدية، بالدرجة الرئيسية، حيث سعى لتصوير المجتمع بصدق وكشف نقائصه. استطاع ترسيخ النزعة الساتيرية وتطوير التقاليد التنويرية التي شاعت على امتداد القرن الثامن عشر وكانت من العلامات المميزة له.

لم يفلح كانتيمير في تطوير أوزان الشعر المعتمدة على المقاطع الهجائية القديمة رغم إحساسه بأنها عبء ثقيل على الشاعر وفنه. قام تريدياكوفسكي من بعده، بإدخال تعديلات مهمة على أوزان الشعر الروسي وجعلها أكثر ملاءمة للنظم والإبداع الشعري.

كتب تريدياكوفسكي Trediaskovesky - (1703-1769) - في مستهل حياته الأدبية شعراً يعتمد اللغة الكنسية السلافية التقليدية. لكنه سرعان ما شعر بالضييق بها وتاق إلى التحرر من قيودها وتحديثاتها. أثر مكوثه خارج روسيا واطلاعه على الأدب الفرنسي على تطوير أسلوبه وكتابة المقالات اللغوية والنقدية. وجد - في محاولته تطوير اللغة الأدبية - ركيزة في لغة الصفوة العليا من المجتمع، فسعى للإفادة منها جنباً إلى جنب اللغة الكنسية. نضجت في الوقت ذاته آراؤه حول الأوزان الشعرية واحتواها كتابه الذي نشره عام 1735 تحت عنوان «الطريقة الجديدة الموجزة في نظم الشعر الروسي والتحديدات الخليقة بها» دعا فيه إلى التالي المنتظم للمقاطع المشددة وغير المشددة في القصيدة، The regular alternation of stressed

and unstressed syllables وكان الوزن يستقيم سابقاً اعتماداً على التشديد الثابت للمقطع ما قبل الأخير، أما التشديد في بقية كلمات البيت الشعري فلم يحددها نظام إيقاعي معين، لأن التشديد على المقطع ما قبل الأخير يقوم بدور المنظم لها ويخلع على القصيدة اتساقاً وإيقاعاً جميلاً. كان لهذا التشديد تأثيره الواضح في القصائد القصيرة، لكنه يفقد مثل هذه السيطرة في القصائد الطويلة ولا سيما إذا احتوت على تفعيلات مركبة، لذلك استبدله تريدياكوفسكي بالطريقة المذكورة أعلاه، وجعلها في الوقت ذاته وقفاً على القصائد الطويلة ذات الثلاثة عشر مقطوعاً مركباً أو الأحد عشر مقطوعاً مركباً.

أعاد تريدياكوفسكي كتابة بعض قصائده- التي جمع قسماً منها في ديوان «رحلة في جزائر الحب» المحتوية على قصائد حب لباريس وروسيا- وفق الأوزان الشعرية الجديدة مغيراً الوزن التقليدي الذي كتبت به. كان لتغيير الأوزان أثره البعيد في تطوير الشعر الروسي وظل متبعاً- مع بعض التغييرات الطفيفة- حتى الوقت الحاضر.

وقف لومونوسوف، أبو الشعر الروسي الحديث وممثل العصر التنويري في روسيا، إلى جانب التغييرات التي أدخلها تريدياكوفسكي. وقد هينئ له الاطلاع على ما حققه منظرو الشعر في البلدان الأخرى كفرنسا وألمانيا من نظريات في الشعر ومتطلباته الجديدة، فاستطاع تطوير الأوزان الشعرية المعتمدة على التشديد النغمي والمرتكز بدوره على التعاقب المنتظم للمقاطع المشددة وغير المشددة في أشعار الأودا<sup>(٢)</sup> التي اشتهر لومونوسوف بنظمها-

٢. الأودا- قصيدة غنائية النشأة ثم اتجهت نحو تصوير الأحداث البطولية والمناسبات المهمة في أشعار الكلاسيكيين مثل لومونوسوف ودير جافين.

كتب حول ذلك في مقالة نشرها عام ١٧٣٩ تحت عنوان: «رسالة حول قواعد الشعر الروسي». ومع تأييده لأوزان تريدياكوفسكي فقد أدلى ببعض الآراء المغايرة، الرامية إلى إعطاء حرية أكبر في استخدام الأوزان الشعرية. يرى تريدياكوفسكي أنه يمكن استخدام بحرين في نظم القصيدة ولا سيما بحر التروكي Trachée والأيامبوس Iambus، ويتكون الأول من مقطع مشدد فمخفف، أما الثاني فيتكون من مقطع مخفف فمشدد. دعا لومونوسوف إلى زيادة عدد الأوزان الشعرية واستخدام اثنين أو ثلاثة في آن واحد. فيمكن استعمال بحر الداكتيل Dactyl، مقطع مشدد يليه مقطعان مخففان، سوية مع الأنابست Anapaest، مقطعان مخففان فمقطع مشدد، والأيامبوس مع الأنابست، والتروكي مع الداكتيل وبذلك يزداد عدد البحور الشعرية مما يخلق مدىً رحباً أمام الشاعر في عملية الخلق الفني.

كان لومونوسوف ضليعاً في علوم اللغة والبيان والخطابة، محيطاً بالعوائق الحائلة دون تطوير اللغة الأدبية، لذلك عمل على تنقيتها وتطويرها حسب مفهوم المذهب الكلاسيكي الذي يعتبر من أبرز ممثليه. سعى لتخليص اللغة من الطابع الوعظي التعليمي الكنسي والإفادة من اللغة المتداولة المألوفة والمفهومة لدى جمهور واسع. أشار أيضاً إلى ثراء محتوى اللغة الروسية وقوة تعابيرها وكونها لا تقل شأنًا في هذا المجال عن أية لغة أوروبية أخرى، وباستطاعتها النهوض بالأدب الروسي إلى مستوى عالٍ. لم يتنكر في دعوته لاستخدام اللغة المتداولة للكتب الكنسية، بل على العكس، اعتبرها خزانة اللغتين الروسية والسلافية وأحد مصادر الوحدة الوطنية. فهي مفهومة ومقروءة لدى جميع غفير من المؤمنين، لذلك ينبغي الإفادة منها وتطويرها في الوقت ذاته.

لم ينح لومونوسوف منحى كانتيمير الساتيري من جراء اختلاف الحقبة التاريخية التي عاشا فيها. يمثل عهده فترة التحولات الاجتماعية وفتح روسيا نوافذها على أوروبا الغربية والاعتراف من معطياتها الأدبية والعلمية. كان بطرس الأكبر Peter the great رائد هذه النهضة الجديدة التي زعزعت الأركان الاجتماعية القديمة وأصابتها بالتصدع. قام لومونوسوف بتمجيد قوى بلاده الفتية الآخذة بالتعاظم وتفتحها على نور العلم والثقافة. كانت «الأودا» هي الجنس الأدبي المفضل لديه بسبب ملاءمة شكلها لمضامين أشعاره ومحتوياتها. لقد مجّد اليقظة القومية والروح الوطنية ونفض غبار التخلف والركود والسير في ركب الحضارة.

وتنم أشعاره عن نظرة متفائلة متطلعة بثقة وإيمان إلى المستقبل. تتميز «الأودا» لديه بالجزالة وقوة البيان والمحتوى الفلسفي التأملي والبطولي والمعاني الدقاق ونصاعة الفكرة. التزم مبادئ المذهب الكلاسيكي في أسلوبه وتمسك بقواعده المنبثقة أصولها من الكلاسيكية الفرنسية ومعلمها بوالو. من هنا نرى أن معالم الكلاسيكية تتجلى تقاليد الصارمة في أشعاره أكثر من أي شاعر روسي كلاسيكي النزعة.

لم يتمسك معاصروه وأسلافه من اتباع الاتجاه الكلاسيكي بتعاليمه تمسكاً كاملاً، بل بدأ الكثيرون منهم يعطون الشعر قيادهم ويطلبون فيه عمل العقل ويختارون ما يطيب لهم من أجناس أدبية دون اعتبار لتصنيفات الأساليب الكلاسيكية. فها هو سوماركوف Sumarkof يكتب ما يشاء من فنون الشعر كالتراجيديات والحكايات الخرافية وينظم في المرثاة والساتير

والأودا والسوناتة<sup>(٣)</sup> والأغاني. كتب أيضاً مقالات في النقد الأدبي عبر فيها عن رأيه بضرورة تنويع الأشكال الشعرية قائلاً: «انظم في كل ما تمليه طبيعتك عليك». لعب سوماركوف دوراً مشهوراً في تطوير الشعر الروسي. فقد كان ميالاً لنظم الشعر الساتيري والكشف عن بؤر الفساد والانحطاط وكشف الحجب عن الجهل والفظاظة والظلم التي يتستر بها المجتمع. واستطاع مع كاتيمير تطوير التيار الساتيري الذي يشكل أحد الروافد الرئيسة لأدب القرن التاسع عشر.

صوّر في شعره الرعوي حياة الريف والرعاة الوداعة الذي كان واسع الانتشار في القرن الثامن عشر. وكتب قصائد زاخرة بالعواطف الساذجة والأشواق الحارة، تشكل بداية الطريق نحو المذهب الستيمتالي الذي تبلورت سيمائوه على يد كارا مزين.

أغنى تعدد الألوان الشعرية لدى سوماركوف لغته وأضفى عليها طابعاً من العفوية والبساطة وأبعدها عن الكلفة والصنعة. اقتضت طبيعة المواضيع التي تناولها وجود السلاسة والطلاوة في أسلوبه وأفضت به بالتالي إلى الاصطدام بالأسس الكلاسيكية التي وضعها لومونوسوف، التي تجلت واضحة بينة في أسلوب الأودا الخطابية الرفيع الذي اشتهر به.

يشكل شعر ديرجافين Derghovin علامة بارزة في مفترق طريق الشعر الروسي. ومع أن أصوله تلتقي مع لومونوسوف وسوماركوف كشاعرين كلاسيكيين، لكنه يخالفهما في أشياء جمّة. لقد كتب «الأودا» ذات الأسلوب الفخم وقصائد إطراء

٣. السوناتة - مقطوعة شعرية نحتوي على أربعة عشر بيتاً شعرياً موزعة على أربع مجاميع، تتكون كل مجموعة من أربعة أو ثلاثة أبيات شعرية.

بالإمبراطورة كاترين الثانية التي لقبها بالفيليتسا Felitsa كناية عن اسمها. تخالط أشعاره هذه روح ظريفة فكهة ويمتزج مديحه للإمبراطورة بالنقد والهجاء لحاشيتها، مما أوغر صدورهم عليه، وجمع بين الروح الجدية والكوميديّة في إظهار فضائل الفيليتسا، فاستطاع تخطي التخوم الفاصلة التي وضعها منظرو الكلاسيكية بين الأسلوب الرفيع والوسط والواطيء وتصدعت سلالم الهرم الاسلوبي الكلاسيكي الذي أصلوا له أصولاً تحفظه وتصونه.

ينأى ديرجافين عن الكلاسيكية خصوصاً في أشعاره الغنائية. فهو يُبطل فيها عمل العقل ويطلق العنان لانسياب أحاسيسه ومشاعره. وهي تختلف في نغمتها العاطفية وظلالها المتنوعة وقوتها التعبيرية عن قصائد الحب الكلاسيكية، حيث يتخذ تصوير الطبيعة لوناً خاصاً عنده بعيداً عن التزييق والتجميل لها ويحفل بالمناظر المألوفة التي تضم الإنسان والطيور والفلاحين والجمال والهدوء وحياة الدعة والعمل. ولا مرأء أن يحتل شعره الغنائي منزلة متميزة في القرن الثامن عشر.

يشكل الإلهام لديه عنصراً مهماً في عملية المخاض الشعري. إن التفكير المتأنى والمحاكاة لا يكفيان لخلق شعر صادق، بينما يحول الإلهام المبدع كلمات الشاعر إلى أحاسيس متوهجة وعواطف ملتهبة تهز أوتار القلب الإنساني. اعتبر الشعر «أخا الموسيقى» وزواج في قصائده بين الشعر وفنون الرسم والهندسة المعمارية والموسيقى لكي يصبح الشعر متعة السمع والبصر.

خطا ديرجافين خطوات متقدمة في مجال الشعر فوسع أطره وعمّق محتواه. لكن مما يعيب شعره طول الكثير من قصائده مما يؤثر على اتساق شكلها الفني ويخلخله ويجعله ينطوي على

جوانب قوية وضعيفة بدل وجود وحدة فنية متماسكة... يمكن قول الشيء نفسه عن المضمون الذي يفتقد إلى التسلسل والنظام. بيد أن هذه المثالب لا تقلل من مكانة شعره ودوره التاريخي في تطوير الشعر الروسي. فقد اختصر الطريق على كل من جو كوفسكي وباتشكوف، بل وحتى على بوشكين.

لا مندوحة لنا من التوقف عند كارامزين Karamzin (1766-1826) الذي كان نائراً وشاعراً في الوقت ذاته، لكن طغت شهرته كناثر على شعره. ومع ذلك فقد ارتبطت الحركة الأدبية في العقد الأخير من القرن الثامن عشر ومستهل القرن التاسع عشر بالإنجازات الأدبية الوافرة التي حققها. كان كارامزين ممثلاً الاتجاه السمتتالي Sentimentalism، فقصصه حافلة بالمشاعر الحارة والعواطف المتوهجة التي يطفح بها القلب الانساني وأبطاله يصطلون بناء الهوى والوجد، يذرفون الدموع الحرى ويعانون من لظى الشوق والهيام. صوّر كارامزين عالم البطل الوجداني الحافل بالمشاعر المتأججة وتابع منعطفات الأحاسيس وجموحها الطاغي دون التوقف عند التصوير الظاهري الرصين لها، فاستطاع تحطيم ما تواضع عليه المذهب الكلاسيكي من أعراف وقيم في هذا الشأن.

إن ما يهمنا في مجال موضوعنا هو الدور البارز الذي لعبه كارامزين في تطوير اللغة الأدبية وتوسيعها. فقد بدأ الهرم والشيخوخة على ملامح اللغة التي دعا إليها لومونوسوف وغدت لا تلائم متطلبات العصر وروح الزمن. أخذ الشعراء والكتاب من بعده لا يتقيدون تقيداً كاملاً بها ويطلقون العنان ليراعهم ويكتبون ما تمليه عليهم سجيتهم وسليقتهم. جاء كارامزين ليكون المصعب الذي التفت عنده هذه التغيرات اللغوية التي تمت على أيدي شعراء

كُثر، فأمدّ نسغها بدماء جديدة أعلت من شأنه ومكانته في الحياة الأدبية.

دعا كارامزين إلى ردم الخنادق بين لغة الكلام المتداولة ولغة الكتابة ومد القنوات بينهما وإزالة جميع المعوقات والحواجز في سبيل بلوغ هذه الغاية. استدعى تحقيق ذلك الهدف تبسيط النحو وتجاوز التعابير الكتبية المعقدة الجامدة والاستعاضة عنها بعبارات سلسلة طيبة خالية من الضعة والإبهام. استعان بلهجة الصالونات الأرستقراطية ولا سيما حديث السيدات الذي يتسم بالليونة والصفاء، أما الكلام الشعبي فإن الأديب يستطيع أن يستقي منه ما ينسجم وطبيعة الأسلوب السنتمتالي في وصف حياة الريف والرعاة ونبذ ما يجافي الذوق الأدبي. زد على ذلك أن الإفادة من مفردات اللغات الأجنبية واقتباسها أو ترويسها، إذا دعت الضرورة، يعود بالنفع والثراء على اللغة الروسية، بينما كان لومونوسوف يمانع في إدخال الكلمات الأجنبية. إن انطواء اللغة على ذاتها والتوقيع على نفسها يفضي بها إلى الضمور وعدم الانفتاح على اللغات المتطورة والتفاعل معها. أزالته هذه التغييرات الصداً المتراكم بين ثناياها وطياتها وعملت على إظهار نصاعتها وصفائها مما جعلها ملائمة للأجناس الأدبية المتنوعة التي طرقها الأدباء.

أحدث آراء كارامزين وممارساته في حقل اللغة ضجة كبيرة متوقعة. اتهمه خصومه بفرنسة اللغة الروسية - لأنه أراد الإفادة، بالدرجة الأولى، من اللغة الفرنسية المتداولة في الصالونات الروسية - ورموه بالنيل من لغة بلاده وعدم صيانتها من الشوائب الأجنبية. تجاوزت الضجة الصف الأدبي إلى الحياة الاجتماعية واحتدم الصراع بين أنصار القديم والجديد. وجد كارامزين مريدين ومؤيدين له بين الجيل الشاب من الشعراء مثل

جوكوفسكي وباتشكوف والفتى بوشكين الذين وقفوا إلى جانبه منتصرين لإصلاحاته ومدافعين عنها.

كان كارامزين معجباً بالشعراء الإنكليز لحد كبير مثل شكسبير Shakespeare وملتون Mitlon وتومسون Thomson ثم بالألمان فالفرنسيين. وهو يختلف عن تريدياكوفسكي وسوسماركوف وغيرهم من الذين اهتموا بالشعراء الفرنسيين أكثر من غيرهم.

قام بمحاولات شتى لتغيير طريقة نظم الشعر. فكتب بادئ ذي بدء شعراً مرسلأ، لكنه عاد إلى كتابة الشعر المقفى عام ١٧٩٣، واستخدم خصوصاً بحر الأيامبوس وأكثر من استعماله وقام بترجمة بعض الكتب الأدبية المهمة كالإلياذة. نبذ جانباً المواضيع الكلاسيكية وأولى عناية فائقة لحياة الإنسان الوجدانية دون الاكتراث كثيراً بالأحداث الخارجية مما ينسجم ورؤيته السنتمتالية.

نلمس مما تقدم خدمات كارامزين الجليلة في الحياة الأدبية، ولا مراء أن يقول بيلينسكي<sup>(٤)</sup> Belinsky : «دشن كارامزين مرحلة جديدة في الأدب الروسي». فهو صاحب الريادة في ذلك الانعطاف الكبير نحو عالم المشاعر والأحاسيس والاهتمام بحياة المرء الوجدانية وتطوير اللغة الأدبية وخلق جمهور واسع من القراء، بينما ظل الأدب قبله وقفاً على فئة ضيقة. ولا غرو أن يكون له أتباع ومقلدون كثيرون نهجوا نهجه واستناروا بمصابيح

٤. كتب الناقد المعروف بيلينسكي مقالات قيمة عديدة تناول فيها أدب القرن الثامن عشر وحلله تحليلاً تاريخياً ونقدياً. لم نكثر من ذكر آرائه في هذه المقدمة - رغم أهميتها الكبيرة، لأننا سبق وعرضناها بشيء من التفصيل في كتابنا المسمى «بيلينسكي» الصادر ضمن سلسلة أعلام الفكر العالمي عن المؤسسة العربية للطباعة والنشر عام ١٩٧٩.

هداه. إضافة إلى ما مر ذكره أخرج الأدب الروسي من إطاره المحلي إلى ما وراء تخومه القومية. فترجمت الكثير من أعماله الأدبية إلى اللغات الأوروبية كالإنكليزية والفرنسية والهولندية والألمانية.... الخ، مما جعل أنظار العالم الغربي تلتفت إلى النهضة الأدبية الناشئة في روسيا.

ثمة شاعر اشتهر بحكاياته الشعرية الخرافية ومارس في الوقت نفسه نظم الأودا والقصائد الغنائية والرسائل الشعرية، وهو إيفان كريلوف Ivan Krylob (١٧٦٩-١٨٤٤). نحاف في أسلوبه منحىً ساتيرياً. برز اتجاهه الساتيري خصوصاً في مقالاته النثرية وكتاباته الصحفية. لم يتأثر بستمنتالية كارامزين، بل كان يسخر منه أحياناً. تناول المواضيع التي عالجهها تناوياً مصحوباً بروح الفكاهة والظرافة والسخرية الخفيفة وأصبح الممثل البارز لشعر النقد الاجتماعي في عصره.

\*\*\*

شهد مطلع القرن التاسع عشر وجود اتجاهات وتيارات أدبية متنوعة متباينة تدل على طبيعة الحياة الأدبية وتهيؤها لعطاء وافر غزير يعد به المستقبل القريب. فما زالت معالم الكلاسيكية قائمة رغم تهاوي دعائمها الراسخة الثابتة في الماضي، حيث ظلت تعيش أيامها الأخيرة وسط مضايقة الستمنتالية لها التي ظفرت بمركز الصدارة من بعدها. وها هو المذهب الرومانتيكي Romanticism يحرز النجاحات تلو الأخرى ويكتسح الساحة الأدبية ويعقد له لواء النصر. لم تعدم الواقعية مكاناً لها في هذا الزحام، لكنها كانت ما تزال وليداً غضاً لا يقوى على المنافسة والصراع وما برحت في دور النشوء والتبلور.

كانت ألمانيا وإنكلترا مهد الرومانتيكية وعرفتھا فرنسا من بعدهما. تباينت الآراء وتعددت حول تحديد سيماء المذهب الجديد. كان ويلهم شليغل Schlegel أول من اعتبر الرومانتيكية اتجاهاً مغايراً للكلاسيكية ثم تبعه آخرون وذهبوا مذهبہ في الرأي. أما في إنكلترا فقد أطلق على الحركة الرومانتيكية ذات السمات الأدبية المتميزة عما سبقها عبارة الاحياء الرومانتيكي Romantic Revival. وفي فرنسا اختلفت الأطر التي وضعوها للرومانتيكية وتباينت، لكن الأحاسيس والمشاعر الإنسانية كانت المعين الذي لا ينضب الذي رفدت منه. وها هو دي موسيه De Musset يقول : «آه، اضرب قلبك، فهناك توجد العبقريّة».

استهوت الرومانتيكية الشعراء والقراء الروس وتعلقت بها نياط قلوبهم. فكأنها جاءت لتعبر عن أمانيتهم وأوطارهم المتباينة من الضيق بالواقع المر والتمرد عليه والهروب إلى فضاء الحرية الرحب والعزف على أوتار القلب الإنساني وسماع أنينه ونشيجه وما يصبو إليه من أمان عظام وآمال كبار وما يضطره إلى الإنطواء على الذات والإنكماش داخلها. ورغم تعدد تيارات الرومانتيكية الروسية، يمكننا رؤية تيارين واضحين: الأول يدعو إلى العزلة والوحدة والتغني بهموم القلب الإنساني وأحزانه وأفراحه، والثاني ينادي بالتمرد على الواقع وتحديه ناشداً الحرية الطليقة. وإذا كان جولوفسكي Zhyovsky شاعر الكآبة والعزلة والفرار من وجه الحياة القبيح فإن الشعراء الديسمبريين وبوشكين Pushkin وليرمنتوف Lermontov كانوا ميالين إلى التمرد على الواقع ومجاہته. لا بد لنا، ونحن في مجال الحديث عن الرومانتيكية الروسية من ذكر رأي بيلينسكي في هذا الصدد: «الرومانتيكية هي عالم الإنسان الداخلي، عالم الروح والقلب،

عالم الأحاسيس والإيمان، عالم متدفق نحو اللامتناهي، عالم الرؤى والتأملات الخفية، عالم المثل السماوية. لا تمتد الأرض الرومانتيكية تحت أقدام التاريخ والحياة الواقعية والطبيعة والعالم الخارجي وإنما تتوارى في ذلك التيه الدفين للصدر الإنساني الذي تنضج فيه خفيةً جميع الأحاسيس والمشاعر وتتعالى دون خفوت تلك الأسئلة عن العالم والأبدية، الموت والخلود ومصير الفرد وأسرار الحب والحبور والمعاناة»<sup>(٥)</sup>.

إذا كان كارامزين قد قطع شوطاً بعيداً في كشف لواعج القلب الإنساني ومنعطفاته في مجال النثر، فإن جوكوفسكي قام بمثل هذه الجولة في مضمار الشعر. لقد ذاع صيته في دنيا الأدب وتمتع بنفوذ واسع. لم تتأت شهرته العريضة من رفعه راية الرومانتيكية فقط، وإنما من ترجماته الرائعة لغُزر الشعر العالمي ومن قصائده التي مجد فيها انتصار روسيا على نابليون، وظل شاعر روسيا الأول دون منافس حتى ظهور بوشكين.

يمثل شعره صلة الوصل بين شعر دير جافين الغنائي وقصائد بوشكين المبكرة. أما لغته فأصبحت نموذجاً نمطياً للشعر الروسي لأحقاب طويلة. إن قصائده الغنائية مشحونة بشحنة عاطفية مثيرة ولحن حزين هادئ تشكل بداية الطريق الموصل إلى فيت والشعراء الرمزيين.

إن المرثاة هي اللون الأدبي المفضل لديه ولعله يجد فيها صدى روحه الكثيبة الحزينة الغريبة على الواقع المر القاسي. لم يكن عبثاً أن تجذبه قصيدة «المرثاة» لتوماس غري. Thomas Gray الشهيرة، فقام بترجمتها ترجمة حرة إلى الروسية، وتتجلى فيها

٥. سبق وأن أوردنا هذا التعريف في كتابنا عن بيلينسكي

ملامح شعره وتترامى عليها ظلال من أشعار كارامزين. تحتوى كذلك على تأملات حزينة حول معاناة الإنسان وأشجانه، ماهية الحياة وكنهها. تتراءى فيها مناظر الطبيعة الحزينة ومزاج الانسان الكئيب المنقبض الذي ينسجم مع مشاعره وهمومه. ولا يفوتنا أنها «مرثاة في مقبرة ريفية»، لذلك تعلوها غلالة سوداء تشف عن الجو الشجي الذي ولدت فيه. أما مرثاة «المساء» فتنطوي على ذكريات أعوام الصبا الخوالي وما تحمله في طياتها من أفراح ومباهج بينما يطفح الحاضر بغصص حَرَى وعذابات مبرحة. نساب الذكريات والمعاناة والآلام في لحن غنائي موسيقي تعزفه روح الشاعر، تتعالى فيه زفراتها وآهاتها. يطل وجه الطبيعة الحزين المنسجم مع عاطفة الشاعر الأسوانة، شأنها شأن مرثاة غري، فهي تولد تحت أفياء روح الشاعر الشجية وتشف عن التقلبات التي تطرأ عليها. هكذا تتحول المرثاة إلى نجوى وابتهاال تصعدها الروح التي أضناها الدهر. ويقول بيلينسكي: «ان جو كوفسكي، وليس بوشكين، كان أول من تحدث في روسيا بلغة رثائية عن شكوى الإنسان من الحياة».

كانت البالادا<sup>(١)</sup> من الأجناس الأدبية المحببة إليه. لقد ترجم بعضها ترجمة حرة عن الألمانية مثل بالادا «لودميلا» التي خلع عليها حُلة روسية منسوجة من خيوط الماضي - القرنين السادس عشر والسابع عشر -، لكن عواطف الشاعر وحمم روحه اللاغبة تطفئ عليها وتفقدتها النكهة الشعبية المحلية التي نشأت فيها. ومع ذلك تظل «لودميلا» ثرية بتفاصيلها السيكولوجية وطابعها الغنائي،

٦. البالادا- كانت في نشأتها الأولى عبارة عن أغنية شعبية ذات طابع قصصي غنائي، ثم اتخذت شكل أغنية ملحمية خيالية اصطفت أحياناً بلون قاتم حزين. اشتهر جو كوفسكي وليرمنتوف في نظم البالادا.

إذ تنطوي على تناغم موسيقي عذب. من البالادا المشهورة في نتاجاته «الاثنتا عشرة عذراء نائمة» فهي زاخرة بلوحات الطبيعة الحلوة، المشحونة بجزئيات الحياة الداخلية وصور القلب المهشمة.

يحتل جو كوفسكي منزلة مرموقة كشاعر غنائي كبير استطاع - بإبداع فني عالٍ - التقاط العواطف المتأججة والمعاناة العابرة والأحلام المرفرفة في دنيا الخيال وآمال الإنسان وأفراحه وأتراحه. إن المجتمع يرفض مطامح الفرد السامية ولا يعترف بها، مما يضطره إلى الانطواء على الذات والانعزال، محتفظاً بنقاء قواه الروحية وبجبهه للمثل العليا والأمانى العظام. يظل ينشد الحب والسعادة والجمال والحرية ويتوق إليها. هذه هي النزعة الرومانتيكية التي نزع إليها جو كوفسكي في أشعاره مشوبة بمسحة حزينة شجية كانت تعبيراً عن تبرمه بالحياة الواقعية التي سلبته حريته وسعادته. منذ العشرينات من القرن التاسع عشر تقريباً أخذت تصطبغ هذه النزعة بلون صوفي واضح وتظهر عنده الميول الدينية والروحانية كتعبير عن اعتزال هذا العالم الممسوخ المشوّه الذي لا أمل في إصلاحه واستقامته.

كان باتشكوف Batyushkov مُقلِّداً في نظم الشعر ومع ذلك تركت قصائده بصماتها الواضحة في الشعر الروسي جنباً إلى جنب جو كوفسكي وباراتينسكي وغيرهم. يعتبر شعره من طلائع الشعر الرومانتيكي المتمرد على التقاليد الكلاسيكية في اللغة والأسلوب والأجناس الشعرية.

تنوعت الأجناس الأدبية التي تناولها يراعه وتباينت أنماطها. فقد عالج في الفترة المبكرة ضرباً من الشعر الخفيف أطرى فيه بهجة الحياة ولذاتها وحلاوتها، داعياً للاعتراف منها. كان لحرب ١٨١٢ أثرها العميق في نفسه. كتب قصائد مستوحاة من أحداثها

الجسام وهي عبارة عن لوحات من البطولة والشجاعة وروح الإقدام والتفحم التي أبدتها المحاربون. لكن جانبها المفجع ترك، بما أنزلته من كوارث وخراب في البلاد، حدوداً عميقة في فؤاده. وإذا به يكف عن التغني بمسرات الدنيا وفتنتها ممعناً النظر في كنهها وفحواها، وإذا بقلمه يتمخض عن كتابة المرثاة الزاخرة بالتأملات الفلسفية المعبرة عن خيبة الآمال وتحطم الأماني والشعور باليأس. أفضى به هذا الإدراك المأساوي لأسرار الحاضر إلى الالتفات نحو الماضي والانكباب على الشعر القديم ومحاكاته وطغيان النزعة التراجيدية على قصائده.

يختلف باتشكوف عن جكوفسكي بقربه من أرض الواقع التي ابتعد عنها جوكوفسكي مؤثراً صومعة الخيال والأحلام والأماني الحلوة. لقد أبدع في تصوير عالم الفرد الداخلي معطياً صوراً محسوسة لخفقات القلب الإنساني واختلاجاته. أصبحت قصائده الغنائية نموذجاً للإبداع الشعري والجودة الفنية، ولا غرؤ أن تؤثر في شعراء كبار مثل بوشكين.

تتساعد من أشعار ريليف Ryleeb ألحان البطولة والنضال والإقدام لتتحول إلى أصوات مدوية أشبه بقصف الرعود. فهو شاعر متمرد أفضى به حماسه الوطني وإيمانه الراسخ باندلاع لهيب الثورة إلى الإعدام وهو ما زال شاباً. ولو أخذنا قصيدة «إلى الطاغية» كمثال لشعره لوجدناها زاخرة بتوعد الطغاة واحتقار غطرستهم والكشف عن قسوتهم وضرورتهم. وهي موجهة إلى أراكتشيف المسؤول الأول عن إشاعة جو الرعب والإرهاب في البلاد.

ينقل في مجموعة أشعاره المسماة «أفكار» أحاسيسه العارمة بحب الوطن والبلاد. يتناول فيها عدداً من الأبطال المعروفين في

تاريخ روسيا مثل يرماه، وديمترى دونسكوي. اعتمد في معرفة سيرتهم، على كتاب كارامزين «تاريخ الدولة الروسية». يختلط فيها العنصر البطولي بالعناصر الشعبية الفولكلورية لتتخذ شكل ملحمة شعرية غنائية. استوحى في أشعاره الأخرى الأحداث التاريخية وما تنطوي عليه من معارك بطولية ضد الغزاة مثل بويما<sup>(٧)</sup> «ناليفايكو» وهو القائد الشعبي الذي قاد نضال الشعب الأوكراني ضد الغزاة البولونيين.

إن ريليف علم بارز من أعلام الشعراء الديسمبريين. لقد أعلى من شأن الشعر الحماسي الثوري بتصويره البطل الباسل المقدم المنكر لذاته، المستعد للتضحية بنفسه. وأصبحت أشعاره وحياته ملهماً لرعييل من الشعراء الروس مثل ليرمنتوف ونيكرا سوف.

قبل الولوج في عالم بوشكين الشعري نؤثر الحديث عن باراتينسكي Baratynsky ويازيكوف Yazykob في البداية. ونميل إلى التكلم عنهما أولاً لأنهما يعتبران في الحقيقة من معاصريه لا من أخلافه، على الرغم من أنهما عاشا بضعة أعوام بعده، هذا من جهة ولا مندوحة لنا من التفصيل والنظرة المستأنية لأعمال بوشكين من جهة أخرى، لأنه خط ملامح مرحلة جديدة في الأدب الروسي، لذلك آثرنا تأخير الحديث عنه.

يعتبر باراتينسكي من الوجوه البارزة في العقدين الثالث والرابع من القرن التاسع عشر. وهو واحد من هؤلاء الشعراء

---

٧. البويما قصة تسرد الأحداث والمواضيع شعراً. وكانت في أول عهدها ذات شكل ملحمة ومحتوى بطولي. وتطورت بعدئذ ولا سيما في عهد النهضة وعينت بالحياة الفردية الداخلية في الشعر الرومانتيكي. واحتوت صور شتى من حياة الناس مع ظهور الاتجاه الواقعي، كما فعل نيكرا سوف في بويما «لمن يطيب العيش في روسيا».

الذين يطلقون عليهم «The Pushkin Pleiad» في الشعر الروسي .  
لفتت قصائده الأولى ولا سيما الرثائية منها، الأنظار إليه وجلبت  
له شهرة عريضة.

تركت مأساة حياته القاسية أثراً عميقة قاتمة في شعره، وليس  
عبثاً أن تكون المرثاة من أكثر الفنون الشعرية المحببة إلى نفسه .  
ففيها وجد المرأة التي عكست أحزانه وآلامه والصدى الذي  
رجَّع أناته وزفراته. على الرغم من النغمة الحزينة التي تتعالى  
من معظم قصائده فلم تُعدم خلجات روحه من الفرحه والبهجة  
والأماني العذبة التي يتوق إليها الشباب والميل إلى الاعتراف  
من لذات الحياة. ولا غرو أن يسميه بوشكين «مغني المسرات  
والكآبة القاتمة».

ومع أن باراتينسكي عالج ألواناً أدبية متنوعة فقد تجلَّى إبداعه  
ونضوجه في المرثاة خصوصاً. ونعود للقول ثانية أن مرجع ذلك،  
مقدرته على التعبير عن التراجيديا الداخلية التي يحياها تعبيراً  
سيكولوجياً دقيقاً. فقد استطاع تتبع منعطفاتها وثناياها وزواياها  
الخفية ملتقطاً اللحظات العابرة والجزئيات غير المرئية، مما  
طبع معاناته بطابع محسوس صادق ومؤثر وأبرز حركات الروح  
الإنسانية وتموجاتها. بلغ من الإجادة والإبداع في كتابة المرثاة  
درجة صرَّح معها بوشكين أنه أصبح يخشى نشر مرثيته بعد  
قراءة «الاعتراف» لباراتينسكي، من فرط إعجابه بروعتها الفنية.

كتب عدداً من البوئيمات التي تنطوي على تصوير دقيق  
لعالم الإنسان الداخلي مبتعداً به عن التجريد والمبالغة، لكنها  
لم تحظ بالاهتمام الذي تستحقه رغم فنيته العالية. لقد حدث  
العكس، فقوبلت بشيء من التعسف والجفاء. يفسر بعض  
النقاد المعاصرين عدم تقويم اشعاره تقويماً جيداً بهيمنة النقد

الرومانتيكي على الحياة الأدبية آنئذ. فلم يستسيغ تصويره الواقعي لسيكولوجية الفرد ومعاناته الوجدانية. عندما ساد النقد الواقعي نحووا باللائمة عليه لوجود السمات الرومانتيكية في شعره. وهكذا لقي الصدود والملامة من كلا الفريقين.

تعمق وعيه التراجيدي للمجتمع في أواخر حياته بعد ازدياد الإرهاب القيصري وطغيان مظاهر الظلم والاستبداد مما حوّل الحياة إلى دياجير لا يجد كوة ضوء في متاهاتها. ورغم ابتعاده عن الحركة التحررية فقد كانت تجمعه أواصر صداقة ببعض الديسمبريين في شبابه. ظل قلبه يخفق بحب الوطن ويعتز ويأسى للخطوب والمظالم التي تنزل به. زد على ذلك شعوره بالضياع وعدم الانتماء إلى أية فئة رغم انحداره من طبقة النبلاء. حوّل هذا الوضع بمجموعه حياته إلى عبء ثقيل مضمّن أمّض روحه وعمّق التناقضات في نفسه. لذلك يتسم شعره الأخير بميسم التشاؤم والمأساة واللون التراجيدي والمعاناة من التمزق الداخلي والشعور بالغرابة.

أغنى يازيكوف اللغة الشعرية، وأثارت لغة قصائده الغنائية العذبة إعجاب كبار معاصريه مثل بوشكين وغوغول. فالكلمة عنده مشحونة بقوة تعبيرية عالية، يتميز أيضاً بمقدرته على إعطاء تفاصيل محسوسة ومقارنات مثيرة. ولا غرابة أن يقول عنه غوغول أنه: «يسيطر على لغته كما يسيطر العربي على جواده الجامح، زد على ذلك أنه يبدو مزهواً بسطوته عليه».

ينم ديوانه الأول الذي صدر عام ١٨٣٣ عن موهبة كبيرة سيكون لها شأن في الشعر الروسي. تدور الألوان الشعرية التي تناولها حول الأغاني والمراثي والرسائل الشعرية المهداة إلى بعض الأشخاص. كتب أيضاً قصائد ذات مضامين تاريخية. تطل

من قصائده في العشرينات روح وطنية متحمسة تضيق بالحياة  
الراكدة التافهة التي يعيشها المجتمع، ويتوق لتحطيم الأغلال التي  
تكبل الفكر وتُغله، ويدعو إلى نهوض المجتمع ويقظته ونفض  
غبار التخلف عنه وبعث قوى الخير والفرح والعمل الراقدة في  
باطنه. تقترب بعض قصائده في تمجيد بطولات الشعب الماضية  
ومحاربتة الغزاة من أشعار ريليف الذي يمجّد البطولة والإقدام.

نحاً في الثلاثينات منحى جديداً في أشعاره التي اتخذت طابعاً  
دينياً وروحانياً. انضم إلى جماعة السلافيين الداعين إلى الانطواء  
على التراث القومي وعدم الانفتاح على الحضارة الأوروبية. ولم  
يعط شيئاً جديداً كما فعل في المرحلة الأولى من نتاجه، ومع  
ذلك فقد ظل شعره يشغل حيزاً ملحوظاً في الشعر الروسي.

\*\*\*

من نافلة القول أن بوشكين منقطع القرين بين معاصريه، فقد  
أعطى الأدب الروسي زخماً شديداً امتد تأثيره على اخلافه من  
الشعراء، بل وحتى على الكُتّاب مثل غوغول Gogol، تورغينيف  
Turgenev، تولستوي Tolstoy، تشيخوف chekhov، غوركي Gorky  
وغيرهم. فهو يتمتع بموهبة فريدة ووعي عميق لروح العصر وفهم  
شامل لمتطلبات الأدب الروسي. لقد استطاع مدّه بدماء ساخنة  
وتأصيل أصوله في جوانب شتى واختصار طريقه ورفعته إلى  
مستوى الأدب الأوروبي الذي سبقه تاريخياً في النمو والازدهار.

لنعد إلى مستهل مسيرته الأدبية ونتابع خطواته لكي ندرك سراً  
تلك الوثبة التي تحققت على يديه. ينبغي ألا ننسى أن بوشكين  
يمثل محصلة ما توصل إليه الشعر الروسي حتى عصره والمصعب  
التي تناهت إليه روافده المتعددة ومنجزاته الجمّة. فلم يبدأ إبداعه

من أرض سَبْخَة وإنما من تربة خصبة غنية. لهذا لا يشكل نتاجه - رغم عظمته وعدم وجود نظير له - ظاهرة فريدة غريبة طارئة في الأدب الروسي وإنما كانت له امتداداته في الماضي والحاضر ومن ثم كانت له آثاره اللاحقة في عصر يعتبر العصر الذهبي للأدب الروسي.

أعجب بوشكين في باكورة حياته بجوكوفسكي وباتشكوف من الروس وفولتير Voltaire وشينيه Chénier وبايرون Byron من الأجانب. لم تخل قصائده الأولى من علامات التأثر بهم ولا سيما بايرون. كان معجباً بروحه المتمردة الجامعة التي تمثل جانب العنف والثورة في الحركة الرومانتيكية الإنكليزية إذا قيس بنظرائه الرومانتيكيين مثل شيلي Shelly وكيثس Keats وغيرهم.

إن النزعة الرومانتيكية واضحة السمات في أشعاره الأولى. ففي بوئما «روسلان ولودميلا» يصور الأجواء البطولية التي يحياها روسلان وهو يسعى لتحرير بلاده، والأحداث مستوحاة من تاريخ روسيا القديم. تنطوي البوئما على لوحات رائعة لمناظر الطبيعة وتنفرد قافيتها بإيقاع عذب خفيف. أما أسلوبها فيتسم بالسلاسة والطلاوة ومع ذلك لا يخلو أحياناً من نبرة خطابية. يشوب حركتها توقفات لإفساح المجال أمام المناجاة الغنائية التي تعبر عن تفكير الشاعر وآماله أكثر مما تعبر عن آماني البطل. تمتزج فيها النزعة الرومانتيكية بعنصر رثائي. أثارت هذه البوئما إعجاب الوسط الأدبي - رغم قصورها عن نقل المناخ الشعبي الذي تصوره - ولقيت صدى واسعاً لدى الشعراء. كان إعجاب جوكوفسكي بها مفرداً لدرجة كتب على صورته التي أهداها إلى بوشكين «من المعلم المهزوم إلى التلميذ المنتصر».

انتقل بعدئذ إلى كتابة بوئما «أسير القفقاس» ويصور فيها

شباب عصره الذين يؤلف بينهم الإحساس المبكر بالشيخوخة والتعب والسأم والضياع. يفر البطل من المدينة إلى مجتمع أولئك الأقوام الذين يعيشون عيشة طبيعية فطرية بعيدة عن تعقيدات الحياة المدنية ساعياً للاندماج في محيطهم الطليق واستعادة حرته المفقودة. كانت حياة القفقاسيين الذين يتسمون بالشجاعة والقوة والبأس ويحيون في أحضان الطبيعة موضع جذب للكتاب والشعراء الروس مثل ليرمنتوف وتولستوي اللذين تناولا هذا الموضوع أيضاً. إن الحياة الطبيعية هي البديل للمجتمع الحضاري الذي يُغفل الإنسان ويسلبه حرته وإرادته. لكن بوشكين لم يفلح في نقل المعاناة الوجدانية التي يحيها البطل بكل أبعادها من جرّاء أسلوبه الرومانتيكي مما أفقد البطل سماته الواقعية التي يتسم بها، حيث اختلطت شخصية البطل والشاعر ببعضهما، وأحس بوشكين بذلك فيما بعد.

تطرق في بوئيمما «نافورة باختشساري» إلى موضوع حب خان لفتاة أسيرة، عالجه معالجة في الأدب الروسي. إن ماري ترفض حبه وجاهه وغناه وهو الذي لم ير شيئاً من هذا القبيل طوال حياته، مما يؤجج نار الهوى في نفسه نحوها. يفضي بها صدودها عنه إلى القضاء على حياتها وتنتابه حالة من الكآبة والحزن. تنطوي البوئيمما أيضاً على لوحات رائعة لمناظر القرم. أما أسلوبها فيتميز ببسر العبارة والمعاني الدقيقة يصاحبه إيقاع شعري عذب.

إن هذه البوئيمات وكذلك قصائده الأولى لا تخلو من إحياءات بايرونية. فقد أفاد بوشكين من القصيدة البايرونية ومواضيعها الرومانتيكية وطبيعتها الغنائية، ولكنه ظل بعيداً عن روحها الدرامية ولم يؤثر العزلة والانفراد. كانت نظرة بوشكين

للحياة متفائلة - رغم وجهها القبيح المتجهم - فلم يستول عليه القنوط أو اليأس. ففي قصيدته التي نظمها اندريه شينيه<sup>(٨)</sup> يُدين الطغيان الذي أودى بحياة الشاعر، لكنه يظل واثقاً من انتصار الحرية. لعل مبعث تفاؤله هو النضال المتصاعد ضد النظام العبودي والأمل بإقامة مجتمع أفضل، بينما لم تتحقق الأمانى العظام التي وضعها الناس على الثورات التي قامت في أوروبا، مما ترك اليأس في النفوس المؤلمة ما لا يؤمل من تلك الهزات الاجتماعية التي اجتاحت أوروبا.

لا بد من الإشارة أخيراً إلى بوئيمما «الضجر» القريبة في موضوعها من «أسير القفقاس». إن بطلها يروم التحرر من أسار الحياة الأرستقراطية وينشد الراحة النفسية والسعادة في مجتمع الناس العائشين على الفطرة وبين ربوع الطبيعة. لكن إليكو البطل لا يقدر على أن يجد له مكاناً في محيطهم من جراء تربيته وثقافته اللتين ظلتا تشدانه بأواصر متينة إلى مجتمعه رغم ثورته على قيمه وأعرافه وتبرمه بها. نلاحظ في هذه البوئيمما أن التصوير الواقعي للبطل والعادات والأعراف أخذ يبدو واضحاً في نسيجها الرومانتيكي. فالفرد مهما نأى فكره عن قيم البيئة التي نشأ فيها لا يستطيع فصم العروة الوثقى التي تربطه بها والعيش في مجتمع الغجر الحر الطليق.

تغلبُ على هذه البوئيمما التي تسمى «البوئيمما الجنوبية»

---

٨. أندريه شينيه André chénier (١٧٦٢ - ١٧٩٤) ألقى القبض عليه في ٩ آذار ١٧٩٤ وحوكم بتهمة خيانة الثورة. اقتيد إلى المقصلة في ٢٠ تموز ١٧٩٤. وتعتبر قصيدته «الشابة السجينة» من أروع القصائد التي تمثل حال المحكومين بالإعدام والذين ينتظرون الموت في كل لحظة ويعيشون في رعب دائم، لقد أوجتها له إحدى نزيلات السجن. مما يزيد من مأساة الشاعر أن روبسبير ذهب للمقصلة بعده بيومين فقط وأسدل الستار على عهده.

النزعة الرومانتيكية ونظمت بين ١٨٢٠-١٨٢٤. وهي عبارة عن سلاسل نقلت بوشكين من التصوير الرومانتيكي إلى التناول الواقعي للأشخاص والأحداث بعد شعوره أن الطريقة الرومانتيكية قصرت عن نقل الوقائع بكل زواياه ومنعطفاته. شرع يدعو، في الوقت ذاته، إلى الكف عن محاكاة الأدب الأجنبي وضرورة خلق أدب يقوم على أساس روسي صلد، ينطوي على «غذاء للألباب وعلى مواضيع مهمة للتفكير».

استقى العديد من مواضيعه من تاريخ روسيا وعُني بالشخصيات المهمة التي لعبت دوراً بارزاً فيه. كانت العودة إلى التاريخ ودراسته ونقل أحداثه إلى المجال الأدبي تأصيلاً للأدب الروسي وعاملاً من العوامل المساعدة على خلق تراث قومي السمات والملامح. كتب تراجيديا «بوريس غودونوف» من هذا المنطلق التاريخي وصور فيها الدراما الروحية التي عاشها القيصر غودونوف. وهي تشكل انتقالاً نوعياً في أسلوبه. من الطريف أنه حينما قرأها بصوت عالٍ قال: «بخ، بخ يا بوشكين، يا ابن الكلب!» من فرط إعجابه بها.

كان شعره المبكر مفعماً بالأمل والثقة بانتصار الحرية وروح التمرد على الدياجير المتغلغلة في ثنايا الحياة وطياتها. ففي عام ١٨١٨ نظم قصيدته المعروفة «الحرية» الداعية إلى الثورة على الطغيان والإيمان بمستقبل أفضل. ينطوي أسلوبها على عناصر كلاسيكية ورومانتيكية قريبة في مضمونها من قصيدة ديرجافين «إلى الحكام والقضاة». تتعالى من قصيدة «إلى تشاداييف» صرخة التمرد على الحياة الراكدة الرتيبة وإمكانية نهوض روسيا من سباتها وتحطيم أغلالها. نظم في قرية ميخائيلو فسكيه قصيدة «القرية» التي يعطي فيها صورتين متباينتين من حياة القرية.

صورة للطبيعة الجميلة الوادعة الهادئة وأخرى للإنسان المضنى المتعب الذي يكد ويشقى. جلبت هذه القصائد المبكرة وغيرها شهرة عريضة له في البلاد باعتباره مغني الحرية وشاعر الوطن ومحط آماله وأمانيه. أثارت في الوقت ذاته حفيظة القيصر والأوساط الحاكمة عليه، مما أدى إلى نفيه.

أما قصائده الغنائية فترجع أصداً القلب الإنساني وتطفح بلواعج النفس وهمساتها الخفية وشكواها الصامتة. تتغنى بالجمال والحب والهناء وبكل هبات الدنيا الثرة الحلوة. تتعالى منها كذلك آهات الشجن لعدم ديمومة الحياة ولما يصاحبها من فراق وجوه ووداع. فالسعادة والأمانى التي يأمل المرء إدراكهما تظلان حزمة ضياء منيرة وأملاً حلواً يرنو إليهما، لكنه لا يدركهما. ومع ذلك تبعثان الدفء والطمأنينة في قلبه وتمنعانه من الاستسلام للخور والقنوط. إن روح التفاؤل والاندفاع التي نلمسها في مستهل مسيرته الشعرية تمتزج الآن بنغمة حزينة ولحن أسوان. فقد عركه الدهر ولا سيما بعد فشل انتفاضة الديسمبريين مما جعله يدرك الأبعاد التراجيدية للحياة واصطدام صراع الإنسان من أجل الحرية والسعادة بقوة غاشمة لا ترحم. ورغم الجو القاتم الذي خيم على روسيا في هذه الفترة وسيادة روح اليأس والخنوع فقد ظلت راية الشعر شامخة في يده متعالية عن الواقع المهين، مصونة عن التهاوي إلى حضيضه.

تنوعت الأجناس الأدبية التي تناولها يراعه والتي أرسى أسسها في الأدب الروسي. فقد وضع مسرحيات قصيرة ذات مشهد واحد مثل «موزارت وساليري» وكتب الرواية والقصة والمسرحية والمقالات النقدية. أكد في مقالاته التي كتبها في الثلاثينات على ضرورة خلق تراث قومي يستشف روح العصر

والسمات الوطنية. أشار إلى أهمية تطوير الأجناس الأدبية ولا سيما الثرية منها لقدرتها على الاستيعاب الواسع لمختلف مظاهر الحياة الروسية. ولا غرور أن يكون بوشكين من الرواد الأوائل في هذا المجال. فقد اتجه في مطلع الثلاثينات إلى النثر الذي أخذ يطغى على الشعر، ولو أن قصائده ظلت تحتفظ بقوتها الفنية حتى أواخر حياته. وهكذا نرى أن بوشكين لم يقف عند تخوم الشعر فحسب بل تجاوزها إلى النثر وكان ذا باع طويل في كلا المجالين، بحيث اعتبره غوغول «ظاهرة فريدة» في الأدب الروسي، فقال: «فيه تتجلى الطبيعة الروسية والروح الروسية واللغة الروسية والخلق الروسي بنقاء وجمال صافٍ كما تنعكس صورة منظر طبيعي على سطح عدسة محدبة».

تتميز لغته بالسلاسة والوضوح والإيجاز. إن كل جملة أو عبارة تحتل مكانها المحدد لها في النسيج الأدبي بحيث لا يمكن شطبها أو حذفها إلا وأحدثت خللاً في النص. قد جمعت لغته بين تقاليد الثقافة الروسية التي تبلورت حتى عصره والتراث الشعبي ولغة الفئة المثقفة واللغة البسيطة المتداولة عند عامة الناس، وعمل على تشذيبها وتخليصها من الشوائب التي يمجها الذوق الأدبي. اكتسبت الكلمة الشعرية لديه وضوحاً ودقة لم تعهدهما من قبل، فاستطاع تفجير قواها الداخلية وشحنها بمعان جديدة. أمّد هذا الاستخدام المقنن الدقيق للغة، شعره بميزة خصوصية، فهو - كما يقول عنه بيلينسكي - «خلق متكامل متناهٍ منتظم ومتناسق».

أرسى بوشكين دعائم الاتجاه الواقعي في روسيا. استطاع رسم الشخصية الإنسانية من الأرضية الاجتماعية التي تقف عليها، واختار أبطاله من الحياة اليومية المألوفة ومن مظان

التاريخ، وحاول نفخ الحياة فيهم وإظهار الصفات المتباينة التي تنطوي عليها طبيعتهم وأخلاقهم دون الاقتصار على إظهار جانب دون غيره. بذلك تجاوز التصوير التخطيطي لدى الكلاسيكيين أو العواطف الاستثنائية المتوقدة لدى الرومانتيكيين. كشف نوازع الإنسان المألوفة ومال إلى تصوير سلوكه وعاداته وتصرفاته أكثر من تصوير حياته الداخلية. كان يدخل إلى الموضوع مباشرة ويتناوله بعفوية وإيجاز ووضوح، يساعده في ذلك حسه الأدبي المرهف، فتمكن من خلق نماذج شعرية ونثرية ظلت موضع إعجاب وتمعنة ودراسة للأجيال اللاحقة.

تذكرنا كلمة أغنية بالشاعر ألكسي كولتسوف Aleksy Koltsov الذي ارتبط اسمه بها لكثرة ما نظم من أغاني جميلة عذبة الإيقاع بحيث وضع الكثير من الموسيقاريين الروس مثل غلينكا Glinka وريمسكي كورساكوف Rimsky Korsakof وراخمانينوف Rachmaninof موسيقى لأغانيه.

بدأت محاولاته الشعرية الأولى عام ١٨٢٥ وسرعان ما جذب أنظار الأوساط الأدبية إلى شاعريته الناصعة وصدق الفني. وظهرت قصائده على صفحات أمهات المجلات الأدبية مثل «سفرمينيك» و«اتيشسفينيه زايبسكي»، ولقي بعضها صدى واسعاً مثل «عالم الله»، «القبر»، «الكلمة الجبارة».

اهتم بدراسة الشعر الشعبي وقام بجمعه وتأثر بالأغاني الشعبية. لقد استهواه نظم الأغاني دون الألوان الشعرية الأخرى لشيوعها بين الناس وترددها على أفواههم، فهي من أكثر أنواع الشعر انتشاراً وشهرة. ارتبط ظهور الأغنية كنوع شعري متميز بقيام عرى وثيقة بين الأدب والفولكلور بما فيه الشعر الشعبي. استطاع كولتسوف التعبير تعبيراً فنياً واعياً وعميقاً عن روح الشعب

وأجواء الريف، استقى مواضيعه من حياة الفلاحين المضنية  
وعملهم المرهق الذي يقصم ظهورهم ويهدم قواهم في سبيل  
الحصول على لقمة العيش. صور البؤس والتعاسة والعوز الذي  
يعاني منه الريف الروسي وحلم الإنسان بالسعادة والعمل الحر.  
تنطوي أغانيه، مثل «تفكير قروي»، على نماذج لفلاحين لم يرثوا  
عن آبائهم سوى الفاقة والقوة العضلية القادرة على تحمل العمل  
الشاق.

أما قصائده الأخرى فيتسم بعضها بطابع غنائي أو تنطوي على  
تأمل بكنه الحياة والتوق إلى الحرية المؤملة. ففي قصيدة «الكلمة  
العظيمة» ينادي الحرية قائلاً:

أيتها الحرية، أيتها الحرية!  
أين فردوس مسراتك؟  
إن آثار خطاك رهيبة  
وعليها وشم من الدماء.

من قصائده المشهورة «الغابة» المكرّسة لذكرى وفاة بوشكين،  
الذي أحدث موته الغادر هزة عميقة في نفسه. يصوره فيها كمارد  
أسطوري يحارب قوى الظلام الكثيفة المتمثلة بالملأ الأعلى  
من المجتمع، وهي تفيض بحرارة صادقة وعاطفة جياشة نحو  
بوشكين.

لا ترقى قصائده الفلسفية التي يتأمل فيها جوهر الحياة ونظامها  
الداخلي إلى مستوى قصائده الأخرى من الناحية الفنية. لا يقلل  
هذا من منزلته الشعرية ومن أهمية أشعاره الغنائية وأغانيه. فهو  
كما يقول بيلينسكي: «لا يحمل بين حناياه جميع عناصر الروح  
الروسية: القدرة الرهيبية على الألم والمتعة، والميل الجامح

للاستسلام للحزن والبهجة، هذا إضافة إلى الإناخة تحت وطأة اليأس وإمكانية إيجاد نشوة عاصفة جريئة رحبة فيه».

كان ليرمنتوف Lermontov الشاعر الذي انعقدت عليه آمال الأوساط الأدبية بعد موت بوشكين ليحتل مكانه في دنيا الشعر والنشر.

نمت قصائده الأولى عن موهبة فريدة وحس صاف وبصيرة ثاقبة وشاعرية مبدعة. ولكن اليد التي امتدت إلى بوشكين امتدت إليه أيضا وطوت حياته وهو في ريعان الشباب.

على الرغم من السنوات القلائل التي عاشها ليرمنتوف فقد ترك تراثاً يقع في أربعة أجزاء، تحتوي على القصائد الغنائية والبوئيم والمسرحية والرواية الثرية. كما أغنى ديوان الشعر الروسي فقد أغنى الرواية الروسية أيضاً وترك أثره الملحوظ فيها. إن رواية «بطل عصرنا» - أو إذا توخينا الدقة الحرقية في ترجمتها «بطل زماننا» - تعتبر أول رواية واقعية سيكولوجية في الأدب الروسي تستقصي «تاريخ النفس البشرية» كما ورد ذلك في مقدمة الكتاب مما جعله من الرواد الأوائل للرواية السيكولوجية التي ازدهرت على يدي تولستوي Tolestoy ودوستويفسكي Dostoevsky فيما بعد.

نظم في مستهل حياته الشعرية العديد من القصائد التي سكب فيها لواعج نفسه وغصص روحه. وعبرت عن تأملاته في الحياة وآرائه فيها وأظهرت آلامه النفسية وهمومه الفكرية وأبعاد مأساته في الإطارين الروحي والاجتماعي. تميز الكثير من أشعاره الأولى بالأصالة الفنية وشف عن طاقة إبداعية كبيرة مثل «الزورق الشراعي»، «المعوز»، «الملاك» والقصيدة التي مطلعها: «كلا، لست بايرون» التي

يدفع بها عن نفسه تهمة محاكاته لبايرون. إن حبه لهذا الشاعر لم يفقده أصالته وخصوصيته الذاتية، فأشعاره تشف عن سريرة نفسه وآماله المحطمة وتصطبغ بصبغة محلية واضحة.

هيمنت النزعة الرومانتيكية في الحقبة المبكرة على نتاجه الفني، بينما كان بوشكين قد تجاوزها في تلك الفترة من تأثر ليرمنتوف بها. انكفاً على تأمل نفسه واكتشاف خباياها وما تنطوي عليه من عوالم يجهلها ولا يعرف أسرارها. إن روح التمرد والجموح اللتين تميز بهما بايرون كانتا موضع تقديره وحبه، هذا إضافة إلى إعلائه من شأن الذات الإنسانية الشامخة والروح الفردية. كان تأثير بايرون في الأدب الروسي واضحاً في الثلاثينات بعد قمع انتفاضة الديسمبريين وسيادة روح القنوط وضياع الآمال العظام.

بيد أن تأثيره ببايرون لم يدم طويلاً لأن الانطواء داخل الذات الفردية حال بينه وبين فهم الواقع واستيضاح جوانبه المتباينة. أصبح يميل إلى شكسبير، لشمولية التصوير عنده وتغلغله في أعماق النفس الإنسانية. اتجه أيضاً نحو التراث الشعبي وأعجب به لاحتوائه على روح شاعرية ثرة. ساعدت الروافد العديدة التي رقد منها شعره على تفتح موهبته وإغنائها. أعطى نماذج متعددة للبطل المتمرد على الواقع الكالح الطامح إلى الانطلاق من سلسله نحو آفاق الحرية الواسعة. وإذا كان بوشكين قد ازدهر شعره في فترة انتظار الظفر للقوى المناضلة ضد الظلم والاستبداد والثقة بمستقبل أفضل، فإن شاعرية ليرمنتوف تفتحت في عهد دحر تلك القوى وهزيمتها والتنكيل بها. من هنا تأتي أهميته في الأدب الروسي، فهو كما يقول بيلينسكي: «يمثل حلقة جديدة تماماً في سلسلة التطور التاريخي لمجتمعنا» وفيه «تفجر اللحظة التاريخية للمجتمع الروسي». أصبح شعر ليرمنتوف

خير مُعبّر عن عصر الظلمات الذي عاشته روسيا بعد نكبة  
الديسمبريين، فقد رفع الحجب عن الوضع المأساوي الذي  
أصبح أحد ضحاياه.

ومع وضوح رؤيته للحياة أخذ ينتقد التصوير الذاتي للبطل  
ويدعو إلى تصويره «كنمط» لمجموعة من الناس كما جاء في  
كتابه «بطل زماننا»: «ينبغي تقديم... دواء حريف وحقائق مرة»  
مستقاة من صلب الحياة. وهذا ما فعله في قصيدة «موت  
شاعر» التي نظمها في رثاء بوشكين عام ١٨٣٧. فهو يشير  
بصراحة إلى اليد التي امتدت لقتل بوشكين، يد الحاكمين  
الطغاة وحاشيتهم، يهددهم «بمحكمة الله» على هذه الجريمة  
النكراء. وهي تشكل جنساً أديباً جديداً لم تعرفه القصيدة  
الروسية من قبل. فالمرثاة تتخذ لوناً نقدياً شديداً، فهي مرثاة-  
ساتيرية في الوقت ذاته. لقد قال عنها مكسيم غوركي: إنها  
المعبّر الحقيقي عن غضب الشعب وسخطه على قتل بوشكين.  
في قصائده الرائعة الحافلة بالنقمة على الوضع القائم مثل  
«وداعاً يا روسيا غير المستحمة»، يؤلمه ويحز في قلبه أن  
الغالبية العظمى لا تعي ما تتعرض له من مظالم وما تتحملة  
من آلام، ولا طاقة للشاعر الصبر على هذه الحال، لذلك يسمي  
روسيا «بلاد العبيد» و«الشعب الخاضع».

ثمة ألوان أخرى من النقد الاجتماعي كما في قصيدة  
«تأملات»، ينحي فيها باللائمة على الحياة التافهة، المضجرة  
الفارغة التي يحيها أبناء جيله، ويدين روح التراخي واللامبالاة  
إزاء الأحداث. وهي تبين روح الغربة والوحدة التي يعاني منها  
الشاعر بين ظهرائي محيطه الاجتماعي. يعلق عليها بيلينسكي  
قائلاً: «كتبت هذه الأشعار بالدم، وانبثقت من أعماق نفس مهانة.

إنها صرخة وأتات امرءٍ يعتبر انعدام الحياة الوجدانية شراً أسوأ  
بألف مرة من الموت الجسمي!...».

تتفجر مشاعره الوطنية في قصيدة «بورودينو» التي نظمها  
بمناسبة مرور ربع قرن على ذكرى هذه الملحمة التاريخية  
الكبرى. يستلهم فيها صور الماضي الحافلة بالشجاعة والإقدام  
والبطولة ثم يقارنها بالجيل الحالي الذي تضيع حياته هباءً مثوراً  
دون عمل مجدٍ أو غاية مهمة. يقص حكاية المعركة على لسان  
جندي عادي بسيط من الذين شاركوا في القتال. أثرت هذه  
القصيدة في العديد من الشعراء والكتاب، منهم ليف تولستوي،  
وكانت أحد الروافد التي استقى منها تصوير الجندي في رواية  
«الحرب والسلام» كما ذكر الكاتب نفسه ذلك.

هناك مواضيع الحب والطبيعة التي نظم فيها قصائد عديدة  
وتتخذ عنده نكهة خاصة. فالحب هو هبة الحياة الجميلة وهو  
النقاء الروحي. لكن المجتمع يشوه حتى الحب، فيصبح لدى  
علية القوم وسيلة لقضاء الوقت وإظهار العواطف الزائفة والتلاعب  
بمشاعر الآخرين. رغم ذلك يظل الحب الصافي الحقيقي موجوداً  
تنعم به القلوب الولهانة أو تشقى لضياعه.

الطبيعة منبع الجمال والهدوء والشاعرية لدى كثير من الشعراء  
مثل باراتينسكي وتوتشيف. لكن ليرمنتوف قلما يستطيع الاستسلام  
لإغرائها، فهو يحمل معه قلقه وحزنه ومزاجه المتكدر دائماً.  
تتخذ الطبيعة ألواناً متنوعة تتغير على مدى فصول السنة. فهي  
تارة حزينة أسوانة وتارة تضج بالحياة وتتخايل بجمالها مزهوة  
بصباحها الذهبي ونضارة غاباتها وخريف مياها وألوانها الزاهية،  
ولكن الشاعر غالباً ما يشعر بالحزن بين ربوعها كما في القصيدة  
التي مطلعها «وحيداً أخرج إلى الدرب»، يصف فيها جمال

الطبيعة الرائع ويتساءل «فعلام أنا حزين ومثقل القلب؟».

طَوَّر ليرمنتوف الفنون الشعرية ووسع أُطُرَهَا. أما ما يخص الأوزان الشعرية فقد استخدم الوزن الثلاثي استخداماً كبيراً، بينما كتب بوشكين ما يقارب ٨٤ بالمائة من شعره على وزن الأيامبوس الأثير لديه. كان هذا الوزن الثلاثي يلائم القافية عنده، واستطاع استعماله لتطوير فنه الشعري.

أمد ليرمنتوف التراث الشعري بنسخ جديدة ووضحت فيه أصالته الذاتية، أو ما يسميه بيلينسكي «بالعنصر الليرمنتوفي». تمثلت فيه أفكاره ومقدرته الخاصة على الخوض في عوالم النفس الداخلية واستبانة خفاياها والكشف عن الروح الصلبة المتحدية التي يتميز بها أبطاله، أو الوهن والكسل الذي يسري في عروق بعضهم الآخر.

ظن البعض، بعد وفاة ليرمنتوف، أن جذوة الشعر قد خبت في روسيا ومضى عصره الذهبي إلى غير عودة. ومما دَعَمَ هذا الظن ازدهارُ الأجناس الثرية ولا سيما القصة والرواية على أيدي بوشكين وليرمنتوف وغوغول وحيازتها على منزلة رفيعة في الحياة الأدبية وانجذاب الأنظار نحوها. لكن أَلَقَ الشعر لم يخب رغم انتزاع النثر مكان الصدارة له. فقد ظهر شعراء نابغون مبدعون مثل توتشيف وفيت ونيكراسوف وغيرهم تركوا آثارهم البارزة في الحياة الشعرية.

\*\*\*

بقي توتشيف Tyutchv شاعراً مغموراً حتى كتب عنه نيكراسوف ومن ثم تورغينيف وكشفا عن قوة شعره والخصائص التي يتميز بها. لم يحز على المكانة الخليقة بشعره من جراء عدم مواصلته

نظم الشعر والانصراف عنه لمدة طويلة في بعض الأحيان. ظلت شهرته تتراوح بين الصعود والهبوط حتى أواخر حياته ولم يحدث موته صدى كبيراً في الأوساط الأدبية.

كان موقفه إصلاحياً تجاه حل القضايا الاجتماعية ومعارضاً للحلول الثورية. هاجم العديد من الثورات والانقسامات التي عاصرها. أما اتجاهه الشعري فيميل إلى الفن الخالص ومدرسة الفن من أجل الفن التي يمثلها فيت وبولونسكي وغيرهم. ومع ذلك يختلف عنهم في تصوير مشاعر الإنسان وأحاسيسه فهو يغوص عميقاً تحت سطح الأشياء محاولاً استبانة خفاياها. يقول الناقد دوبرالوبوف Dobralyubov عن تصويره لهواجس الحب مقارناً إياه بفيت، أنه يختلف عن الأخير «بعواطفه الساخنة وطاقته الصارمة وفكره العميق الذي لا تستحته المظاهر العفوية وحدها، وإنما القضايا الأخلاقية واهتمامات الحياة الاجتماعية».

يرسم توشتيف لوحات رائعة لمناظر الطبيعة تمثل إضافة جديدة في دنيا الشعر وتشكل إحدى النواحي الرئيسية في إبداعه الشعري وعبقريته، فجمال الطبيعة الفتان وتغيراتها لا تستهويه وحدها. إنه يروم استكشاف مجاهلها المترامية الخفية عن أنظارنا، فهي تمتلك حياتها الداخلية الخاصة التي تموج بالحركة الهادئة والأحاسيس النابضة والأحاديث الهامسة «ففي حناياها روح وحرية، حب وحديث» ويحاول استبطان ذلك العالم الداخلي الذي لا ندركه ولا يخطر على بالنا أحياناً.

الطبيعة ليست ذات نسق متجانس. فالطبيعة الجنوبية وديعة وهادئة، مناقضة لنظيرتها الشمالية الصارمة الباردة، لذلك تخلق مشاعر متنافرة في الإنسان. فتارة تملأ نفسه بالبهجة والتفاؤل، وتارة تبعث فيها القلق والاضطرابات والحزن. إضافة إلى هذا

تتكشف ذات الإنسان الحزينة أو المرححة إبان تأمله للطبيعة ويخلع عليها معاناته وهمومه.

إذا كانت الطبيعة تمتلك حياتها الموازية لحياة الإنسان والمؤتلفة معها فإنها تختلف عنها بتجدد شبابها ونضارتها. ينقل هذا الإئتلاف والاختلاف الشاعر إلى التفكير في مصير الفناء الذي ينتظره. فهي خالدة أزلية على مدى الدهور والعصور بينما هو مخلوق زائل سائر نحو الهرم والفناء.

يموج قلب الإنسان بالحب الذي يولد فيه مشاعر وأحاسيس مضطربة. تتوق نفس المرء للحب وتحيا به، لكنه بدل أن يحمل لها الهدوء والوئام والراحة يزيد في عذابها وقلقها وشجونها. «الفؤاد يحب ويعاني ويذوي حزناً، ويفنى أخيراً...» ويغدو أحد أسباب آلامها وتمزقها.

تجلى إبداع توتشيف في أشعاره الغنائية ووصفه عالم الطبيعة والغور إلى أعماق النفس البشرية وكشف منعطفاتها. يرى فريق من النقاد أن أسلوبه الغني قد تجلت سماته منذ عام ١٨٣٦ ولم يطرأ عليه تطور ملموس بعدئذ، بينما يرى البعض الآخر أن لمسات جديدة خطها يراعه في تصوير الطبيعة ولوحاتها واتخذت الحياة الوجدانية لونا سيكولوجياً عميقاً. ومهما تكن آراء النقاد فيه، فلا ريب أن تراثه الشعري غني وأصيل ومؤثر.

يعتبر فيت Fet من أعلام مدرسة الفن للفن التي برزت في الستينات من القرن التاسع عشر عندما استقطب الصراع الاجتماعي بين مختلف القوى الوطنية. لذلك لقي هجوماً ونقداً كبيرين لا يتعاده عن تناول القضايا الوطنية الملتهبة. وما كان منه إلا أن لزم الصمت لحقبة طويلة تناهز العشرين سنة. لا

يعني مهاجمة مضمون قصائده غض النظر عن إمكاناته الشعرية الإبداعية ونبوغه. فمنذ أن بدأ في نشر قصائده الأولى عام ١٨٤١ في مجلة «موسكفيتانين» لفت أنظار نقاد كبار مثل بيلينسكي والشاعر نيكرا سوف. اعتبره الأخير «سيداً في مجال الشعر الذي يجيده، شأنه في ذلك شأن بوشكين في مجالاته الواسعة المتنوعة».

ينبغي على الشاعر الابتعاد عن هذا «العالم البائس» إلى عالم الفن العامر بالجمال والفتنة والأحاسيس الحلوة. يجب الاعتراف من هبات الحياة ولذائذها رغم أنها لا تخلو من الآلام والأحزان، بل إن «الحياة كآبة والفن فرح»، هذه هي الفكرة المألوفة لدى فيت كما يقول عنه أحد النقاد. إن الاستسلام لنشوة الهوى وحسن الطبيعة ومتاعه الفن هو المنقذ الوحيد للإنسان من فظاظة الحياة الواقعية وقسوتها. لذلك يسمي الفن سلوة الإنسان والبلسم الذي يشفي جروح روحه المتعذبة.

الحب والطبيعة والفن من أكثر المواضيع التي تستهوي الشاعر ويعالجها في قصائد متعددة. تتميز أشعاره الغنائية برقتها وحرارتها وتمتزج فيها لحظات الفرح الهادئ بكآبة خفيفة. لا تنشق المعاناة العاطفية من أرض الواقع وإنما تحلق في رقرق خاص من الأحلام والأمانى العذبة. تتسم قصائده بفتيتها وقوتها التأثيرية، لذلك ظلت محتفظة بروعتها وجمالها على مر السنين.

تكتسي الطبيعة عنده بكساء ذي طابع محلي. فهو لا يتوقف عند وصف أشجارها المشهورة كالصفصاف والبلوط والبتولا وإنما يتجاوزها لإعطاء تفاصيل دقيقة لكل ما يموج به عالم الطبيعة من نبات. يقوم بمسح شامل لها دون أن يغفل جزئياتها ودقائقها ذات الصبغة المحلية البيئية.

الطبيعة بتتسم وتحزن وتحلم وتنتظر، شأنها شأن الإنسان،  
فلها حياتها الخاصة المتغيرة الأحوال. الإنسان بمشاعره ومعاناته  
يتجاوب مع حياة الطبيعة ويخلع عليها من ذات نفسه ويجعلها  
تردد صدى روحه وتشبع بمشاعره وعواطفه.

يا له من ليل! كل النجوم حتى الوحيدة  
ترنوا إلى روحي، مرة أخرى، دافئة وديعة،  
وفي النسيم وراء أغنية العندليب  
يشيع القلق والحب.

إن موضوع الحب- الذي يشغل حيزاً كبيراً في شعره- لا  
يتمحور حول المعاناة الفردية متميزة السمات والملامح. فهو  
يلتقط الحالات النفسية العابرة معطياً تفاصيلها وظلالها المضطربة،  
مشيراً إلى بعض البدايات الغامضة دون أن يوضح حالة المعاناة  
وصفاتها، «الفكرة أو الشعور عبارة عن وميض خاطف» لديه  
كما يقول أحد النقاد. انه يتتبع الحركات المجهولة غير المرئية  
التي ينطوي عليها القلب الإنساني دون غيرها.

أخيراً لا بد من الإشارة إلى الإيقاع الموسيقي الواضح  
لأشعاره. لقد لفتت موسيقية أشعاره أنظار موسيقاريين كبار  
مثل تشايكوفسكي Tchaikovsky الذي قال عنه: «إنه ليس مجرد  
شاعر، فهو بالأحرى شاعر- موسيقار». أكد في نفسه رأي  
تشايكوفسكي عندما قال: «إنه... يتوق دائماً للانتقال من مجال  
الكلمات المحدود إلى مجال الموسيقى اللامتناهي». لذلك يبني  
البيت الشعري أو الجملة بناءً متميزاً خصوصياً يتجلى فيه اللحن  
الموسيقي والقافية الموقعة، ويلجأ أحياناً لتكرار البيت ليخلع  
على القصيدة نغمة موسيقية. تعتبر بعض قصائده نموذجاً للشعر

الموسيقى، نذكر منها على سبيل المثال قصيدة «عاصفة في سماء مسائية».

إن القوة الفنية التي تتميز بها أشعار فيت لم تلق الصدى الخليق بها في الأوساط الأدبية. ومرجع ذلك عدم اهتمامه بالمضامين الاجتماعية الملهبة التي استقطبت اهتمام القوى الوطنية بعد إلغاء قانون النظام العبودي. طغت شهرة نيكرا سوف عليه وعلى شعراء كبار آخرين بقوا في الظل في تلك الفترة التي علت فيها موجة الواقعية النقدية واكتسحت الميدان الأدبي وكان نيكرا سوف من أبرز أعلامها.

\*\*\*

حاول بولونسكي polonsky اتخاذ موقف وسط في هجير حلبة الصراع الدائري بين مختلف القوى الوطنية. لم يكن ذلك بالأمر اليسير في تلك الظروف الاجتماعية الساخنة، فتعرض لضغوط مختلفة ترك بعضها ندباً عميقة في نفسه. لقيت مجموعة قصائده التي أصدرها عام ١٨٥٥ استحساناً وتقديراً في الأوساط الأدبية. قيم نيكرا سوف إبداع بولونسكي وموهبته الشعرية مشيراً إلى الدفء والصفاء الذي يشيع في قصائده وتوقه إلى المثل العليا والحقيقة الخالصة. كان نيكرا سوف يروم من إبراز تمسك بولونسكي بالقيم السامية توجيه ميوله النقية نحو القضايا الاجتماعية بدل التوجه إلى الفن الخالص. ورغم تناوله لبعض المواضيع الاجتماعية ومعالجته لها فقد اختار في النهاية الإتجاه الليبرالي الذي يمثله تورغينيف- الروائي الكبير.

أصدر عام ١٨٦٩ مجموعتين من أعماله الشعرية، قوبلت بالهجوم من الأوساط اليسارية لضعف محتواها الفكري. كان

شدرين Shchedrin الروائي والناقد المعروف على رأس المهاجمين له، واعتبر افتقاره إلى الموقف الفكري الواضح «يقود نتاجاته الفنية إلى الصفر». حطم هجوم شدرين الحاد أعصابه وانبرى تورغينيف للدفاع عنه في رسالة كتبها إلى إحدى الجرائد وغالى في إطراء موهبته بحيث وضعه في منزلة شعرية أرفع من نيكراسوف، مما لم يرتح له حتى بولونسكي نفسه.

أتينا على ذكر هذه المخاصمة الأدبية لتبيان الجو الأدبي المتأجج الذي كان مرآة للتناقضات الاجتماعية التي تطحن روسيا آنذاك. لكن هذا الوضع الملتهب لم يكتب له البقاء. فقد تغير الجو في الثمانينات من القرن التاسع عشر وانتعشت مدرسة الفن للفن بينما اشتد الهجوم على الواقعية النقدية وعلى نيكراسوف الذي كان ممثلها البارز، فتألق اسم بولونسكي ولا سيما بين جيل الشباب وتوطدت صلته بفيت.

لا بد لنا في مجرى الحديث عن طبيعة شعر بولونسكي من ذكر رأي تورغينيف الذي يشير إلى خاصة أسلوبه قائلاً: «إنها مزيج من الكياسة الصافية ولغة الصور الطليقة التي ما برحت تحمل بريق الرشاقة البوشكينية وشيئاً من الانطباعات المرتبكة ورغم ذلك فهي مفيدة ومخلصة وصادقة.»

نظم في فنون الشعر المختلفة كالبالادا والساتير وغيرها، بيد أن أشعاره الغنائية تعتبر أكثرها جودة. ففيها تتكشف مغاليق النفس الإنسانية وتتجلى معاناتها بدقة وتفصيل فائقين. يتخذ الطابع السيכולوجي لأشعاره صبغة مأساوية ونزعة سوداوية تتسم بالقنوط واليأس. يحلق في عالم الفانتازيا وفي أجواء خيالية غامضة مسحورة يجد الراحة والهدوء بين جنباتها. يعبر شعره عن غربته عن العالم الواقعي الحافل بالصور المشوهة الممسوخة

القبیحة والذي یقف حائلاً بینة وبين تحقیق طموحاته وآماله.  
تزول التخوم عنده بین عالم الواقع والخیال أحياناً فتمتزج أحلام  
الیقظة والمثل السامية بجزئیات الحياة الیومیة.

هذه هی الملامح العامة لشعره، علماً بأنه كتب فی مستهل  
حیاته الأدبیه قصائد یصور فیها الحياة المحلية للقفقاسیین، إن  
بقاءه فی جورجیا وإطلاعه علی حياة أهلها وثقافتها وأعرافها  
أمدّه بزاد لا ینفد لأشعاره. ونظم مجموعة من القصائد عن طبیعة  
القفقاس الجمیلة وعادات شعبها وشجاعته. وأصدرها فی دیوان  
«سازاندار» الذي نَمَّ عن موهبة کبیرة.

كان لبولونسکی إسهامه البین فی تطویر الشعر الروسي. لقد  
ترك بصمات واضحة فی جیل من الشعراء أنذكر علی سبیل  
المثال بلوک Blok الذي أثر فیهِ عند مطلع حیاته الشعریة، تتسم  
أشعاره بإیقاع موسیقی جلی مما دفع بعض الموسیقاریین، مثل  
راخمانینوف وتشایکوفسکی وغيرهم، إلی وضع موسیقی لعدد من  
قصائده وأغانیه.

كتب ألكسی تولستوي Aleksey Tolstoy فی فنون الشعر  
والنثر كالبالادا والشعر الغنائي والساتیر والدراما. لكنه اشتهر  
بأشعاره الغنائية وكتب القسم الأعظم منها فی النصف الثاني  
من الخمسینات عندما تفتحت إمكاناته الإبداعیة، قال ذات مرة:  
«إن أمواج الشعر تهدر فی داخلي وتطالب بالانطلاق». سكب  
مالیموج فی نفسه من أحاسیس فی أشعار ذات روح عاطفیة متدفقة  
وإیقاع موسیقی. كان یرى أن الموسیقی أكثر قدرة علی التعبير عن  
خلجات الفؤاد وشکواه الهامسة من الكلمات. یقول فی قصیدة  
«الیوشا بوبوفیتش» عن الرابطة التي تربط الشعر بالموسیقی:

من يفهم الأغنية  
ومن يدرك كلماتها،  
بينما الألحان تذوّب الفؤاد  
وتدوّخ الرأس.

كان رومانتيكي النزعة يكره الواقع لقبحه وبشاعته، يريد أن ينأى عنه إلى «مملكة الأفكار الخالدة» والفنون الجميلة. ورغم ميله للفن الخالص وبعده عن الاتجاهات السياسية السائدة فثمة أشعار ساتيرية له يسخر فيها من الطغيان والاستبداد. نظم بعض القصائد التي تعتبر من عيون الشعر الروسي الساتيري مثل «حلم بوبوف» التي هاجم فيها المظالم والرقابة الشديدة والملاحقات. كان يجد بديلاً عن الواقع المُرّ في التاريخ الروسي ولا سيما في أيام دولتي كييف ونوفغورود المزدهرتين، المتنعمتين بالحرية والعدالة. إن تصويره لأزمان روسيا الغابرة لا يطابق الواقع التاريخي، فالعصر الذي ازدهرت فيه هاتان المملكتان لم يخل من الاستبداد والعنف والظلم، بينما يتسم انطباعه عنها بميسم شاعري خيالي جميل. كان يدعو إلى العودة لحياة الطبيعة لإنقاذ المجتمع من الشرور والرزايا التي تلم به. أطلق دعوته هذه في الستينات من القرن التاسع عشر عندما اشتدت التناقضات والصراعات الاجتماعية فاعتبر «الالتزام موتاً للفن»، وأن على الفن أن يظل بمنأى عن مشاكل الواقع الاجتماعي.

يتحرر الشاعر - حسب رأيه - من أغلال محيطه وينطلق خياله عندما يهبط عليه وحي الشعر. ينقل الإلهام الشاعر إلى عوالم نقية صافية يجد فيها مدى رحباً لحرية يراعه وتدفق أحاسيسه على الورق. الحب أيضاً يعمل عمله في انسياب عواطف الإنسان،

فهو ذو طابع إلهي يسمو بالمشاعر ويحيطها بهالة قدسية. ومع أن الإلهام والحب من الهبات التي ينعم بها الشاعر، لكن نغمة حزينة تتعالى غالباً من قصائده. فنبرتها العاطفية كثيبة تمثل خيبة الأمل بالواقع والقنوط منه. لذلك تلوح كلمات الشجن والأسى لذلك تلوح كلمات الشجن والأسى والكآبة في كثير من أشعاره مثل «إعلم أيها الصديق أنك تحيا حزيناً» «الكآبة المألوفة تعود لقلبي». ويشوبها أحياناً ضرب من الغضب والأسف الممتزج بالمشاعر الأخرى.

يظهر إبداعه في مقدرته على وصف الطبيعة وصفاً دقيقاً بيّناً. فهو يرسم ظلالها المتعددة والأصوات المتباينة التي تنطوي عليها والروائح المختلفة التي تعبق بها. تستهويه طبيعة الربيع خصوصاً بألوانها الزاهية ونضارتها حيث تتجلى فيها صورة الحبيبة وذات الشاعر الملتاعة بالهوى والوجد. هكذا تنساب الطبيعة والحبيبة وذات الشاعر في تيار واحد تتجلى فيه أمام الشاعر ملاح الحبيبة الفردية.

مما يعاب عليه إهماله للقافية واستخدامه إيقاعاً يتسم به الشعر الشعبي. لم يحدث ذلك سهواً عنده وإنما كان يعتبره وسيلة لبلوغ وطره. يرى أن العقل والرشاقة في القافية لا تدلان دائماً على حاسة شاعرية مرهفة. فالشاعر يحتاج تارة إلى القافية المتقنة وتارة إلى القافية القلقة المتهاونة. أعطى، كمثال على ذلك، بعض قصائد غوته Goethe واعتبرها ترتبط ارتباطاً عضوياً ببناء القصيدة وفكرتها. هذا ما فعله تولستوي أيضاً، فهو لا يلجأ إلى صقل القافية أحياناً ويستخدم الكلمات العادية والجمل المألوفة عندما يحتاج إليها للتعبير عن مشاعر بسيطة مباشرة. لا يصدر إهماله للقافية اعتباطاً وإنما عن إدراك وتعمد، فبمستطاعه السيطرة على

القافية وتجويدها وتطويعها، لكنه لا يفعل ذلك أحياناً لأن موضوع القصيدة يحتاج إلى القافية القلقة.

\*\*\*

نيكراسوف Nekrasov أول شاعر روسي وضع قضية الالتزام في الفن بشكل صريح ومتبلور. فالشاعر يجب أن يكون مواطناً قبل كل شيء. إن نقطة الانطلاق هذه تشكل المدخل إلى فهم طبيعة شعره ومضامينه وأسلوبه. ومع ذلك فإن إرهاباته الشعرية كانت ذات طبيعة رومانتيكية لكنها سرعان ما أخذت بالتحول والاتجاه نحو المواضيع الاجتماعية التي أملت بها طبيعة الحياة القائمة. يعتبره البعض ممثل «المدرسة الطبيعية»- التي أنشأها غوغول وكان لها أتباع وأنصار عديدون في ميدان القصة والرواية- في المجال الشعري. فقد شرع بوصف حياة فقراء المدن ورقيق الريف وأبدى تعاطفه معهم بينما وجه نقداً عنيفاً، لا يخلو أحياناً من روح الفكاهة والسخرية، إلى مستعبيهم.

اهتم بالتراث الشعبي واستقى من قاموسه الشعري ما يتلاءم مع مواضيعه. لقد أفاد منه في قصائده، فاستخدم الحكايات الشعبية والعبارات البسيطة ذات الطاقة التعبيرية والكلمات المصغرة وطرق بناء القصيدة، مما وسم شعره بميسم المحاكاة للشعر الشعبي وتقليده. وجد أنه لم يستطع الغوص إلى أعماق الشعر الشعبي وتفهم ماهيته وجوهره وبقي واقفاً عند سطحه الخارجي مما حدا به إلى السعي لإدراك طبيعته وتطويره. ورغم هذه الهنات التي قد لا يخلو منها نتاج شاعر أو أديب في مستهل حياته الأدبية، لقي شعر نيكراسوف الإطراء والإعجاب من نقاد كبار مثل بيلينسكي الذي امتدح اهتمامه بالقضايا الملحة ووضوح الفكرة ونصاعتها في قصائده. ولو ألقينا نظرة على قصيدة من

قصائد هذه الفترة لمسنا مصداق رأي بيلينسكي فيه. إن قصيدة «ترويكا» -مثلاً- تناول فناً من النساء ما تكاد تفتتح لربيع الحياة حتى تواجه مصيرها المفجع في بيت الزوجية. فتعاني من قسوة الزوج وأمه وتنوء تحت عبء العمل المضني ويذوي شبابها وهي في مقتبل العمر وتنهار قواها البدنية. تنسحب هذه الصورة الفردية على حياة الفلاحات التي تتخذ لونها تراجيدياً مفجعاً يصاحبهن إلى اللحد.

تصطبغ حياة فقراء المدن بصبغة مأساوية حيث يعيشون في عوز وادقاع يتجاوزان الحدود المعقولة. لو تأملنا قصيدة «حينما أسير ليلاً في الشوارع المعتمة» لمسنا صورة صارخة للبؤس والتعاسة. إذ تضطر المرأة التي مات طفلها أن ترتدي ملابس جميلة وتخرج للشارع لبيع جسدها في سبيل شراء تابوت لصغيرها ووجبة طعام لأبيها. يكشف عن المعاناة النفسية العميقة للإنسان المسحوق الذي تطحنه المدينة الحديثة بين فكي رحاها.

إلى جانب صور البؤس القاتمة تظهر صور أخرى مغايرة تمثل الأسياد والملاكين. وهم متبلدو الأحاسيس ومنغمسون بالملذات، تتجسم فيهم روح القسوة والطغيان. ففي قصيدة «الوطن» يصور تصويراً ساخراً حياة مالك العبيد المتسمة بالقسوة والفجور والمظاهر الزاهية والاهتمام المفرط بالمآكل والولائم.

واصل نيكرا سوف نهجه الشعري هذا في الستينات من القرن التاسع عشر معمقاً إياه بعدما أصبح ممسكاً بناصية اللغة الشعرية و متمكناً من طرق تناول الموضوع. ففي بوئيم «البائع المتجول» تظهر مقدرته على نقل الحياة الواقعية بصدق وأمانة، ويرسم لوحات جميلة وكثيرة لحياة الفلاح. ينتقي الشاعر موضوعاً يساعده على الوصول إلى غرضه وهو قصة الحب التي تجمع بين قلبي

فانكا البائع المتجول وكاترين الفلاحة. ولا تنحو حكاية الحب نحواً رومانتيكياً وإنما تكون الحياة الريفية المألوفة خيوطها ونسيجها.

يتعرض في بوثيما «الزمهرير، الأنف الأحمر» لشخصيات ريفية أيضاً. تمثل الفلاحة داريا نموذجاً للنشاط والخلق العالي والثبات في الملمات. وهي مثلها كمثل الفلاحات الأخريات ترتطم بجدار العبودية الصلد السميك كما ارتطم به أسلافها وكما سينتصب أمام أخلافها:

حمل لها الدهر ثلاثة أقدار ثقيلة،

القدر الأول: اقترانها بقن

والثاني، أصبحت أمّاً لطفل قن

والثالث، أن تستكين كعبدة حتى اللحد،

تعتبر بوثيما «لمن يطيب العيش في روسيا» التي صدرت في أواخر الستينات قمة أعماله الشعرية. تقدم لنا شريطاً متحركاً لحياة فئات اجتماعية متباينة كالملاكين والقسس والتجار والباعة والفلاحين يستعرضها الشاعر ليعرف من ينعم بالعيش الرغيد في روسيا. ورغم مظاهر الزيف والبؤس والتخلف والفظاظة فإن نبرة الشاعر تظل متفائلة متطلعة إلى نهوض روسيا من كبوتها ويخاطبها قائلاً:

أنت فقيرة،

أنت ثرية،

أنت قوية،

أنت عاجزة،

أيتها الأم - روسيا!

لا بد من الإشارة إلى الاهتمام الذي يوليه لكشف العالم الوجداني والمعاناة الداخلية لأبطاله، فهو لا يقف عند مداخل الأحداث الخارجية وإنما يعنى برود الفعل التي توجد في نفس الإنسان، مما يضفي الصدق والأمانة على شعره ويبعده عن الصور التخطيطية المجردة.

حوّل نيكرا سوف الشعر إلى سلاح ماضٍ في معركة تحرير الشعب وأصبح كشف الزيف وتعرية الحقائق ونقد الطغيان غايته الأولى. اختار غالبية أبطاله من بسطاء الناس والفلاحين مصوراً حياتهم ومعاناتهم بعيداً عن التناول الرومانتيكي في الشعر الرعوي والتغني بالجمال والدعة والهدوء التي ينعم بها الريف. إن آلهة الشعر ذاتها هبطت من عليائها وأصبحت «ربة الانتقام والحزن» وتقمصت روح الشعب وهمومه. أما قاموسه اللغوي فهو واسع وغني. استخدم مفردات صحفية وعبارات خطابية وعاطفية، أفاد من لغة الحكايات والأغاني في التعبير عن مواضيعه. تتخذ العديد من قصائده طابعاً قصصياً - وهو من سمات النثر عادة - تمكنه من الكشف عن التناقضات الاجتماعية وتقصّيها وكشف مشاعر أبطاله ومعاناتهم. يختلط عنده الساتير بالرثاء، وأحاسيس الحب باللهجة الخطابية، والحدث الخارجي بالعالم الباطني للإنسان، هكذا تأخذ القصيدة أو البوئيماً ألواناً فنية متعددة.

خلاصة القول: إن أشعاره تفيض بروح المرارة والألم والتعاطف إزاء المسحوقين وكشف مغاليق عالمهم الداخلي مظهراً الجروح النفسية والعذابات التي يقاسون منها. ترك نيكرا سوف بصمات عميقة على مسيرة الشعر الملتزم بالقضايا الاجتماعية وكان له تأثيره البالغ في عدد من الشعراء والكتاب:

\*\*\*

شهد العقدان الأخيران من القرن التاسع عشر ظهور تباشير الاتجاه الرمزي Symbolism الذي قوي -خصوصاً- في العقد الأول من القرن العشرين. تأثر شعراؤه - مثل بروسوف Bryusob رائد الاتجاه الرمزي ومنظره - بعض الشيء بالحركة الشعرية الجديدة في فرنسا. وجدت الحركة الرمزية رافداً لها في أشعار فيت وتوتشيف أيضاً. اعتبرت قصيدة توتشيف Silentium نموذجاً يقتدى به في محاولة النفوذ إلى وراء عالم الأحاسيس. أكدت الرمزية على أهمية رؤية الشاعر الذاتية للواقع والدعوة إلى عالم المثل، مأوى القيم العليا والأمانى الفاضلة. يغدو الرمز وسيلة من وسائل كشف الواقع والعالم اللامرئي أمام الإنسان.

تباينت آراء الرمزيين وتنوعت في فهم أبعاد الرمزية ودلالاتها وأساليبها، فمنهم من اعتبرها تمجيداً للفن الخالص والابتعاد عن مملكة الواقع مثل بروسوف، ومنهم من وجد فيها ضرباً من الدين الذي يصبح الشاعر قديسه وواعظه مثل بلوك وبيلي Bely.

كان بلوك Blok في حقبة معينة من حياته شاعراً رمزياً له منزلة مرموقة بين الرمزيين المعروفين بروسوف وبيلي وغيبوس Gippius وغيرهم. بدأ نظم الشعر في أواخر التسعينات من القرن التاسع عشر، وقد عاش في فترة تاريخية عاصفة تقع على تخوم قرنين زاخرين بالأحداث والتصدعات الاجتماعية. شهد القرن العشرين أول حرب عالمية والعديد من الثورات التي زعزعت أركان حياة الفرد وغيّرت منحاهما. تعتبر ثورتا ١٩٠٥ و ١٩١٧ من الانفجارات البركانية التي هزت أسس الحياة الروسية وأدت إلى تهاويها وانهارها. ولا غرابة أن يرن دوي هذه الأحداث في أشعاره وتكون لها انعكاساتها في مسار حياته وأن يعاني من التناقضات العميقة والهموم الثقيلة.

تأثر في مستهل مسيرته الشعرية بفيت وبولونسكي  
وسولوفيف Soloviev بصورة خاصة، الذي تحيط أجواء غامضة  
مبهمة بقصائده. اتسع بعدئذ ميدان مواضيعه وتكنيحه الفني،  
فاستخدم الصورة ذات المعاني المتنوعة لنقل العالمين المرثي  
وغير المرثي. لجأ إلى الرمز ليشحنه بمعاناة الإنسان ولواعجه،  
نلاحظ ذلك خصوصاً منذ ١٩٠٣ عندما بدأ يميل للإتجاه  
الرمزي. أصدر ديوانه الأول عام ١٩٠٤ وسماه «قصائد عن  
السيدة الجميلة».

طغت عليه الحماسة عندما اندلعت ثورة ١٩٠٥ وأدى فشلها  
إلى انحسار آماله في دخيلته شعوراً بالقنوط واليأس. ومع  
ذلك فقد لفتت انتباهه إلى قضايا الأمة والوطن والشعب.  
فها هو ينظم عام ١٩٠٨ «في حقل كوليكوفو» التي استقى  
أحداثها من تاريخ روسيا الغابر، عندما استطاعت أن تنهض  
وتجمع قواها لرد الغزاة على أعقابهم وتحرر الأرض الروسية.  
تحمل القصيدة في الوقت ذاته معانٍ تنبؤية عن الجو المشحون  
بالعاصفة المقبلة التي ستشهدها روسيا.

عندما انفجرت ثورة أكتوبر نظم البوئيم الشهورة «الاثنا  
عشر» التي حيا فيها الثورة انطلاقاً من التصور الرومانتيكي  
الذي يحمله عنها، باعتبارها حريقاً عالمياً سيلتهم العالم البائد،  
وتتقدم الحرس الأحمر صورة المسيح الذي يقود فقراء العالم،  
لأن حياة المسيح كانت دفاعاً عن المظلومين والبائسين. تنطوي  
القصيدة أيضاً على شخصيات متعددة أخرى.

لكن أحلامه وأمانيه الروحية التي وضعها على الثورة ظلت  
مجرد أمانٍ لم تلق سبيلها إلى الواقع الاجتماعي مما دمر  
إيمانه وروحه وحوله إلى حطام إنسان. فقد نظم قصيدة أخرى

بعد «الاثنا عشر» ثم ترك الشعر نهائياً وعاش البقية الباقية من  
أعوامه في تراجيديا عميقة لم يشهد لها مثيلاً من قبل.

ترجع أشعاره أصداء أنات القلب الإنساني وعذابات الروح  
التي عصرتها نوائب الدهر وصروفه. تفيض نفس الشاعر  
البلورية بالنقاء والصفاء والتغني بالجمال والنشوة التي تنبعث في  
لحظات رائعة كما يحدث عند الالتقاء بغجرية مثل «كارمين».  
إن زيف العالم وأضاليله وقبحه تضغط على أوتار قلب الشاعر  
المرهف مما يجعله يشعر بالتعاسة والشقاء والاضطراب. ومع  
ذلك فإن أشعاره تحمل لمسات روحه الرومانتيكية ويتدفق منها  
الحب العارم وشجي النفس البشرية وآلامها وتوقها إلى المثل  
الفاضلة. وتتوافر فيها الصور الرمزية التي تُعبّر بوضوح وجلاء  
عن أفكار الشاعر وهو جسده وأحاسيسه.

عاصر بلوك الشاعر يسنين Esenin الذي يختلف بمنحاه  
الشعري عن بقية الشعراء، فهو ابن القرية ومغنيها وشاعرها.  
نظم القصائد الرقيقة بحقوقها الحبيبة المترامية وحياتها الوداعة  
وتفكيرها البسيط، ونقل أجواءها الأسطورية وحول كل ما هو  
مألوف وعادي فيها إلى ألحان عاطفية تفيض بالحب والحبور  
والأسى وتحمل نكهة الريف وعبيره ودعته وآهاته ونقاوته.

كان ديوانه الأول الذي صدر عام ١٩١٦ يحمل بين ثناياه  
تلك المواضيع الأسطورية والخرافية التي تشيع في مناخ  
القرية، وينطوي على كثير من تلك الحكايات عن المسيح  
ومريم العذراء والقديسين التي سمع بعضها من جده والبعض  
الأخر من الكنيسة التي كان يتردد عليها.

إضافة إلى ذلك يقدم الشاعر صوراً عن طبيعة القرية الفاتنة  
وحالتها البائسة المزرية وولعه بها وأمه عليها.

لفتت قصائده المبكرة أنظار الشعراء إليه، فقد أعجب بلوك  
بذلك الصفاء والصدق والنقاوة التي تشف عنها أشعاره، شاركه  
الرأي شعراء ونقاد آخرون. واستطاع يسنين أن يحتل منزلة مرموقة  
رغم حداثة تجربته الشعرية.

ظلت طبيعة الروح القروية ومناظر الريف المنبع الذي يرفد  
منه شعره رغم تعدد مواضيعه وتنوعها وشمولها على قضايا  
الوطن والثورة والشعب. تميز بمقدرة خلاقة على تصوير المناظر  
الريفية والطبيعية المحلية وتلمس جمال الريف في أماكن خفية  
لا تلتقطها العين الباصرة. أصبحت الطبيعة تحت ريشته ذات عبير  
محلي فواح لم يسبقه في تصويرها شاعر آخر. يروي سس.  
كوشيتشكين حادثة طريفة بهذا الخصوص في كتابه المسمى  
«سرغي يسنين. تأملات في الشاعر»، فهو يقول: «لم يعرف  
الرسام ي. بروودسكي قبل اللقاء بيسنين مكان ولادة الشاعر.  
وعندما أصغى لأشعاره وهو يتلوها قال الرسام، لعل الشاعر قد  
ولد في محافظة ريزان. اندهش يسنين، وأوضح الفنان قائلاً: إن  
المناظر التي غنيتها في قصائدك، بعثت طبيعة محافظة ريزان -  
حيث رسمت في شبابي كثيراً من الصور التحضيرية - حية في  
ذاكرتي». تشكل حقول ريزان الرحبة وأشجارها وعواصفها  
الثلجية وغيومها وشمسها الساطعة نسيج أشعاره ولحمتها،  
وتعلوها أغاني الريفيين وحكاياتهم وهمومهم، وهي تنبض  
بأحاديث القرية الهامسة ووشوشتها، ويسمع فيها دقات نبضها  
الخافت بالحياة وارتعاشاتها.

يتخذ عالم الحيوان عنده لونا إنسانياً جديداً. كثر هم الشعراء

الذين سعوا لكشف أحاسيس الحيوان المتوارية عن مدى رؤيتنا وإدراكنا، لكن يسنين يشف عن حب عارم وتعاطف وضّاح مع مشاعر الحيوان وحزنه. إن قصيدة «أغنية عن الكلبة» تصور مشاعر الكلبة الحزينة - التي أخذ المالك أبناءها - في ركضها فوق الثلوج وهي ترتعش محاولة العثور على أحبائها.

وعندما آبت متعبة  
لعت العرق المتصبب على جانبيها،  
وبدا لها البدر المطل على الكوخ  
جرواً من جرائها.

إن افتتانه بطبيعة بلاده وتغنيه بها يمثل امتداداً لحبه لأرض الوطن وما يجري عليه من أحداث. ولا غرو أن تمس شظايا الانفجارات الثورية التي شهدتها روسيا حنايا روحه وتبعث فيها عواطف متباينة تتراوح بين الحماسة والإندفاع تارة والخيبة والإنكماش تارة أخرى. إنه يروم التحول والإنبعاث مجدداً لوطنه ويتوق لحياة جديدة خالية من البؤس والشقاء. يرى أيضاً أن حريق الثورة حري بأن يلتهم دعائم التعاسة والتخلف ويحطمها ويظهر أرض الوطن من كل ما علق بها من أدران. وها هو يغني الثورة في قصائد عديدة ويقول في «الطبال السماوي»:

النجوم تنساب أوراقاً  
على النهر حقولنا.  
لتعش الثورة  
في الأرض والسماوات!

لكن مجرى الثورة يسير في اتجاه مغاير لتصوراته وأحلامه، مما يبعث الألم والأسى في نفسه. يقول في إحدى الرسائل

التي كتبها في تلك الفترة «لكن تطبيق الاشتراكية يجري مخالفاً  
تماماً لما فكرت به». ويخامرہ القلق والاضطراب حتى في فترة  
تأييده للثورة من جراء المسيرة مجهولة الأفق التي تسير فيها  
روسيا. يعبر عن معاناته هذه في قصيدة «رسالة إلى امرأة»  
قائلاً:

لكنك لا تعرفين،  
أني أتعذب  
في الدخان الكثيف  
في فوضى عاصفة الحياة  
لأنني لا أدرك  
إلى أين تجرفنا الأقدار.

برح الصراع الروحي والتشتت الفكري حياته. ظل يتنازعها  
حبه للقرية القديمة الوادعة الساجية وموقفه المتردد من التصنيع  
الذي أخذ يدخلها. إنه يريد التطور والتقدم لها، لكنه ينفر من  
تغيير معالمها الطبيعية الحبيبة إليه ودخول عناصر الصناعة  
الغريبة على مناخه، واعتقاده أن القرية الحالية ستتوارى من  
الوجود. تعبر كثير من قصائده عن قلقه مما يطرأ على الأصقاع  
العريضة عليه من تحولات. ففي قصيدة «المصلون للموتى» ينظر  
إلى القطار الذي أخذ مكان الجواد نظرة تفيض مرارة معذاباً  
ويصرخ قائلاً:

ليأخذك الشيطان، أيها الضيف البغيض  
أغنيتنا لا تأنس بك.

إن موقفه من تصنيع القرية لا يتسم بميسم الثبات والرسوخ.  
فيتتابه أحياناً الفرح والسرور بدل الألم والحسرة من تبدل

حياة القرية الرتيبة المتخلفة. وها هو ذا في «رسالة إلى جدي»  
يضحك من جده الذي يمقت القطار ويرفض الركوب في  
عرباته ويخاطبه قائلاً:

اجلس بلا دموع،

وثق

بالجواد الحديدي.

خلاصة القول تظل القرية مفضلة على المدينة ولا يرضى أن  
تسير خلف الأخيرة، فالاشتراكية - حسب تصوره - ضرب من  
الفردوس الفلاحي الذي تتحقق فيه آمال الفلاحين وأمانهم  
في السعادة والرخاء والراحة. لكنه يكتشف خطل تصوراته  
وتصبح آماله أضغاث أحلام ويغدو الواقع كابوساً رهيباً يعيشه  
ليل نهار. لذلك تنتهي حياته تلك النهاية التراجيدية - الانتحار -  
وتنطوي سنوات عمره وهو في أوج إبداعه الشعري. ومع ذلك  
أصبح اسمه مع بلوك وماياكوفسكي من ألمع الشعراء الروس  
في النصف الأول من القرن العشرين.

هذه لمحة سريعة عن نشوء الشعر الروسي وتطور اتجاهاته  
وتعددتها، نأمل أن تساعد القارئ في تعريفه - ولو تعريفاً  
موجزاً - على سمات الحركة الشعرية ومسيرتها التاريخية وعلى  
أعلام شعرائها وأولئك الذين أسهموا في رفدها الفني ولو لم  
ينالوا شهرة عريضة.

حياة شرارة

## أغنية حملة إيغور

### أغنية فوج إيغور

#### إيغور بن سفياتوسلاف اليغ

نستهل الحديث أيها الأخوة،  
بحكاية المعارك القديمة،  
بأغنية حملة إيغور الشجية

إيغور بن سفياتوسلاف!  
لنبداً أغنيتنا من أحداث الزمان السالف  
وليس من الحكاية التي وضعها بويان!  
حينما يحلو لبويان الساحر نظم أغنية لأحد،  
يطير بأفكاره بين الغابات،

يجوب الأرض كذئب رمادي، يحلق  
كعقاب أزرق - رمادي تحت السحاب.  
فهو يستعيد - كما يقول - حروب الأيام الغابرة.  
ثم يطلق عشرة صقور على سرب الإوز:  
وعلى أول إوزة تُصطاد  
أن تغني أغنية إلى ياروسلاف الكبير  
ومستيسلاف الصنديد،

الذي ذبح ريديا أمام فوج الشركس،  
ورومانوف الوسيم ابن سفياتوسلاف.  
لكن بويان، بويان، يا اخوتي لم يطلق  
عشرة صقور على سرب من الإوز حسب،  
وإنما مس بأنامله السحرية تلك الأوتار الحية  
التي دوت بأغاني التمجيد للأمرء!

كان إيغور عند الدونيتس ورأى  
كأن الدياجير لا غير تغمر فوجه.  
رنا إلى الشمس المضيئة  
ورأى: الشمس والهلال بطرفيه  
وكان إبرة متوقدة مغروسة في الطرفين،  
بينما لمعت النجوم في السماء،  
واخضوضرت عيون الناس.  
قال الأصحاب: «لن ننتظر خيراً»  
وحنى الكبار هاماتهم.

قال الأمير إيغور: «أيها الأخوة والأصحاب!  
سنموت أو نؤخذ أسرى  
الموت افضل من الأسر!  
لكن من يُبئنا لمن الهلاك  
من يدري، ألنا أم للكفار!  
لنمتط خيولنا السريعة  
كي ننظر إلى الدون الأزرق!»  
لم يصغ لتنبؤ الشمس  
الملتهبة الرانية إلى الدون العظيم!

وصاح: «أريد أن أشق طريقاً  
في تخوم سهل البولوفتسين،  
بصحبكم أيها الروس!  
أريد التضحية بحياتي  
أو الشرب من الدون بخوذتي»  
أواه، يابويان، يا هزاز الأزمان الغابرة!  
يا من غنيت هذه الغزوات،  
مرفوفاً بفكرك فحسب،  
محلقة كعقاب تحت الغمام الأزرق - الرمادي،  
مع الأمجاد الماضية والآتية،  
مندفعاً في درب الترويان عبر النجاد والوهاد،  
تغني أمجاد إيغور!

لم تجرف العاصفة الصقور،  
إن سرباً من الغربان يطير  
عبر الحقول والمروج نحو الدون العظيم...  
أواه، ليتك غنيت لحفيد خيليسوف!..

الخيل تصهل خلف سولا،  
وتدوي الأمجاد في كيف،  
وتصوت الأبواق في نوفغورود  
والبيارق ترتفع في بوتفيل...  
إيغور ينتظر فسيفلود، أخاه العزيز  
جاء فسيفلود وقال:

«يا أخي الوحيد، أنت ضوئي الساطع الوحيد!

إننا شقيقان وابنان لسفياتو سلاف!  
جهّز جيادك السريعة، أيها الأخ،  
أما أنا فعلى أهبة الاستعداد،  
وقد حضرت جيادي في كيورسك!  
إن رجالي الكورسكيين محاربون مشهورون!  
لقد ترعرعوا على أصوات البوق،  
ونشؤوا تحت حديد الخوذ  
وتغذوا عند أهداف السهام!  
الطريق والوديان مألوفة لديهم  
أقواسهم مشدودة وسيوفهم مشحودة،  
إنهم يشون كالذئاب الرمادية في السهول،  
ناشدين الشرف لأنفسهم والمجد لأمرهم!...  
اعتلى الأمير إيغور ركابه الذهبي  
وتحرك الأصحاب في أثره  
حجبت الشمس طريقهم بالظلام،  
هبط الليل يثن ويولول  
موقظاً الطيور،  
وتعالت أصوات الوحوش في السهل،  
وثب ديف الأسود إلى أعلى الشجرة  
وشرع بالصراخ،  
موصلاً الأنباء إلى الأرض المجهولة،  
لسولا وال فولغا وشاطئ البحر،  
وكورسون وبحر سوروش،  
وإليك يا وثن تموتو روكان،

هرع البولوفتسيون إلى الدروب غير المطروقة  
المؤدية إلى الدون العظيم،  
إن عرباتهم تنز في الليل  
كأصوات الإوز الطليق.  
إيغور يقود محاربيه نحو الدون.  
الطيور على أشجار البلوط  
تنتظر حظه النكد،  
الذئاب أثارت زوبعة في الوديان،  
الصقور نادت بصراخها الوحشي  
إلى وليمة العظام،  
بينما الثعالب تعوي عند الدروع القرمزية.  
أواه، أيتها الأرض الروسية،  
انت الآن وراء التل!  
أغسق الليل، وخبا سنا الغروب،  
غمر الظلام السهول بضباب رمادي أزرق،  
وصمتت أغنية العندليب،  
تعالى نحيب الغربان...  
وهجع الروس بدروعهم القرمزية في السهل،  
ناشدين الشرف لأنفسهم والمجد لأميرهم.  
منذ فجر الجمعة وجحافل البولوفتسيين  
الكفار تدوس السهول!  
وتنتشر كالسهم فوقها  
حاملين معهم الفتيات البولوفتسيات الحسنات،  
والتبر والأقمشة المطرزة والموشاة بالذهب،

طفقوا يقيمون في الممرات  
عبر المستنقعات والأراضي المغمورة بالمياه،  
بأغظيتهم ومعاطفهم وعباءاتهم  
المزينة بالفرو وبكل صنوف البهجة البولوفتسية.  
الرايات قرمزية، الأعلام بيضاء،  
وَرْدِيٌّ ذيل الجواد، فضية سهام  
الابن الشجاع لسفياتوسلاف  
أغفت أرومة اليغ الشجاعة في الوادي،  
لقد خبّوا بعيداً في سيرهم!  
لم يُفطروا على تحمل الأذى  
من الصقر والباز والغربان السود  
ومن هؤلاء البولوفتسين الكفار.  
الكَزَاكُ يعدون كذّاب رمادي،  
الكونتشاك يرشدونهم إلى الطريق  
المفضي إلى الدون العظيم.  
في غداة اليوم التالي  
تخضب الفجر بدفقة دموية اللون،  
سار غمام أسود من البحر  
وحجب الظلام الشمس الأربيع....  
وارتعش السنا الأزرق.  
سيقصف رعد مدو!  
ويهطل المطر، مطر من رماح الدون العظيم!  
هنا ستحطم النبال،  
هنا ستقرع السيوف وخوذ البولوفتسين

قرب نهر كاياالا عند الدون العظيم!  
آه أيتها الأرض الروسية!  
أنتِ الآن وراء التل!  
أواه! الريح ابنة ستريبورج،  
تنثر السهام من البحر  
على جيش إيغور الشجاع...  
الأرض تصخب والأنهار تفيض بمياه عكرة،  
السواقي تغطي السهول، الرايات تخفق...  
البولوفتسيون يتدفقون من الدون والبحر  
ويحيطون بالجيش الروسي من كل الجهات.  
لقد فرش أبناء الأبالسة  
السهول بصيحات الوغى  
وفرشه الروس البواسل بدروعهم القرمزية.  
ويّ يا فسيفلود، أيها الثور الهائج!  
أنت تقف في المعركة  
وتمطر المقاتلين بالسهام،  
وتقصف خوذهم بسيوف فولاذية،  
أيما وثبت أيها الثور المتألق بخوذتك الذهبية،  
فهناك تهوي هامات البولوفتسيين الكفار،  
ويّ يا فسيفلود، أيها الثور الهائج!  
أنت خلعت خوذ الأفارين  
بسيوفك الفولاذية،  
ويّ يا فسيفلود، أيها الثور الهائج!  
ماذا تضيره الجروح، أيها الإخوة،

وهو الذي ترك أمجاده وممتلكاته  
وعرش أبيه الذهب في مدينة تشيرينغوف  
وترك حب زوجته غليوفنا  
الحسنة وملاطفاتها!  
مضت أزمان الترويان  
وعهود الياروسلافيين،  
وجاءت حملات اليغ، اليغ بن سفياتوسلاف.  
قاد اليغ الكفاح بسيفه  
وفرش الأرض سهاماً.  
سار بركابه الذهبي في مدينة تموتوروكان،  
لقد سمعت ياروسلاف العظيمة  
مثل هذا الرنين في أيامها الخالية  
عندما كان سيفولود بن فلاديمير  
منذ الصباح يغلق بوابات تشيرينغوف.  
لقد جلب مزهواً بوريس بن فياتشيسلاف إلى مملكته،  
وخلع على حقل كائنا غطاء أخضر  
إكراماً لهذا الأمير اليافع المقدم،  
ولرفع الحيف الذي ألحقه به اليغ.  
ومن كايا لا ذاتها  
نقل جثمان أبيه سفياتوبولك  
على الخيول الهنغارية  
إلى كنيسة القديسة صوفيا في كييف.  
آنذ وفي عهد اليغ  
ظهرت الفتن وتفاقت.

وأودت بحياة أبناء داجبوج،  
وغدت أعمار الرجال قصيرة  
من جرّاء الخصومات الأميرية.  
قلما بات الفلاحون يهبّون  
لنجدة الآخرين في الأرض الروسية،  
بينما الغربان تنعب وهم يوزعون المحاصيل،  
وغربان الزاغ تتحدث بلسانها الخاص  
متأهبة للطيران نحو الوليمة.  
هكذا كان الأمر في تلك المعارك والحملات،  
لكن هذه المعمعة لم يكن لها نظير:  
منذ الفجر وحتى المساء ومن المساء إلى الفجر  
تترامى السهام الفولاذية،  
السيوف تضرب الخوذ  
والرماح الفولاذية تحطم السهل المج هول  
بين أراضي البولوفتسيين.  
فُرشت الأرض السوداء  
بالعظام وسُقيت بالدماء:  
لقد حان وقت حصاد الآلام فوق الأرض الروسية  
ما هذا اللجب والرنين الذي أسمع  
بعيداً مبكراً قبل الفجر؟  
إنه إيغور يندفع بجنده:  
لقد أشفق على أخيه سيفولود.  
قاتلوا لليوم الأول والثاني،  
وفي ظهيرة اليوم الثالث

سقطت جيوش إيغور.  
هنا افترق الشقيقان  
عند شاطئ كايالا المتدفق.  
هنا لم يوجد خمر دموي كافٍ،  
هنا أنهى الروس الصناديد الوليمة،  
لقد زودوا ضيوف العرس بالخمير  
ورقدوا في سبيل الأرض الروسية.  
انحنى العشب اشفاقاً عليهم،  
ومالت الأشجار إلى الأرض حزناً من أجلهم.  
حلّت الآن، أيها الأخوة، حقبة كئيبة،  
ابتلع الآن السهل الموحش القوات الروسية.  
وازدادت خسائر قوات الحفيد داجبوج،  
فرحل في زي فتاة إلى أرض الترويان،  
وخفقت العذراء بجناحيها الإوزيتين  
على البحر الأزرق والدون،  
وأدبرت أيام الرخاء عندما خفقت بجناحيها.  
توقفت الحرب ضد الكفار  
وقال الأخ لأخيه:  
«هذه لي، وتلك لي أيضاً».  
طفق الأمراء يتحدثون عن  
الأشياء الزهيدة «كأشياء عظيمة».  
تنازعوا فيما بينهم  
وغزا الكفار المظفرون  
الأرض الروسية من جميع الجهات.

طار العقاب بعيداً، ضارباً الطيور كافة،  
هيا إلى البحر!

لن ينهض جيش إيغور المقدام مرة ثانية!  
أطلقت كارنا نشيجها إبان يقظتها  
واجتاحت جيلاً<sup>(٩)</sup> الأرض الروسية  
ناثرة النيران من قرونها اللاهبة.

ناحت نساء روسيا قائلات:

«لن نتخيل أبداً أعزاءنا في أذهاننا،

لن نتصورهم في ألباننا،

لن نرمقهم بعيوننا،

لن نلمس الذهب والفضة».

تأوهت، أيها الأخوة، مدينة كييف متألمة

وحزنت تشيرينغوف.

أصابت الرزايا الأرض الروسية،

وغمرتها أحزان حرّى.

الأمراء يتنازعون بعضهم ضد الآخر،

بينما الكفار يغزون مظفرين الأرض الروسية

ويأخذون فرو السنجاب جزية من كل بيت.

أشعل إيغور وفسيفلود، الابنان الشجاعان

لسفياتوسلاف الخلافات،

بينما سعى أبوهم سفياتوسلاف الجبار

لإخمادها في كييف.

---

٩. معناها النواح

زرع الرعب بين أعدائه  
وغزا بجيوشه الجرارة ورماحه الفولاذية  
أرض البولوفتسيين،  
وداس تلال الغربال  
عكّر الأنهار والبحيرات وجفف السيول،  
شتت، كريح عاتية، الكوبيك الكفار  
وجيوش البولوفتسيين المدججة بالأسلحة الحديدية،  
سقط الكوبيك في مدينة كييف  
وفي القصر العظيم لسفياتوسلاف.  
الآن يغني الجرمانيون والفينيسيون  
واليونانيون والمورافيون  
أمجاد سفياتوسلاف ويعتفون الأمير إيغور  
الذي أغرق ثروته في قعر كايالا،  
نهر البولوفتسيين، وبعثر الذهب الروسي.  
الآن أخذ الأمير إيغور سرج قن  
بدل سرجه الذهبي  
وسقطت اسوار المدن وذهبت الأفراح.  
رأى سفياتوسلاف حلماً رهيباً في تلال كييف.  
«قال: في هذا الليل، بل ومنذ المساء،  
ظلوا يخلعون عليّ أكفاناً سوداء  
على فراش من خشب الأرز.  
سكبوا لي نبيذاً أزرق ممزوجاً بالأحزان  
ومن حقائق القبائل الكافرة  
نثروا اللآلئ الكبيرة على صدري ولا طفوني.»

الآن باتت الركائز الأفقية  
بلا سقف في قصري الذهبي.  
منذ المساء وطوال الليل تنعب غربان سود  
وعند مدخل بليسينسك مطرقة خشبية  
محمولة نحو البحر الأزرق».

قال البويار للأمير:  
«أوأه أيها الأمير، لقد أسرتِ الشجونُ فكرَكِ.  
طار عقابان من عرشه الذهبي  
لتقصي مدينة تموتوروكان،  
أو الشرب من مياه الدون بخوذتيهما.  
قُصَّتْ أجنحة العقابين بسيوف الكفار  
وقُيدوا بأغلال من حديد.  
كان اليوم الثالث داجياً،  
غابت فيه أشعة شمسين،  
وخبأ سنا عمودين أرجوانيين وقمرين.  
حجب الدجى اليغ وسفياتوسلاف،  
وغرقا في البحر،  
طغت عربدة هائلة بين الهانين.  
وطغى الظلام على ضياء نهر كايالا.  
انتشر البولوفتسيون على الأرض الروسية  
كفصيلة نمور.

الآن بات المجد عاراً  
وهوى العنف بالحرية،  
الآن ألقى ديف بنفسه على الأرض.

لقد رأى العذارى القوطيات الحسنات  
يغنين عند شواطئ البحر الأزرق  
يصلصلن بالذهب الروسي  
وينشدن عهد بوسوف  
ويمجدن انتقام شاروكان.  
أما نحن الأصحاب فمتعطشون للأفراح!».

عندئذ نطق سفياتوسلاف  
بعبارة ذهبية تخنقها العبرات:  
«أواه، يا أبنائي، إيغور وفسيفولود!  
لقد غزوتم مبكراً أرض البولوفتسين بسيوفكم،  
ناشدين المجد لأنفسكم.  
قارعتم أرض الأعداء بسيوفكم  
ولم يجلب الدم المراق لكما الشرف.  
إن قلوبكم الشجاعة مقدودة  
من الفولاذ الصلب ومسقاة بالبسالة.  
ماذا فعلتما بشعري الفضي الرمادي؟  
لن أرى أبداً جبوت أخي يا روسلاف،  
القدير الثري الغني بالمقاتلين،  
محاطاً بنبلأ تشيرنيغوف وأشرافها،  
وبالتترانيين والتوبتشاكين  
والريفغين والأبيرين.  
إنهم مسلحون - حتى عندما يكونون بلا دروع -  
بالسكاكين المخبأة بجزمهم،  
لقد قهروا الجند بصرخاتهم الحربية  
المرجعة صدى أمجاد الأسلاف.

لكنكم قلتم:

لنشد نحن عزيمتنا ولنتزع الأمجاد المقبلة

ونتقاسم الأمجاد الماضية!

أليست أعجوبة، يا إخوتي

أن يعود الشيخ شاباً مرة ثانية،

إذا حام العقاب حول العش وحلقت الطيور عالياً،

فلن تسمح أن يلحق الأذى أعشاشها.

لكن مكن الشر هنا:

الأمراء ليسوا عوناً لي

والآن حلت حقبة عصيبة،

فالصراخ يتعالى في ريموف

تحت سيوف البولوفتسين،

وفلاديمير مطروح جريحاً،

واحسرتاه على ابن غلييوف!»

أيها الأمير المعظم فسيفولود!

ألم يخطر ببالك أن تطير من بعيد

إليّ هنا، كي تحمي عرش أبيك الذهبي؟

أنت قادر على تجفيف نهر الفولغا بمجازيفك

والشرب من مياه الدون بخوذتك.

آه كم أتمنى أن تكون هنا فقط،

فالقن يكلفك قطعة نقود زهيدة والعبدة فلساً.

أنت تستطيع قذف الأرض اليابسة

بقذائف من النار المتأججة

بمساعدة أبناء غلييوف الصناديد.

وأنتما يا روريك ودافيد!  
ألا يستحم محاربوكما،  
بخوذهم المطلية ذهباً في الدماء؟  
ألا يستطيع أصحابكما الشجعان  
أن يجأروا كالثيران الطعينة  
بسيوف فولاذية في السهل المجهول؟  
ثم تمتطيان أيها السيدان ركابكما الذهبي،  
من أجل رد حيف أزمانكم  
من أجل الأرض الروسية،  
من أجل جراح إيغور  
الابن الصنديد لسفياتوسلاف!  
آه يا ياروسلاف اسميو ميس،  
يا أمير غالسيا!  
أنت تعطي شامخاً عرشك المنحوت من الذهب.  
لقد دعمت الجبال بجيوشك الحديدية،  
قاطعاً الطريق على الملك،  
مغلقاً بوابات الدانوب.  
راشقاً الغيوم بالأثقال،  
ناشراً العدل بعيداً عن الدانوب.  
إن رعودك تقصف فوق البلاد،  
أنت فتحت بوابات كييف،  
ومن عرش أبيك الذهبي،  
أطلقت النيران على السلاطين  
القاطنين وراء أراضيك.

أطلق إذن، يا سيدي، النار  
على الكونتشاك والعبيد الكفار  
من أجل الأرض الروسية  
من أجل جراح إيغور،  
الابن الصنديد لسفيا توسلاف!  
وأنتم أيها الرومان البواسل والمستيسلافون!  
إن فكراً مقدامة قدمت عقولكم للعمل.  
انهضوا وهبوا للعمل كعقاب يبهر في الريح،  
متلهفاً في إقدامه للتغلب على الطير.  
أنتم تمتلكون صدوراً حديدية  
تحت خوذكم اللاتينية.  
لقد زمجرت الأرض تحت وطأتها،  
سقطت رماح شعوب عديدة  
أمام هذه السيوف وانحنت هاماتهم  
كالهانيين والليتوانيين والياتفازيين  
والمديريميلتين والبولوفتسيين.  
أما الآن فقد ذهب الأمير إيغور، سنا الشمس  
وسقطت أوراق الدوحة كندير شؤم  
وتقاسم البولوفتسيون المدن الواقعة  
في روس وسولا.  
لن ينهض جند إيغور المقدام مرة ثانية.  
إن الدون يناديك أيها الأمير،  
ويستحث الأمراء للنصر.  
سار الأمراء الشجعان، سلالة البيغ، إلى المعركة.

ظل انفغفار وفسيفلود وأبناء مستيسلاف الثلاثة  
والصقور الستة دون مأوى!  
لم تسيطر على أراضٍ لأنفسكم  
من غنائم النصر.  
أين إذن خوذكم الذهبية  
ورماحكم البولوندية ودروعكم؟  
حاصروا بوابات السهول برماحكم القاطعة،  
من أجل الأرض الروسية،  
من أجل جراح إيغور،  
الابن الصنديد لسفياتوسلاف!  
لن يتدفق التيار الفضي  
من سولا إلى مدينة بيرياسلافيل،  
بينما يجري دفيناً كالغمر نحو رجال بولوتسك  
المحصنين بصرخات الكفار العسكرية.  
قارع إيزياسلاف بن فاسيلكو وحده  
خوف الليتوانيين بسيوفه الماضية  
ونشر أمجاد جده فسيسلاف  
وطعن برماح الليتوانيين  
وسقط على العشب الملطخ بالدماء  
تحت الدروع القرمزية  
كأنه على سرير مع حبيته.  
قال بويان: «أيها الأمير،  
لقد غطت الطيور أصحابك بأجنحتها،  
ولحقت الوحوش الكاسرة دماءهم».

ان أَخَوَيَّ برياتشيسلاف وفسيفولود  
لم يكونا موجودين هناك.  
فارقت روحه الجسد المقدام كلؤلؤة  
من عنقه الموشى ذهباً.

تلاشت الأصوات، وتوارت المسرات  
ونفخت أبواق الغوروديين.

أيا، ياروسلاف وجميع سلالة فسيسلاف!  
نكسوا راياتكم، وأغمدوا سيوفكم المحطمة.  
لقد أهدرتم أمجاد أسلافكم،  
وقادت خصوماتكم الكفار

إلى الشروع بغزو الأرض الروسية  
وبقاع فسيسلاف، وأفضت البغضاء بينكم  
إلى استخدام البولوفتسيين العنف ضدكم.  
في القرن السابع من عهد الترويان  
اقترع فسيسلاف على الفتاة التي يهواها.  
انحنى بمرارة على سهمه،

وثب إلى مدينة كييف،  
ومسّ برمحه عرش كييف الذهبي.  
قفز خفيةً بزّي وحش كاسر  
من مدينة بيلغورود عند منتصف الليل،  
وتلفح بالضباب الأزرق.  
أصاب ثلاث مرات حظاً جيداً:  
ففتح بوابات نوفغورود

وهدم مجد ياروسلاف،

ووثب بزِّي ذئب من دوروتوكي إلى نيميغا.  
وضعوا كومة من الرؤوس في نيميغا،  
أخذوا يضربونها بمدرس فولاذي،  
ألقوا الأحياء على أرض الطعن،  
وانتزعوا أرواحهم من أجسادهم.  
غمرت دماء نيميغا الضفاف غير المزروعة  
بيذور طيبة،

لكنها زُرعت الآن بعظام أبناء روسيا.  
نشر الأمير فسيسلاف العدل بين الناس  
وأقطع المدن للأمرء،  
لكنه عدا ليلاً في زي ذئب:  
عدا قبيل الفجر بزِّي ذئب  
من كييف إلى تموتوروكان  
وقطع طريق خريستوف العظيم.  
قرعوا نواقيس كنيسة القديسة صوفيا  
مبكراً من أجله لأداء صلاة الصبح في بولوتسك  
وظل يسمعها حتى وصل إلى كييف.  
لقد عانى من نكد الطالع  
رغم أن له روح ساحر في بدن قوي.  
أنشد له بويان، الساحر الحكيم،  
هذه الأغنية منذ أمد بعيد:  
«لن يفلت حتى الرجل الداهية أو الحاذق  
أو الطير الماهر من القدر

الذي رسمه الرب».

وأسفاه، ستأوه الأرض الروسية

عندما تسترجع الأزمان الخالية وأمرء الماضي!

لن يقف فلاديمير الكبير عند بوابات كييف.

لكن حدث أن انتقلت بعض راياته الآن

إلى روريكوف والأخرى إلى دافيدوف،

إن يبارقهم ترفرف متنازعة، والرماح تغني!

تردد صوت ياروسلافنا على الدانوب

مثل طير الوقوق البائس

ينوح في الصباح الباكر.

قالت:

«سأطير كالوقوق على مدى الدانوب،

واغمس رُدني المصنوع من فور السمور

في نهر كايالا،

وامسح جراح الأمير النازفة من جسمه القوي».

ناحت ياروسلافنا في الصباح الباكر

عند سور بوتيفل قائلة:

«أيتها الريح، أيتها الريح،

أيها الرب، لماذا تنفخ بقوة؟

لماذا تحمل سهام الهانين خفيفة

على أجنحتك ضد محاربي حبيبي؟

ألا يكفيك دويها العالي تحت الغيوم،

محطمة البواخر في البحر الأزرق؟

لماذا، أيها الرب، بعثت سعادتي

فوق العشب المكسو بريش النعام؟  
ناحت ياروسلافنا في الصباح الباكر  
عند سور مدينة بوتيفيل قائلة:  
«وأسفاه يا دنيبر سلوفوتيتش!  
لقد انحدر طريقك عبر الجبال الصخرية  
في أراضي البولوفتسيين.  
حطمت زوارق سفياتوسلاف على مياهك.  
وحملتهم إلى معسكر كوبياكوف.  
أرجع، أيها الرب، حبيبي  
كيلا أرسل له دموعي»  
ناحت ياروسلافنا في الصباح الباكر  
مع البحر في الصباح الباكر  
عند سور بوتيفيل قائلة:  
«أيتها الشمس المتلألئة، المتلألئة جداً!  
أنت دافئة وجميلة لدى الجميع.  
فلماذا، أيها الرب، تقذف أشعتك اللاهبة  
ضد محاربي حبيبي؟  
لماذا تتغضن جباههم الصادية في السهول الظمأى،  
وتوقف سهامهم وهم في محنة؟»  
انشق زبد البحر في منتصف الليل،  
وتقدمت خراطيم المياه كالسديم.  
أبان الرب الطريق للأمير إيغور  
من أرض البولوفتسيين إلى الأرض الروسية،  
نحو عرش أبيه الذهبي.

توارى وهج الغروب.  
نام إيغور ثم استيقظ،  
قاس في ذهنه مسافة السهل الممتد  
من الدون العظيم إلى الدونيتس الصغير.  
أطلق فلور، ومعه جواد، صفيراً عبر النهر،  
معلنناً للأمير أن يدرك هذا الشيء:  
الأمير إيغور لم يعد أسيراً!  
صرخ إيغور وإذا الأرض تلعلع  
والعشب يصلصل وخيام البولوفتسين ترتعد.  
وثب إيغور كحيوان القاقم مندفعاً  
وكبطة بيضاء تسير إلى الماء.  
انطلق بجواده السريع ووثب منه كذئب يعدو.  
اندفع نحو مروج دونيتس،  
وطار كعقاب تحت الضباب،  
ذابحاً الإوز والبط  
لوجبات الفطور والغداء والعشاء.  
ولما طار إيغور كالعقاب،  
جرى فلور كالذئب  
نافضاً الندى البارد:  
لقد ركبوا خيولهم السريعة.  
قال الدونيتس:  
«إيه أيها الأمير إيغور!  
المجد العريض في انتظارك  
والكمد للكونتشاك

والمسرات للأرض الروسية!  
أجاب إيغور:  
«إيه أيها الدونيتس  
المجد العريض في انتظارك،  
يا من أرجحت الأمير على أمواجك،  
ونثرت العشب الأخضر له على ضفافك الفضية،  
وكسوته بالضباب الدافئ  
تحت ظلال دوحك الأخضر،  
جعلت بط البحر تحرسه في المياه  
والنورس في الأمواج  
والبط الأسود في الريح».  
لم يتصرف المستوغنا على هذه الطريقة:  
ابتلع تياره الضئيل الجداول  
وتقاذف الزوارق إلى مصبه،  
وانغلق على الأمير الشاب روستيسلاف.  
بكت والدة روستيسلاف  
عند الضفة الداجية من الدينير  
على الأمير الشاب روستيسلاف.  
تساقطت الأزهار أسفاً عليه،  
وانحنت الشجرة إلى الأرض رثاءً له.  
لم تكن الغربان الناعبة  
هي التي اقتفت أثر إيغور،  
وإنما الغزاك والكونتشاك.  
بعدئذ كفت الغربان عن النعيب

ولزمت الزيفان الصمت،  
لم تثرثر الغربان وظلت الثعابين تزحف وحدها  
أوضح نقار الخشب بنقره، الطريق إلى النهر،  
وأعلنت البلابل بشدوها الجذل طلوع الفجر.  
قال الغزاق للكونتشاك:

«إذا طارت الصقور تجاه أوكارها  
سنطلق السهام المموهة بالذهب على صغارها»  
قال الكونتشاك للغزاق:

«إذا طارت الصقور تجاه أوكارها  
فسنوقع صغارها في حبال فتاة حسناء».  
قال الغزاق للكونتشاك:

«إذا أوقعنا صغارها في حبال فتاة حسناء،  
فلن نظفر بالصقور الصغار ولا الفتاة الحسناء،  
وتبدأ الطيور بالهجوم علينا  
في سهول البولوفتسين».

قال بويان شاعر الأزمان الخالية،  
-أيام ياروسلاف والأمير اليغ-  
منذراً الجميع حتى ابن سفياتوسلاف:  
«يقع الشر عند مفارقة الرأس للكتفين  
أو مفارقة الجسم للرأس»،  
كذلك هو شأن الأرض الروسية بلا إيغور.

أشرقت الشمس في السموات:  
ها هو ذا الأمير إيغور يعود للأرض الروسية،

العذارى تغنين على الدانوب  
وتصل أصواتهن، عبر البحر، إلى كييف.  
ركب إيغور على بوريتشف  
وذهب إلى كنيسة السيدة،  
الريف جذل، والمدن فرحة.  
بعد أن غنينا أغنية للأمراء السالفين،  
علينا أن نغني على شرف الفتى:  
المجد لك يا إيغور يا ابن سفياتوسلاف،  
ولفسيفلود، الثور الوحشي  
ولفلاديمير، ابن إيغور!  
ليعيش الأمراء وحاشيتهم،  
لقد حاربوا جحافل الكفار  
من أجل المسيحيين!  
المجد للأمراء وحاشيتهم! آمين.

## من أشعار البيلىنا<sup>(١٠)</sup>

الرحلة الأولى لإيليا موروم  
إيليا والعندليب- اللص.

لم تنحن دوحة البلوط الخضراء إلى الأرض،  
لم ترتعش وريقات الكتابة  
بل الابن يركع أمام أبيه  
ملتمساً بركاته:

«أواه يا والدي العزيز

هبنى بركاتك،

كي أذهب إلى كيف، المدينة المقدسة

وأصلي لصانع المعجزات الكيفي<sup>(١١)</sup>.

أقدم الولاء للأمير فلاديمير،

أخدمه بإيمان حقيقي،

وأصون العقيدة المسيحية»

أجاب الفلاح المُسن إيفان تيموفيفيتش:

«وهبتك بركاتي لعمل الخير

١٠. قصائد تدور مواضيعها حول البطولة والبسالة.

١١. نسبة إلى مدينة كيف

وأحجبها عن عمل السوء،  
عندما تسافر في الطريق  
لا تضمر شراً للترى،  
لا تقتل فلاحاً في الحقل الرحب».   
سجد إيليا المورومي أمام أبيه،  
امتطى جواداً صالحاً،  
واندفع في السهل الفسيح.  
ساط الجواد على جانبه  
مخترقاً جلده إلى لحم العظم  
استبد الغضب بالجواد الهائج،  
فناى عن الأرض،  
ووثب أعلى من الأشجار المنتصبة  
وتخت الغيوم الشاردة.  
وثب الوثبة الأولى إلى خمسة عشر كيلومتراً،  
في الوثبة الثانية - انشق بثر،  
فوضع شجرة بلوط خضراء  
شيد كنيسة صغيرة،  
وخط اسمه على الكنيسة:  
«مرّ من هنا البطل المارد الجبار  
إيليا موروم بن إيفان»  
في القفزة الثالثة وصل قرب مدينة تشيرينغوف.  
عند مدخل تشيرينغوف يقف حشد لا يحصى،  
عند مدخل تشيرينغوف يقف ثلاثة أمراء،  
لكل منهم جحفل من أربعين ألف رجل.

توقد قلب البطل، إندفع  
متلظياً بوهج أحر من النار  
وأشد من الجليد القوي.  
عندئذ نطق إيليا المورومي بهذه الكلمة:  
«لا أروم معارضة والدي  
ولا أحرق مواعظه المعروفة».  
أمسك سيف القتال بيده  
وشرع يسير بين الحشود:  
أيّما استدار، ظهرت الشوارع  
أيّما التفت برزت الميادين  
إلى أن وصل للأمرء الثلاثة.  
هنا نطق إيليا بالكلمات الآتية:  
«ويل لكم أيها الأمرء الثلاثة!  
هل آخذكم سجناء  
أم اقطع رؤوسكم العنيدة؟  
فإذا أخذتكم سجناء  
أمنتُ الطرق لسير الناس وجلب الخبز لي.  
لكن إذا قطعت رؤوسكم فإنني أحطم سلالة الملوك.  
اذهبوا أيّما كان  
وارفعوا مجدنا حيثما كان،  
لأن روسيا المقدسة ليست خاوية،  
فثمة بطل مارد جبار في روسيا المقدسة».  
لمحه حاكم تشيرينغوف:  
«من هذا الرسول الذي بعثه الله إلينا!

لقد حرر مدينة تشيرينغوف المقدسة».

قام الحاكم للأمراء والبويار<sup>(١٢)</sup>:

«اذهبوا وادعوا هذا الفتى الصالح الشجاع  
إلى مائدة طعامي».

ذهب حيثئذ الأمراء والبويار إليه:

«أهلاً بك أيها الفتى الصالح الشجاع!

ما اسمك الشريف

وما اسم أبيك؟» -

«اسمي إيليا

ويسمونني ابن إيفان».

قال الأمراء والبويار:

«أهلاً يا إيليا المورومي!

اذهب إلى حاكمنا

ليستضيفك على مائدته»-

«لن أذهب إلى حاكمكم

لا أريد الضيافة على مائدته،

بينوا لي الطريق المباشر

إلى مدينة كييف الملكية المجيدة»

أجاب الأمراء والبويار:

«آه يا إيليا المورومي!

١٢. تطلق هذه التسمية على النبلاء الحاكمين في روسيا قبل إلغاء بطرس الأكبر لهذه الفئة.

الطريق المباشر ليس يسيراً-  
ففيه غابات برلين الكثيفة  
وفيه يجري نهر سامورودين،  
إضافة إلى وجود العندليب- اللص في الطريق  
المقيم فوق سبع وعشرين شجرة بلوط منذ ثلاثين عاماً.  
ولا يستطيع امرؤ أن يمر مترجلاً كان أو راكباً». انحنى لهم إيليا المورومي

وسار في غابات برين،  
سمع العندليب صوت جواد البطل  
فصفر صفيراً عالياً.  
تعثر الجواد تحت المورومي.  
قال إيليا لجواده الصالح:  
«أواه يا جوادي يا جوادي الباسل!  
ألم تقطع أبداً الغابات القاتمة،  
ألم تسمع أبداً صفير الطيور؟»  
استلَّ إيليا سهامه الصلبة،  
ورمى سهاماً، لم يصب الهدف  
ورمى مرة ثانية، فتخطى هدفه  
ورمى ثالثة فأصاب عين العندليب اليمنى،  
أسقطه عن شجرات البلوط السبع والعشرين.  
شدّه إلى مؤخرة سرج جواده،  
وسار المورومي إلى مدينة كييف المقدسة.  
قال العندليب- اللص:

«آه يا إيليا موروم!  
دعنا نعرّج على دارِي لتحلّ ضيفاً عندي».  
رأتهم ابنة العندليب الصغرى قادمين:

«ها هوذا أبونا يعود،  
حاملًا فلاحاً في سرج جواده».  
نظرت ابنة العندليب الكبرى:  
«أف أيتها الحمقاء الغيرة! هذا فتى شجاع يسير  
حاملًا أبانا في سرج جواده».  
انقضت على إيليا المورومي بالهراوات.  
قال العندليب اللص:

«لا تهتجن يا بنياتي الصغيرات  
ولا تستفرن الفتى الصالح الشجاع»  
قال إيليا للعندليب - اللص:

«لماذا يبدو أطفالك متشابهين تماماً؟».  
أجاب العندليب - اللص:

«إذا رُزقت ابناً زوجته ابنتي  
وإذا رُزقت بنتاً زوجها ابني،  
كي لا تنقرض فصيلة البلابل».  
اعتبر إيليا المورومي كلامه وقاحة،

فاستل سيفه المسلول  
وقطع أطفال العندليب كلهم.  
وصل إيليا المورومي إلى مدينة كيف  
ونادى بأعلى صوته:

«أيها الأمير فلاديمير، يا أبانا!

هل أنت بحاجة لنا

نحن الأبطال الجبابرة الأشداء،

كي نجلب الشرف والمجد لك يا أبانا

كي ندافع عن مدينتك الملكية

ونذبح التتر؟»

أجاب الأب الأمير فلاديمير:

«كيف لا أحتاجكم؟

أنا أبحث واسأل عنكم في كل مكان.

وبمناسبة وصولكم سأهب كل واحد منكم جواداً صالحاً،

جواداً لاتينياً صالحاً مقداماً»

قال إيليا المورومي الكلمات الآتية:

«املك جواداً لاتينياً صالحاً مقداماً

كنت في الصباح الباكر مع ابي

وأردت أن أكون معك في الغداء،

لكن ثلاث عقبات اعترضت طريقي:

الأولى عندما حررت مدينة تشيرينغوف

والثانية حينما أقمت جسراً

طوله خمسة عشر كيلومتراً

عبر نهر ساموردين،

والثالثة لما قهرت العندليب - اللص،

قال الأب الأمير فلاديمير:

«آه.. هذا العندليب - اللص!

ادخل إلى صالتي ذات الأحجار البيضاء».

أجاب العنديل - اللص:

«لست وصيفاً عندك ولن أخدمك أو اطيعك،

سأخدم ايليا المورومي واطيعه».

قال فلاديمير: «آه ايها المورومي،

إيليا المورومي، ابن إيفان!

أمره ان يدخل صالة الأحجار البيضاء».

أمره إيليا المورومي بالدخول.

ثم قال الأمير فلاديمير:

«أواه ايها الفتى البدين الصالح الشجاع،

إيليا المورومي بن إيفان!

امره أن يصفر صفيراً عالياً»

نطق ايليا المورومي بهذه الكلمات:

«أيها الأمير فلاديمير، يا أبانا!

لا يأخذك الغضب يا أبانا

سأمسك بك يا أبانا تحت ذراعي

وأخبي الأميرة تحت الأخرى».

نطق إيليا المورومي بهذه الكلمات:

«اصفر أيها العنديل بنصف قوتك»

صفر العنديل بكامل قوته،

فانتزع سقف الصالة حتى اطار النافذة،

وحطم جميع المفاصل الحديدية،

وهوى جميع الأبطال الجبابرة الأشداء،

وجميع الأمراء النبلاء والبويار إلى الأرض،  
ظل إيليا المورومي واقفاً حسب.  
وأطلق الأمير والأميرة من تحت ذراعيه

قال الأب، الأمير فلاديمير:

«أحسنت أيها العندليب - اللص!  
كيف تَسْنَى لإيليا المورومي القبض عليك؟!»

أجاب العندليب - اللص:

«كنت مخموراً للغاية في ذلك الحين  
كان يوم عيد تسمية ابنتي الكبرى».  
لم يستحسن إيليا المورومي هذا الكلام،  
أمسك العندليب من رأسه  
ورماه إلى فناء قصر الأمير،  
فانقذف أعلى من الأشجار المنتصبة  
وتحت الغيوم الشاردة،  
هوى بعض مرات على الأرض ورماه مجدداً،  
فتهشمت عظام العندليب كافة.  
حينئذ ذهبوا لتناول الغداء لدى الأمير.

قال الأب الأمير فلاديمير:

«وي يا إيليا المورومي بن إيفان!  
أهبك ثلاثة كراس حول مائدتي:  
المكان الأول - المجاور لي  
والثاني - المقابل لي

والثالث - حيثما شئت أن تجلس»

مشى إيليا المورومي إلى طرف المائدة،  
فانحشر جميع الأمراء والبويار  
والأبطال الجبابرة الأشداء،  
ووجد نفسه يجلس مقابل الأمير فلاديمير.  
تملك الغضب اليوشا بوبوفيتش  
فاستل مُدّية فولاذية  
ورماها على إيليا المورومي،  
فأمسك المُدّية الفولاذية في الهواء  
ودفعها في منضدة البلوط.

## سادكو وملك البحر

من كنز ذهب لا يحصى  
بني سادكو ثلاثين سفينة،  
ثلاثين سفينة، ثلاثين سفينة حمراء،  
وعلى تلك السفن الحمر،  
حمل بضائع مدينة نوفغورود،  
أبحر سادكو إلى فولخوف،  
ومن فولخوف إلى لادوجسكو  
ومن لادوجسكو إلى نهر النيفا  
ومن النيفا إلى البحر الأزرق،  
وما إن أبحر في البحر الأزرق  
حتى عرج على القبائل مالكة الذهب،  
فباع بضائع مدينة نوفغورود  
وحصل على أرباح طائلة.  
حمل أربعين برميلاً من الذهب الأحمر والفضة الصافية،  
وأبحر عائداً إلى نوفغورود.  
أبحر في البحر الأزرق،  
هاجت العاصفة في البحر الأزرق  
ووقفت بواخر الذهب الأحمر ثابتة:

الأمواج تتلاطم والرياح تعوي  
وتحطم بواخر الذهب الأحمر،  
لكن البواخر لم تتزحزح من مكانها في البحر الأزرق.

قال سادكو التاجر الثري  
لأصحابه البواسل:

«آه، أيها الأصحاب البواسل!  
من أمد بعيد ونحن نمخر البحر،  
ولم ندفع أتاوة لملك البحر،  
يبدو أن ملك البحر يريد جزية منّا،  
يطلب جزية في البحر الأزرق.  
آه يا اخوتي، يا أصحابي البواسل!  
خذوا برميلاً من الفضة الصافية  
وارموا البرميل في البحر الأزرق».

أمسك أصحابه البواسل  
برميلاً من الفضة الصافية  
ورموا البرميل في البحر الأزرق:  
الأمواج تتلاطم والرياح تعوي  
وتحطم بواخر الذهب الأحمر،  
لكن البواخر لم تتزحزح من مكانها في البحر الأزرق.  
عندئذ أمسك أصحابه البواسل  
برميلاً من الذهب الأحمر  
ورموا البرميل في البحر الأزرق:  
الأمواج تتلاطم والرياح تعوي

وتحطم بواخر الذهب الأحمر  
لكن البواخر لا تتحزح من مكانها في البحر الأزرق،

قال سادكو التاجر الثري:

«يبدو أن ملك البحر يطلب  
شخصاً حياً للبحر الأزرق.

اعملوا أيها الإخوان قرعة من نور الغصون<sup>(١٣)</sup>  
وسأعمل واحدة من الذهب الأحمر  
ويكتب كل امرئ اسمه على قرعته  
وارموا بها في البحر الأزرق:  
فمن تسقط قرعته إلى قاع البحر  
عليه الذهاب إلى البحر الأزرق.

صنعوا لأنفسهم قرعاً من نور الغصن.  
وعمل سادكو لنفسه واحدة من الذهب الأحمر  
وكتب كل واحد اسمه عليها  
ورموا القرع في البحر الأزرق:  
عامت قرع الأصحاب البواسل  
كالبط على سطح الماء  
وذهبت قرعة سادكو إلى القعر كالحجر.

قال سادكو التاجر الثري:

«آه يا إخوتي، أيها الأصحاب البواسل!  
إن هذه القرع غير صحيحة.

١٣. نور الغصون - وردة صغيرة بيضاء أو وردية.

اصنعوا قرعاً من الذهب الأحمر  
وسأصنع أنا قرعة من نور الغصون.  
صنعوا قرعاً من الذهب الأحمر  
وعمل سادكو لنفسه قرعة من نور الغصون»  
وكتب كلٌّ منهم اسمه عليها  
رموا القرع في البحر:  
عامت قرع الأصحاب البواسل  
كالبط على سطح الماء  
وذهبت قرعة سادكو إلى القعر كالحجر.

قال سادكو التاجر الثري:  
«آه يا أخوتي، أيها الأصحاب البواسل!  
يبدو أن ملك البحر يطلب  
سادكو الثري نفسه إلى البحر الأزرق.  
اجلبوا لي محبرتي المنحوتة  
وقلمي الأوزي الشكل وورقة ممهورة».

جلبوا له المحبرة المنحوتة  
والقلم الأوزي الشكل وورقة ممهورة.  
أخذ يوقع على ممتلكاته:  
وَهَبَ بعضها إلى الكنيسة الربانية  
والآخر إلى الفقراء  
وجزءاً إلى زوجته الشابة  
وما تبقى من ممتلكاته لأصحابه البواسل.

قال سادكو التاجر الثري:

«آه يا إخواني، أيها الأصحاب البواسل!

ناولوني قيثارة الجُمَيْرُ

لأعزف عليها للمرة الأخيرة:

فلن أعزف على القيثارة مرة أخرى،

أم آخذ القيثارة معي إلى البحر الأزرق؟»

أخذ قيثارة الجُمَيْرُ

ونطق بهذه الكلمات:

«ارموا لوحاً من شجر البلوط فوق الماء

لأقذف نفسي على لوح البلوط على الأقل،

ولن أرهب لقاء الردى في البحر الأزرق».

رموا لوحاً من شجر البلوط فوق الماء،

ثم امخرت السفن في البحر الأزرق،

مثل غربان سود تطير،

بقي سادكو وحده في البحر الأزرق.

من جراء الأهوال الرهيبة

أخذته سنة نعاس على لوح البلوط.

استيقظ سادكو في البحر الأزرق،

في لُجَّة الهاوية، في البحر الأزرق.

رأى عبر المياه شمساً قانية دافئة

رأى الغروب والفجر.

رأى سادكو في البحر الأزرق

الصالة ذات الحجر الأبيض

دخل سادكو صالة الحجر الأبيض:

في الصالة يجلس ملك البحر،

رأس الملك أشبه بكومة قش.

قال الملك هذه الكلمات:

«آه يا سادكو - التاجر الثري!

لقد مخرت عباب البحر طويلاً،

ولن تدفع لي - أنا الملك - جزية،

والآن جئتني محملاً بالهدايا.

يقولون أنك ماهر في العزف على قيثارة الجُمّيز،

اعزف لي على قيثارة الجُمّيز».

وما إن شرع سادكو بالعزف على قيثارة الجميز

حتى بدأ ملك البحر بالرقص،

رقص متوغلاً بعيداً في البحر.

عزف سادكو يوماً وثنانٍ

وعزف سادكو يوماً ثالثاً،

وملك البحر يواصل الرقص في البحر الأزرق.

هاجت المياه في البحر الأزرق.

تكدرت المياه بالرمال الصفراء،

أخذت تتحطم العديد من السفن في البحر الأزرق،

وضاعت أموال كثيرة،

وغرقت جموع من الصالحين:

طفق الشعب يصلي للقديس نيقولاى موجايسك.

لمس أحد كتف سادكو اليمنى:

«آه يا سادكو، يا ابن نوفغورود

كفاك عزفاً على قيثارة الجميز».

التفت سادكو ابن نوفغورود ورمق

عجوزاً أشيب الرأس

قال سادكو ابن نوفغورود:

«لا أملك حرיתי في البحر الأزرق

أمروني بالعزف على قيثارة الجميز.

نطق العجوز بهذه الكلمات:

«ينبغي أن تنتزع الأوتار

هَشْمَ ملوى القيثارة.

قل: لم تعد عندي أوتار

وملوى القيثارة مفقود،

لا أملك آلة أعزف عليها،

لقد تكسرت قيثارة الجميز-

سيقول لك ملك البحر:-

ألا تود أن تتزوج في البحر الأزرق

من عذراء صبية حسناء؟

قل له هذه الكلمات:-

لا أملك حرיתי في البحر الأزرق.-

سيجيبك ملك البحر مرة أخرى:-

حسناً يا سادكو انهض في الصباح الباكر

واختر لك غادة حسناء.-  
حينما تبدأ بانتقاء غادة حسناء  
أهمل أول ثلاثمائة فتاة  
وأهمل ثاني ثلاثمائة فتاة  
وأهمل ثالث ثلاثمائة فتاة:  
وتأتي في إثرهن غادة حسناء،  
الغادة الحسناء تشير نافا  
تزوج من تشير نافا  
وعندما تنام في الليلة الأولى  
لا تأت إثماً مع زوجتك في البحر الأزرق:  
وإذا فعلت ستظل إلى ابد الأبدين في البحر الأزرق  
وإذا لم تأت إثماً في البحر الأزرق  
ونمت في فراشك مع الغادة الحسناء  
ستصبح يا سادكو في نوفغورود.  
ومن كنز ذهبك الذي لا يحصى  
ابن كنيسةً للقديس نيقولاي موجايسك».

انتزع سادكو أوتار القيثارة  
حطم ملوى الجميز،

قل له ملك البحر:

«آه يا سادكو ابن نوفغورود!

لماذا لا تعزف على قيثارة الجميز؟»-

«لقد تمزقت أوتار القيثارة

وتحطم ملوى الجميز،  
وليس لدي أوتار غيرها،  
ولا ملوى آخر»

نطق الملك بهذه الكلمات:  
«ألا تود الزواج، في البحر الأزرق،  
من عذراء صبية حسناء؟»

قال سادكو ابن نوفغورود:  
«لا أملك حرיתי في البحر الأزرق».

قال ملك البحر مرة أخرى:  
«انهض في الصباح الباكر  
واختر لك غادة حسناء».

نهض سادكو في الصباح الباكر  
ونظر، فإذا بثلاثمائة غادة حسناء يتهادين،  
أهمَل أول ثلاثمائة فتاة،  
أهمَل ثاني ثلاثمائة فتاة،  
أهمَل ثالث ثلاثمائة فتاة،  
أتت في إثرهن غادة حسناء  
الغادة الحسناء تشير نافا،  
اختار تشير نافا زوجةً له.  
بعد انتهاء وليمة الزواج والحفاوة،  
نام سادكو الليلة الأولى

دون أن يتأتي إثمًا في البحر الأزرق:

استيقظ سادكو في نوفغورود،

قرب نهر تشيرنافا، عند شاطئه المنحدر،

وما إن أطل ببصره حتى رأى

سفنه الأحمر تبحر في فولخوف.

كانت زوجته تصلي لسادكو وأصحابه في البحر الأزرق:

«لن يعود سادكو من البحر الأزرق»

وأصحابه يصلون لسادكو الوحيد:

«بقي سادكو في البحر الأزرق!»

كان سادكو واقفاً على الضفة المنحدرة

يستقبل أصحابه القادمين من فولخوف،

اندهش أصحابه لدى رؤيته:

«لقد تركنا سادكو وراءنا في البحر الأزرق،

وما هو يصل نوفغورود قبلنا،

ليستقبل أصحابه القادمين من فولخوف!»

استقبل سادكو الأصحاب البواسل

وقادهم إلى قصره ذي الحجر الأبيض

كانت زوجته مسرورة سروراً عظيماً،

أخذته من يديه البيضابين

وقبلته من شفاهه الحلوة حلاوة السكر.

شرع سادكو يفرغ الشُّفنُ الأحمر

من الأموال - ذلك الكنز الذهبي الذي لا يحصى.

وما كاد يفرغ السُّفُنُ الحمر حتى بنى  
كنيسة للقديس نيقولاى موجايسك.  
لم يبحر سادكو في البحر الأزرق بعدئذ  
وأخذ يعيش في نوفغورود.

## أشعار دينية

نحيب يوسف

لمن أبث همي  
ومن ادعوه للبكاء؟  
إليك حسب، إليك يا آلهي:  
أنت أعرفُ بغمي،  
يا خالقي ومبدعي،  
وواهي الخير.  
اسألك الرحمة  
بكل جبروتك.  
من يمدني بينوع دموع؟  
لأبكي نهاراً وليلاً  
وانتحب تكفيراً لآثامي،  
وأسكب الدموع من مقلتي،  
لتجري كأنهار الفردوس،  
وتطفى نار الجحيم.  
من يهيني حمامة  
قادرة على الكلام؟  
لأرسلها إلي يعقوب

ولأبي عزرائيل:  
يعقوب، يا أبانا، يا أبانا  
اسفك الدموع للباري  
على ابنه يوسف!  
إن أبناءك وإخوتي  
باعوني في أرض أجنبية.  
لقد جفت دموعي  
منذ فراقك لك،  
ولا سلوان لي.  
أيتها الأرض، أيتها الأرض  
يا من تستصرخين الرب على هايل  
استصرخيه على يعقوب  
وعلى أبي عزرائيل.

## جوسافات<sup>(١٤)</sup> الأمير الناسك

قرب الوادي، قرب الوادي  
تمتد الفلاة، الأم الجميلة  
وإلى هذه الفلاة  
جاء الأمير الشاب  
جوسافات الأمير الشاب:  
«أيتها الفلاة، الأم الجميلة  
أمي الحبيبة!  
خذييني إلى الفلاة:  
سأكون سعيداً بخدمتك أيتها الأم  
وبالسجود لديك»  
أجابت الأم الفلاة  
جوسافات الأمير الشاب:  
«آه أيها الأمير الشاب جوسافات  
لن تعيش في الفلاة:  
من يتولى أمر مملكتك المستقلة،  
وقصرك ذي الحجر الأبيض

١٤. جوسافات ويكتب أيضاً «جوساف» وهو ابن ملك هندي اسمه ابنير. اعتنق الدين المسيحي على يد بارلاعام.

وكنزك الذهبي؟»  
أجاب جوسافات الشاب:  
«أيتها الفلاة، الأم الجميلة  
يا أمي الحبيبة،  
لا أريد تولي أمر المملكة المستقلة  
ولا القصر ذي الحجر الأبيض  
ولا الكنز الذهبي.  
أريد العيش في الصحراء.  
سأكون سعيداً بخدمتك  
وبالسجود لديك.»  
أجابت الأم الفلاة  
جوسافات الأمير الشاب:  
«أيها الأمير الشاب جوسافات!  
لن تعيش في الفلاة،  
عندما يحل الربيع - الأم الجميلة  
وتفيض البرك والمستنقعات  
وتكتسي الأشجار أوراقاً  
وتشدو طيور الجنة كلها -  
حينئذ ستترك الفلاة  
وتهجرني، أنا الأم الجميلة.»  
أجاب جوسافات الأمير الشاب:  
«آه أيتها الفلاة، الأم الجميلة.  
يا أمي الحبيبة!

عندما يحل الربيع - الأم الجميلة  
وتفيض البرك والمستنقعات  
وتكتسي الأشجار أوراقاً  
وتشدو طيور الجنة كلها:  
لن أخرج من الفلاة،  
لن أهجرك أيتها الأم الجميلة».

\*\*\*

اندهش جميع القديسين الصالحين  
من الأمير جوسافات،  
ومن إدراكه الملكي الفتى.  
نغني تمجيداً له  
إلى أبد الأبدين، آمين.

## السبت، يوم القديس ديمتري

في عشية السبت، يوم ديمتري  
في كاتدرائية القديس أوسبينسكي،  
أقام القديس القبرصي القداس الديني،  
حضر الأمير ديمتري القداس الديني  
مع يفودكيا الأميرة التقية  
وبصحبة الأمراء والبويار  
وقادته الأماجد.

\*\*\*

قبل لحظة من الشروع بالغناء  
توقف الأمير ديمتري عن الصلاة،  
انكأ الأمير إلى العمود،  
واستغرق الأمير ديمتري بالتفكير،  
فتح عينيه الروحانيتين،  
ورأى رؤيا عجيبة:  
الشموع لا تتوقد أمام الأيقونات،  
ولا تتلألأ الجواهر في اللوحات الذهبية،  
ولا تسمع الأناشيد المقدسة،  
رأى حقلاً فسيحاً،

حقل كوليكوفو<sup>(١٥)</sup> الرحب،  
الحقل منثور بالأجساد الميتة من  
المسيحيين والتتر:  
والمسيحيون يضيئون كالشموع  
والتتر سود كالقار.  
في حقل كوليكوفو ذاته  
تمشي الأم المقدسة  
وخلفها يسير الحواريون  
وملائكة الطبقة العليا المقدسين،  
وبمعيتهم شموع ساطعة،  
يرتلون ترنيمة على رفات القادة،  
أحرقت لهم الأم المقدسة البخور  
ونزلت لهم تيجان من السماء.  
سألت الأم المقدسة:  
«أين هو الأمير ديمتري؟»  
أجابها الحوارى بطرس:  
«الأمير ديمتري في مدينة موسكو،  
في كاتدرائية أوسبينسكي المقدسة،  
وهو يحضر القداس الديني  
مع الأميرة يفودكيا  
وبصحبة الأمراء والبويار  
وأولئك القادة الأماجد».

---

١٥. الحقل الذي دارت به معركة حاسمة بين الروس من جهة والتتر- المغول  
من جهة أخرى.

قالت الأم المقدسة:  
«الأمير ديمتري ليس في مكانه:  
ذهب يقود جموع الشهداء،  
أما أميرته فستكون في موكبي».

\*\*\*

عندئذ توارت الرؤيا،  
بدأت الشموع تتوقد في الكنيسة،  
وتلألأت الجواهر في اللوحات الذهبية،  
وأفاق الأمير ديمتري،  
وسفك الدموع  
وقال الكلمات الآتية:  
«آه، لقد حانت ساعة موتي!  
سيحتويني اللحد قريباً!»  
وتصبح زوجتي راهبة

\*\*\*

تخليداً للرؤيا العجيبة  
أصبح السبت يوم ديمتري.

## حلم مريم المقدسة

«أيتها الأم، أيتها الام مريم المقدسة!

أين أمضيت الليل أيتها الأم؟»

أمضيت الليل في مدينة القدس

في كنيسة الرب خلف المذبح

غفوت قليلاً وحلمت كثيراً:

خُيِّلَ إلي أني ولدت ابناً هو المسيح

ولففته بقمط

وزينته بطوق حريري».

قال لها المسيح، يسوع المقدس:

«أمي، يا أمي!

لا تبوحي بهذا الحلم يا أمي:

أنا أعرف هذا الحلم

وأنا أفسره لك».

قرب نهر الأردن

نمت شجرة مقدسة

شجرة قبرصية مقدسة

وعلى تلك الشجرة القبرصية

ظهر الصليب المدهش

الصليب المدهش واهب الحياة  
وعلى ذلك الصليب سأصلب.  
يوم الجمعة قبيل السبت  
صلب اليهود المسيح  
أراقوا الدم المقدس متعمدين،  
سَمَرُوا يديه وساقيه،  
غمدوا رمحاً في جنبه،  
وحطموا رأسه بقضيب.  
سمعت الأم مريم بذلك  
فهرعت نائحة على المسيح:  
«يا بني الحبيب!

لماذا تتعرض لمثل هذا العذاب؟  
ولمن تركتني يا بني؟» -  
«لا تبكي يا أمي مريم،  
لن أتركك وحيدة

أنا أحيأ معك يا أمي، برعاية يوحنا العالم اللاهوت،  
مع صديقي، صديق المسيح.  
سأموت الآن،

وأبعث في اليوم الثالث يا أمي  
وأهبط بنفسي من السماء يا أمي  
وانتزع روحك  
وتكونين بصحبة الملائكة،

الملائكة وساروفيم<sup>(١٦)</sup> المجيد  
وسأدفن رفاتك  
وأرسم وجهك على الأيقونة،  
وأضعها في كنيسة الرب وراء المذبح:  
وستصلي الأرواح - عبدة الله  
وسترعاك يا أمي  
ويعمجدون المسيح".  
لك المجد أيها المسيح!

---

١٦. ملاك من ملائكة الرتبة الأولى الذين يحرسون عرش الرب.

## ميخائيل لومونوسوف

MIKHAIL LOMONOSOV

(١٧١١-١٧٦٥)

- ابن صياد من أقصى شمال البلاد. كان يرافق والده في البحر لمساعدته في عمله.
- كان ذكياً متوقداً للفكر جريئاً مقداماً.
- دفعه حب المعرفة والعلم إلى مغادرة بيت والده خفية وله من العمر تسعة عشر عاماً ووصل إلى موسكو.
- دخل المدرسة، وأقبل على دراسة العلوم والفلسفة واللغتين اليونانية واللاتينية بشغف، أبدى فطنة فائقة فرشحته المدرسة للدخول في جامعة بطرسبورغ.
- أرسل لدراسة العلوم الطبيعية في ألمانيا، درس هناك، إضافة إلى ذلك، العلوم الفيلولوجية ثم عاد إلى روسيا عام ١٧٤١ وبدأ يعمل في أكاديمية العلوم وصار بروفيسوراً في الكيمياء وحصل على لقب الأكاديمي.
- كان عالماً انسكلوبيدياً في اللغة والشعر والفيزياء والكيمياء والفلك.
- أسس جامعة موسكو عام ١٧٥٥.

## التأمل مساء بالجلال الالهي

### بمناسبة الشفق القطبي الشمالي

أشاح النهار بوجهه،  
وأرخی الليل سجوفه على البطاح،  
تعالت الظلال السود نحو الجبال،  
وانحرفت الأشعة بعيدة عنا.  
تكشفت هاوية مرصعة نجوماً،  
نجوم لا تحصى، وهاوية لا قرار لها.  
كحبة رمل في أمواج اليمّ،  
كشرارة ضئيلة في الثلوج الدائمة،  
كذرات دقاق في السواقي العاتية،  
كريشة النار المتوهجة،  
غطست في تلك الهاوية  
تائهاً، تغنيني الفكر!  
تعلن السنة الحكماء قائلة:  
ثمة عوالم كثر متباينة هناك،  
شموس لا تحصى تلتهب،  
شعوب وعصور متتابعة هناك:  
هناك تكافأ قوى الطبيعة

في سبيل التمجيد الشامل للألوهية.  
لكن أين قوانينك أيتها الطبيعة؟  
الفجر يبزغ من البلاد الشمالية،  
أوليست هي الشمس التي تنصب عرشها هناك؟  
أوليست هي البحار الثلجية التي تقذف النيران؟  
ويغمرنا ذلك اللهب البارد!  
ويتسلل النهار ليلاً نحو الأرض!  
وي، يا من نظرتة الثاقبة  
تنفذ إلى سفر القوانين الأزلية،  
ويا من تكشف علامة خفيفة منه في الأشياء  
قوانين الطبيعة،  
أنت ضليع بمعرفة مسالك الكواكب،  
خبرنا ما الذي يكدرنا؟

ما علة تواري الأشعة الساطعة في الليل؟  
لماذا تضرب شعلة خابية السموات؟  
كيف تعدو البروق بلا غيوم رعديّة  
من الأرض نحو الأعالي؟  
كيف يقدر البخار المتجمد  
أن يخلق الحرائق في صلب الشتاء؟  
هناك تصارع العتمة الداكنة المياه،  
أو تتألق أشعة الشمس  
وهي تميل نحونا عبر الأجواء الكثيفة،  
أو تتقد ذرى الأطواد الغائمة

أو تكف الرياح عن الدوي في البحار  
وتلاطم الأمواج الملساء الأثير.  
جوابنا عما يحيط المناطق المجاورة  
حافل بالشكوك.  
أنبئنا عن فساحة الكون  
وما يترامى خلف النجوم الصغيرة؟  
هل ثمة تخوم لخلقك؟  
هل تنبئنا عن مدى عظمة الخالق؟

## غافريل ديرجافين

GARVIL DERZHAVIN

(١٧٤٣-١٨١٦)

- كانت حياته متقلبة كثيرة التغير.
- عمل جندياً مدة تينف على عشر سنوات، وكان محارباً شديداً البأس.
- اشترك في قمع الثورة الفلاحية المشهورة في التاريخ باسم ثورة بوغاتشيوف.
- ترك الخدمة العسكرية وعمل في وظائف مدنية متعددة. كان مخلصاً في عمله، صريحاً في كشف الفساد والنقائص مما عرضه إلى مصاعب جمّة ومشاكل كثيرة.
- عمل سكرتيراً شخصياً لدى الإمبراطورة كاترين عام ١٧٩١، لكنه كان حاد الطبع، عنيداً في آرائه، فلم يستطع الاستمرار في عمله مدة طويلة.
- عينه القيصر ألكسندر الأول وزيراً للعدلية، لكن وعورة أخلاقه جعلت القيصر يقصيه عن العمل في دوائر الحكومة بصورة نهائية.

## إلى الحكام والقضاة

نهض الإله الجبار لمحاكمة  
آلهة الأرض في مجمعهم،  
فقال: إلى متى، إلى متى  
تحمون الظالمين والسفلة.  
واجبكم: صيانة القوانين  
دون التطلع في وجوه الأقوياء،  
وآلا تتركوا اليتامى والأرامل  
دون مساعدة أو حماية.  
واجبكم: إنقاذ الأبرياء من المصائب،  
ومنح التعساء مأوى،  
وحماية الضعفاء من الأقوياء  
وفك أغلال البؤساء.  
إنهم صم! يرون ولا يدركون،  
فالرشاوى غشاوة على عيونهم،  
الطغام يزلزلون الأرض  
والمظالم تهز السماوات.  
أيها القياصرة! ظننتكم آلهة جبارة  
ولا قاضي فوقكم،

لكنكم نهب للعواطف مثلي  
وزائلون مثلي.  
ولسوف تسقطون كما  
تساقط الأوراق الذابلة من الشجر،  
ولسوف تموتون كما  
يموت آخر عبد عندكم.  
انهض أيها الرب! يا رب العدالة،  
اصنع إلى تضرعاتهم  
هلمي أيتها العدالة، عاقبي الخبيثاء،  
وكوني الملك الوحيد على الأرض.

١٧٨٧

## البلبل في الحلم

غفوت على ربوة عالية،  
وسمعت أغاريدك أيها البلبل،  
أذركتها روعي  
حتى في الكرى العميق:  
كانت تردد أو يعود صداها،  
تأوه أو تبسم  
في مسمعي من بعيد.  
وعندما احتوتني أحضان قمر المشتري،  
أترعت الأغاني، التأوهات، الصياح، الصفير،  
غفوتي الحلوة بالسرور.  
إذا لم يكن بعد موتي،  
في نومي الأبدي المضجر،  
الحال، أواه!، كما هو عليه الآن،  
فلن أسمع الأغاني  
ولن أسمع أصوات  
الأفراح، البهجة،  
الرقصات، الوجوه، ألحان المجد-

فلأستمع أكثر بالحياة،  
وألثم حبيبي دائماً،  
وأصغي لأغنية البلبل.

١٧٩٧

## رقصة غجرية

أمسكي أيتها الغجرية القيثارة  
اضربي وأصرخي  
صرخة حارة شهوانية.  
متعي الجميع برقصك  
أضرمي حرائق الروح وارمي النيران في القلوب  
من وجهك الأسمر.  
أعيدي المشاعر المتوهجة الباهرة  
وارتعاش الأعصاب والحب الكسول  
وعدوى الفن السحري  
لإله الخمر الغابر،  
أضرمي حرائق الروح وارمي النيران في القلوب  
من وجهك الأسمر  
لينبجس كالليل، الفجر من وجنتيك  
وكالريح انفضي التراب عن عباءتك.  
وكالطير ارفعي جناحيك  
ازعقي وصفقي بيديك،  
أضرمي حرائق الروح وارمي النيران في القلوب  
من وجهك الأسمر.

تحت ليل غابة الصنوبر،  
في ضياء القمر الشاحب،  
سرت فوق بلاط القبور  
أيقظي سكون الموتى،  
أضرمي حرائق الروح وارمي النيران في القلوب  
من وجهك الأسمر.

رهيبة صرختك «إيفوا»<sup>(١٧)</sup>  
التي تختلط بنباح الكلاب،  
باعثة صخباً مريعاً في كل مكان،  
مازجة الحب بالشهوة،  
أضرمي حرائق الروح وارمي النيران في القلوب  
من وجهك الأسمر.

كلا، كفي أيتها الفاتنة  
عن إخافة الربات المتواضعات.  
ارقصي مثل عذراء روسية،  
رقصاً متناسقاً وقوراً نبيلاً  
أضرمي حرائق الروح وارمي النيران في القلوب  
وفي فؤاد الشاعر الرقيق أيضاً

١٨٠٥

يجرف نهر الزمان في تياره  
كل شؤون الناس،  
يدفن في هاوية النسيان،

١٧ - صرخة المخمورين في مهرجانات باخوس.

الشعوب والممالك والناس .  
وإذا ظلت بقية  
عبر أصوات القيثارة والبوق ،  
فلسوف يسحقها فكا الأبدية ،  
ولن تنجو من المصير الشامل .

١٨١٦

شيدت نصباً رائعاً خالداً لنفسي ،  
أقوى من الفولاذ وأعلى من الأهرامات ،  
لن تحطمه الرياح العاتية ولا هزيع الرعد المباغت  
ولن يجرفه الزمن السائر .  
هكذا! لن أموت كلياً، فثمة جزء كبير  
سيهزم التعفن وسيحيا بعد الموت .  
سيرتفع مجدي ولن يذوي  
ما دام العرق السولافي محترماً من الجميع .  
ستنتشر شهرتي من البحر الأبيض إلى البحر الأسود ،  
وحيث يجري الفولغا والدون والنيفا حتى مصب الأورال ،  
سيتذكر الجميع أنني كنت من عامة الشعب ،  
كنت مجهولاً وأصبحت مشهوراً ،  
كنت أول من تجرأ في اللغة الروسية المرححة  
أن يعلن عن «الفيلتسا»<sup>(١٨)</sup> الخيرة .  
وأن أتحدث عن الله ببساطة قلبية

١٨ . فيلتسا مأخوذة من الكلمة اللاتينية Pelicilas وقد استعارها الشاعر عنواناً  
لقصيدته الطويلة «فيلتسا» والموجهة إلى القيصرية كاترين الثانية .

وأن أقول الحقيقة للقياصرة ضاحكاً.  
آه ياربة الشعر! مجدي الأعمال الجديرة،  
ازدري من يزدريك،  
وكللي بيدك الهادئة المريحة  
جبهتك بفجر الخلود.

١٧٩٥

# فاسيلي جوكوفسكي

FASILY JHUKOVSKY

(١٧٨٣-١٨٥٢)

- ابن غير شرعي لملاك يدعى بونين. تبناه جوكوفسكي ولقب بلقبه.
- أصبح أصله العائلي مصدر تعاسة له، وأخذ يميل إلى الكآبة والسوداوية.
- قضى أربع سنوات في مدرسة تابعة لجامعة موسكو، وظهرت ميوله الشعرية فيها.
- تطوع عام ١٨١٢ في الجيش للاشتراك في القتال ضد هجوم نابليون على روسيا، ولكنه بقي في الجيش الاحتياطي بعيداً عن أرض المعركة ونظم قصيدته المعروفة «مغني في مخيم المقاتلين الروس» التي جلبت له شهرة عريضة وأصبح معروفاً حتى في البلاط الإمبراطوري.
- استدعي للعمل في البلاط منذ عام ١٨١٥، وظل يعمل فيه حتى عام ١٨٣٩ عندما سافر إلى ألمانيا.
- استقر في ألمانيا وتزوج هناك وظل يتوق للعودة إلى وطنه.
- كان مترجماً ماهراً، إضافة إلى نظمه الشعر. فقد ترجم جزءاً من «الشاه نامه» والوديسا وقصائد لشعراء غربيين، وكان يتقن بضع لغات أجنبية.
- توفي عام ١٨٥٢ في بادين ونقل جثمانه إلى روسيا ودفن في بطرسبورغ.

## أغنية

يا صديقي، يا ملاكي الحارس،  
انت الذي لا قرين لك،  
أهواك وأتنفسك،  
لكن هل ثمة تعبير عن الأحاسيس؟  
في محاسن الطبيعة كلها  
ألتقي صورتك الحبيبة،  
أرى الروعة في ملامحها  
وأتخيلك أنت وحدك.

\*\*\*

أتناول اليراعة لأرسمها  
فلا أخط سوى اسمك الخالد،  
قيثارتي الفاتنة القادرة  
على تمجيدك وحدك.  
أنا معك وحدك في القرب والبعد.  
هواك هو السعادة الوحيدة عندي،  
أنت كل نعيمي على الأرض،  
أنت قلب الحياة، أنت حُسن الحياة.  
في البيداء، في صحب المدينة،

أحلم بالإصغاء إليك وحدك،  
وعندما يلفني النعاس، تنساب  
صورتك مع آخر أفكارني،  
عذبة نبرة أحاديثك  
إنها لا تفارقني في الكرى،  
أستيقظُ - فإذا أنت في فؤادي،  
اسرع من ملامسة العينين للنهار.  
آه! أمكتوب عليّ أن أفارقك؟  
أنت رفيقي الخفي أينما كنت،  
إذا سكت، فنظرتك مفهومة لدي  
وغامضة على الآخرين،  
في قلبي أستقبلُ صوتك،  
وأرتشف الهوى من أنفاسك...  
من يدركك أيتها الأفراح  
وأنت، يا روعة الروح؟  
إليك، ولك أنت وحدك  
أحيا وأتمتع بالحياة،  
وبك أتحمس وجودي،  
وبك الطبيعة تبهرني.  
بمن أقارن مصيري؟  
وما الذي أتمنى من قدرتي الحلو؟  
الحب هو الحياة عندي.. آه! أتمنى  
أن أحب مائة مرة أكثر

## الوردة

جمال الحقول العابر،  
والوردة الداوية الوحيدة،  
فقدت نضارتها  
على يد الخريف القاسية.  
أواه! لنا أيضاً نصيب من عطاء  
والقدر يطاردنا كذلك:  
لقد ساقط أوراقك  
وذهب بأفراحنا.

كل يوم ينطوي  
على حلم أو متعة،  
وكل ساعة تهشم  
الضلال الحبيب للفؤاد.

انظر... ليس ثمة من فتنة،  
إن نجمة الأمانى تأفل  
أواه! من يخبرني: الحياة أو الوردة  
أسرع أفولاً في الورى؟

## إليها

إين أعثر لك على اسم؟  
الفن الفاني أوهي  
من أن يعبر عن روعتك!  
ليس ثمة من قيثاره لك!  
وما هي الأغاني؟ صدى زائف  
لشائعات عنك!  
لو استطاعوا الإصغاء  
لما في قلبي،  
لكان كل شعور نشيداً إليك!  
إن حياتك الباهرة،  
وصورتك النقية المقدسة،  
أحملها كأسرار في فؤادي.  
يمكنني أن أعشق فحسب،  
ويستطاعة الأبدية وحدها  
أن تخبرك كم أنت حبيبتني!

## أغنية

من بعث في الحياة مجدداً  
سحر الأيام المنصرمة؟  
من أيقظ الذكريات  
والأحلام الساكنة؟  
همست التحايا الخالية في روعي  
وشعت أمامها العيون المألوفة،  
فأصبح لهيئة مرثياً. لديها  
ما احتجب منذ زمن بعيد.  
آه أيها الضيف الحبيب المقدس ماضيك،  
لماذا تنزوي في صدري؟  
أيمكنني القول للأمل «عش»؟  
أيمكنني القول للماضي «عد»؟  
أيمكنني رؤية أحلام  
الجمال الداوي في شعاع جديد؟  
أيمكنني مرة أخرى أن أكسو  
عُري الحياة المألوفة؟  
لماذا تتوق الروح إلى تلك البقاع  
حيث انمحت ذكرى الأيام الماضية؟

البقاع قاحلة مقفرة من الناس  
لا تشف عن السنين الخوالي.  
هناك قاطن وحيد صامت  
شاهد الماضي الحبيب.  
ومعه تلك الأيام الرائعة كلها  
يهجعون في تابوت واحد.

١٨١٨

## البحر

«مرثاة»

أيها البحر الصامت، أيها البحر اللازوردي،  
اقف مبهوراً عند هاويتك.

أنت حي، أنت تتنفس حباً مضطرباً،  
أنت زاخر بالأفكار القلقة.

أيها البحر الصامت، أيها البحر اللازوردي،  
اكشف لي سرّك الدفين:

ماذا يُحرِّكُ لُجَّتَكَ المترامية؟  
وماذا يتنفس صدرك المجهد؟

وهل تدعوك إليها من الأرض المقيدة  
تلك السماء الصافية النائية؟...

أنت غامض حلو زاخر بالحياة،  
أنت نقي في حضورها النقي،

أنت تتماوج في زرقتها السماوية  
وتلتهب ضياء صباح مساء،

تلاعب غمامها الذهبي

وتفرح عند احتضان لألئ نجومها.

عندما تتجمع الغيوم السود،

لتسلبك السماء الصافية:  
فأنت تقاتل، أنت تصرخ، أنت تقذف بأموالك،  
أنت تطاحن وتمزق الدياجير المعادية...  
فتتلاشى الظلمات وتتوارى الغيوم،  
لكنك ما برحت مفعماً بالهواجس الماضية  
مواصلاً رفع أمواجك الوجلة،  
السماء تسترد بريقها الحلو  
لكن السكينة الشاملة لا تؤوب إليك،  
خداع محياك الجامد:  
أنت تخفي قلقك في قرارتك الوادعة  
أنت، تتمتع بالسماء وترتعش من أجلها.

١٨٢٢

## ١٩ آذار ١٨٢٣

أنت أمامي  
واقفة بهدوء.  
نظرتك حزينة  
زاخرة بالمشاعر.  
إنها تذكرني  
بالماضي الحبيب  
وهو آخر ما في  
العالم الحالي.  
لقد رحلت  
كملاك هادئ  
وكان لحدك  
هادئاً كالفردوس  
ينطوي على كل ما هو أرضي،  
وكل الأفكار المقدسة  
عن السماء.  
نجوم السموات،  
والليل الساجي!...

١٨٢٣

## في السنين الخوالي، تحت ضوء القمر

التقيت ربة الشعر الصبية،  
وهبط الإلهام، دون أن أدعوه،  
من السموات عليّ.  
رمى على الأشياء الأرضية كلها  
شعاعاً زاخراً بالحياة،  
حينئذ كانت الحياة والشعر  
تعني عندي شيئاً واحداً.  
لكن ملهم الأغاني  
لم يزرنني منذ أمد بعيد،  
فاختفت الرؤى من روحي  
وصمت صوت القيثارة.  
فهل لي أن أنتظر مرة أخرى  
عودته المنشودة؟  
أم إنه الضياع الأزلي  
ولن تصدح القيثارة أبداً؟  
لكن كل ما كان في الأزمان الرائعة،  
سهل المنال لدي،  
صنت تلك الأيام الماضية

الحبيبة المعتمدة والصالفة:  
أزهار أخيلة الوحدة  
وأحلى ورود الحياة،  
لأضعها على هيكلك المقدس  
يا آية الجمال الرائق.  
لست أدري متى يعود وقت  
الإلهام المضيء،  
لكنني أعرفك أيتها العبقريّة الصالفة!  
ونجمتك تضيء لي!  
وما دامت روعي قادرة  
على تمييز إشعاعاتك،  
فلن تتوارى الروعة  
وسيبعث الماضي للحياة من جديد.

١٨٢٤-١-٢٢

## الليل

ها هو ذا النهار المتعب  
يسبح في المياه القرمزية.  
وتعتم السماء الزرقاء  
وتنتشر الظلال الباردة.  
الليل الصامت الساكن  
يتهادى في الطريق الأثيري،  
ويطير هيسبيروس<sup>(١٩)</sup> أمامه.  
بنجمته الرائعة  
أيتها الروح السماوية اهبطي إلينا  
بوشاحك السحري،  
وحبك الناجع للنسيان،  
هبي السلام لقلوبنا المتعبة.  
هدئي كما تهدئ الأم طفلها،  
بمشاهدك الساكنة  
وأغانيك المخدرة،  
أرواحنا المثقلة بالكآبة.

١٨٢٥

١٩. يقصد الزهرة أو نجمة المساء.

## قسطنطين باتشكوف

KONSTANTIN BAMYUSHKOV

(١٧٨٧-١٨٥٥)

- ينحدر من أسرة نبيلة عريقة.
- اشتغل موظفاً في وزارة التنوير الشعبي ثم انتقل للعمل في الجيش، حارب مع الجيش الروسي ضد نابليون عام ١٨٠٧ وجرح في المعركة التي وقعت قرب غيلسبرنج.
- تقلد وظائف مدنية شتى، كان آخرها العمل في الممثلة الروسية في نابولي عام ١٨١٨، ثم في العاصمة روما عام ١٨٢٠.
- أثرت فيه الطبيعة الإيطالية تأثيراً كبيراً، لكن أضناه، في الوقت ذاته، الحنين إلى الوطن.
- كتب آخر قصائده عام ١٨٢١، فقد ظهرت عليه أعراض مرض عقلي وراثي، أصيبت به أخته وأمه من قبل.
- توفي بمرض التيفوئيد في ٧ حزيران ١٨٥٥.

## يقظة

بدد النسيم الغفوة الأخيرة  
من أهدابي المكبلة بالأحلام،  
لكن أجنحة النسيم الرقيقة  
لم توقظني للسعادة،  
ولا لحلاوة الأشعة الوردية  
أو بشائر صباح أبولو،  
أو السطوع الوادع في السماء اللازوردية،  
أو لرائحة الحقول الفواحة،  
أو لِعَدْوِ جواد هائج  
عبر المروج المخملية،  
أو لنباح كلاب الصيد وأصوات الأبواق  
حول الخليج المهجور -  
لا شيء يفرح الروح  
التي أفلقتها الأحلام،  
ولن ينتصر العقل الشامخ  
بكلماته الباردة على الحب

## ملهمي

أواه يا ذاكرة الفؤاد! أنت أقوى  
من ذاكرة العقل الكئيبة،  
غالباً ما تسحرني حلاوتك  
في البلاد النائية.  
أذكر نبرة الكلمات الحبيبة،  
أذكر العيون الزرق،  
أذكر الخصل الذهبية  
للشعر الأجدد المهدل.  
أذكر الملابس البسيطة  
لراعيتي التي لا نظير لها،  
والصورة الحبيبة الخالدة  
تطوف معي في كل مكان.  
إن ملهمي الحارس هو الحب،  
هو سلواني في الفراق:  
وإذا غفوت؟ انحنى على وسادتي  
ليريح غفوتي الكئيبة.

١٨١٥

## ظل صديقي

الأرواح الراحلة هي شيء حقيقي،  
فالموت لا ينهي كل شيء، ثمة  
ظل شاحب ينجو من الحريق المطفأ  
بروبريتوس

تركت شواطئ إنكلترا الضبابية  
وهي تتراءى غارقة في أمواج رصاصية.  
ررف الهدوء على الآثار التي خلقتها السفينة،  
وأفرح صوتها الخفيض البحارة.  
نسائم المساء وتلاحم الأمواج  
والضجة الرتيبة واختلاج المراكب الشراعية  
وصوت مدير الدفة على سطح السفينة ينادي  
والحرس الوسنانون على همسات الأمواج،  
كل هذا يخلق تأملات حالمة حلوة.  
وقفت كالمسحور عند الصارية،  
بين الضباب وثار الليل،  
أبحث عن نجوم سماء الشمال الحبيبة إليّ.  
أحاطت الذكريات أفكاري كلها

تحت السماء الحبيبة في بلادي،  
لكن ضجيج الرياح وهدير البحر  
حملا التراخي والنعاس إلى جفني.  
تراءت الأحلام تلو الأحلام  
وفجأة... أو كان حلماً؟... ظهر أمامي،  
رفيقي الذي مات ميتة يُحسد عليها،  
في معركة مصيرية مع مياه البليسية  
لم تكن طلعتة مرعبة  
لم تحمل جبهته آثار جراح عميقة،  
بل أشرقت مسرورة كصباح أيار  
وذكرت فؤادي بكل ما هو سماوي.  
هتفت: «أهذا أنت يا صديقي الحبيب ورفيق أفضل أيامي!  
أهذا أنت أيها المحارب العزيز دائماً!  
أولست من وقف عند قبرك المتصب مبكراً  
وسط لهيب حريق المرعب،  
ومع أصدقائنا المخلصين،  
لأحفر بالسيف ماأثرتك على الشجرة،  
ولنودع ظلك في رحلته إلى الوطن السماوي  
بابتهاالاتنا ونشيحنا ودموعنا؟  
آه أيها الظل الخالد، أجبني يا أخي الحبيب!  
أو كان حلماً أم خيالاً كل ما حدث:  
الجثة الشاحبة، القبر، الطقوس كلها كلها،  
كانت من فعل الصداقة الحائمة في ذكرياتك؟  
آه! انطق لي بكلمة! دع صوتك المؤلف

يلاطف مرة أخرى سمعي المتلهف،  
دع يدي، أيها الصديق غير المنسي!  
تضغط بود على راحتك....»  
وطرت إليه... لكن الروح السماوية توارت  
في أعماق السماء الزرقاء المشرقة  
كدخان، كشهاب، كشبح في منتصف الليل،  
تلاشت، وفَرَ الكرى من عيني.  
أغفى كل ما حولي متلفعاً بوشاح السكون.  
لاح الصمت على عناصر الطبيعة المرعبة.  
وفي ضوء القمر المكسو بغيوم خفيفة  
هبت نسيمات رقيقة وسطعت أمواج ناعمة.  
لكن الهدوء الجميل مز مسرعاً أمام عيني.  
وطارت روعي كلها وراء الشبح  
متمنية إبقاء الضيف السماوي:  
أنت، يا أخي الحبيب، يا أفضل أصدقائي!

١٨١٦

## كوندراتي ريليف

KONDRATY RYLEEV

١٨٢٦-١٧٩٥

- نشأ في عائلة من عوائل الملاكين، وكان وضعها الاقتصادي متوسط الحال.
- عمل في الجيش المشارك في العمليات الحربية خارج روسيا من ١٨١٤-١٨١٧
- اشتغل موظفاً في بطرسبورغ منذ عام ١٨٢٠.
- كان مناضلاً نشطاً ضد الحكم القيصري، فقد انضم إلى جمعية سرية ترمي إلى تغيير نظام الحكم القائم.
- اشترك في انتفاضة الديسمبريين التي اندلعت في ١٤ كانون الأول (ديسمبر) ١٨٢٥.
- ألقى القبض عليه بعد فشل الانتفاضة وحكم بالإعدام.
- نفذ فيه حكم الإعدام في بطرسبورغ في ١٣ تموز ١٨٢٦

## ديمتري دونسكوي (٢٠)

«إلى متى أيها الأصدقاء نُحني  
رؤوسنا ذليلين أمام الطاغية  
ونشين موسكو القوية  
سوية مع الخان الحقير؟  
لسنا، لسنا من نهاب القتال  
مع حشود العدو الرهيبة:  
فوراءنا صلوات سرغي  
ورفات آبائنا المعذبين!  
لنظر، ونعيد للشعب  
رخاء البلاد الغربية ونضمناها له:  
حرية الأجداد المقدسة  
وحقوق المواطن القديمة.»

٢٠. ديمتري دونسكوي هو الأمير الموسكوفي الذي انتصر على التتر في معركة كوليكوفو التي وقعت عام ١٣٨٠ بعد حروب عديدة بين الروس من جهة والتتر المغول من جهة أخرى. قاد الأمير دونسكوي المعارك قيادة عسكرية ذكية ووزع قواته على خطوط القتال ووضع الأمير فولينسكي على ميسرة الجيش. وقاد التتر الأمير مامي «الخان» وبدأت معركة كلوليكوفو بالمبارزة بين الفارس الروسي اينوك بيريفسيت والفارس التتري تشيلوبوي وقتل كلاهما، وبعد حرب ضروس انتصر الأمير دونسكوي مما أعلى من شأن مملكة موسكو ووطد سمعتها وأصبحت المركز الذي تجمعت حوله الإمارات الروسية.

إلى الامام! إلى الدون!... أزفت الساعة!  
أملنا- في الله والسيف!  
سنذبح المغول ونرمي،  
كالعبء، عن أكتافنا نير المامي!

وهكذا استعرض، ديمتري، العساكر،  
بهياً على جواده، وصلصل،  
ودعا الله لمعونته،  
وثب كالنسر مهدداً...

«صرخت القوات: إلى العدو! وراء الدون!

من أجل الحرية والحقيقة والعدالة!»

وردد المحاربون النداء البطولي  
واندفعوا وراء الأمير نحو الدون.  
انطلقوا، كلهم حمية،

الأمواج شاهدة على عدوهم السريع  
يطيرون كالعقبان، والرايات  
تظلل الشاطئ المقابل.

لحظة وسطعت الشمس

على السهل وشفاف النهر

وتكشفت بعيداً أمام الأنظار

أفواج التتر اللامتناهية.

المروج والسهول والوهاد والجبال

تموج بحشود متنوعة،

يتعب النظر عن الإحاطة بها...

في كل مكان تلمع السيوف المعقوفة.  
يسكرون كغابة بلوط قاتمة  
وترجع السهول الضجة النائية  
يسكرون... هناك خان، وهنا رمز الأمجاد  
ودَوَى قتال دموي!...  
كان ديمتري أول من هاجم الأعداء:  
«أيها الرب أنت ملاذنا وقوتنا!  
... ديمتري على رأس العساكر  
نموت، عندما يحكم علينا القدر!»  
أريقت الدماء وازدحمت الغيوم  
وارتفعت الزوابع إلى السماء.  
واحتجب ضوء النهار عن العيون  
وانتشر الظلام في الحقول.  
الدماء تتدفق جداول في كل مكان،  
وتفرجت الوهاد الخضراء  
هناك هزم الأعداء الروسي  
هنا سقط المغولي مداساً  
هناك سمعت طقطقة الرماح وأصوات،  
هنا تكسرت السيوف على السيوف.  
الأيدي المقطوعة تتطاير  
والرؤوس تندرج عن الأكتاف،  
هناك تحت أفياء التلال،  
مزدرباً المجد والرتب  
تجندل ماردا ورقدا

إنه إنول بيرسفيت الباسل  
هنا الأمير بيلوزيرسكي والفتيان

الجديرين بحبه،

وبينهم تترى ضخم

غارق بدمائه.

سقط جمع غفير من الشجعان

وقلّ جمهور الناس

وانتصر الأعداء

وهاج تترى شرس.

أزفت نهاية القتال الدامي

والراية المخلصة استعدت للسقوط

وبغته ظهر كنسر في غابة البلوط

فولينسكي مهاجماً العدو.

اضطرب الأعداء، ومن الربوة

مروا صائحين: «جبار رب الروس!»

وعدت عساكر الطاغية

وخرس النفيز المتعجرف!

اندفع الخان إلى السهول المقفرة،

ولاذ بالفرار مرتعباً فزعاً

كسر فولينسكي سلسلة العبودية

ووقف فوق عظام الأعداء!...

ولكن من يكون ذلك الشاحب قرب الغابة

المضطبع، النازف دماً؟

من أرى؟... أبو الأمجاد،  
ديمتري جريح... مشهد مذهل!...  
أحكّم القدر عليه  
أن يكون ضحية تلك المعركة؟  
ولكن ها هو ذا حشد من المقاتلين والأمراء  
تدفق نحو البطل وهو يئن.  
ها هم أولاء يجمعون حوله غنائم المعركة.  
معلنين: افق! أنت انتصرت!  
الأمير يرفع يديه إلى السماء:  
- «جبار من قادنا إلى المعركة!  
جبار!- فلنبعث إليه صلواتنا!  
سُمِعَ صوت سرغي  
وإليه تعود أمجاد المعركة الرهيبة  
هو، هو وحده الذي باركنا!»

## موت يرماك (٢١)

إلى ب.أ. موخانوف (٢٢)

العاصفة تجأر، المطر يضج  
البرق يومض في الدجى،  
الرعد يقصف تباعاً  
الريح تهيج في الأجمة...  
يجلس يرماك، مستغرقاً في أفكاره  
تتنفس عواطفه السؤدد  
في بلد صارم عابس  
على شاطئ ايرتيش الموحش.

إن رفاقه في العمل  
والانتصارات والأمجاد المدوية  
ينامون بلا هموم قرب غابة البلوط  
في مضارب خيامهم.  
«قال البطل: آه، ناموا، ناموا،

---

٢١ - تيمو فيفيتش يرماك قوزاقي الأصل توفي عام ١٥٨٤ وقام بغزو غرب  
سيبيريا الخاضعة لحكم الخانات وقتل - قبل اجتياح سيبيريا كلها - على يد  
كوتشوم

٢٢. أحد المشاركين في انتفاضة الديسمبريين.

أيها الأصدقاء تحت العاصفة المزمجرة،  
سيدوي صوتي مع الفجر  
داعياً للمجد أو الموت!  
انتم بحاجة إلى الراحة والوسن الحلو  
وأخذ يطمئن الشجعان في العاصفة  
ويتذكر الأمجاد في خياله  
ويقوي عزيمة المقاتلين.  
أيستطيع من امتهن حياته  
في السلب وكسب الذهب  
أن يفكر بها  
بروسيا المقدسة الهالكة؟

غسلنا دم الأعداء ودماءنا  
وكل شرور الحياة المعربرة  
وجعلتنا الانتصارات جديرين  
ببركات الوطن -  
لقد أنجزنا قضيتنا:  
خضعت سيبيريا للقيصر  
ونحن، لم نعش في الورى حاملين!

ولكن قضاءً مهلكاً  
جالس البطل وجاوره،  
ونظر نظرة مشفقة  
نظرة مستطلعة إلى الضحية.  
العاصفة تجأ والمطر يضج

البرق يومض في الدجى  
الرعد يقصف تباعاً  
الريح تهيج في الأجمة  
ايرتيش يجيش فوق شاطئه المنحدرين،  
الأمواج البيض تتصاعد  
وتتناثر رفاتها وهي تزمجر،  
لاطمة على الشاطئ زورقاً قوزاقياً.  
ذاق الأصحاب البواسل  
الراحة مع قائدهم في أحضان النوم  
ظلت العاصفة وحيدة مع كوتشوم<sup>(٢٣)</sup>  
ولم تحلم في إهلاكهم!  
فزع كوتشوم من مقاتلة البطل  
فتسلل خفية  
إلى خيامهم مثل خائن حقير  
أحاط الجمهور بالنتري  
ولمعت السيوف في أيديهم  
وتخضب الوادي بالدماء  
وهوى الأصحاب العنيفون  
في القتال، دون أن يشهروا سيوفهم...  
أفاق يرماك من حلمه  
عبثاً يأتي الهلاك من الأمواج  
فالروح زاخرة بالأقدام  
ولكن الزورق بعيد عن الشاطئ!

٢٣. الشخص الذي قتل يرماك

وايرتيش يشتد اضطرابه

شد يرمك عزمه،

وبقوة يديه

شد الأمواج البيض... .

سبح... واقترب من الزورق-

ولكن القوة تراجعت أمام القدر،

النهر يتلاطم رهيباً

وابتلع البطل وهو يهدر،

الفارس المغوار الخائر القوى

يصارع الأمواج الهائجة،

الدرع الثقيل، هبة القيصر،

كان سبب هلاكه.

العاصفة تجأر. وبغته تفضفض

ايرتيش الهائج بضوء القمر،

الجثة التي لفظتها الأمواج

تضيء في الدرع البرونزي.

السحب تنتشر، المطر يضج،

والبرق ما انفك يومض

والرعد ما زال يقصف بعيداً

والرياح تهيج في الأجمة.

## ألكسندر بوشكين

ALEKSANDER PUSHKIN

(١٧٩٩-١٨٣٧)

- نشأ في أسرة نبيلة مثقفة تعنى بالأدب والأدباء، مما جعله يهوى المطالعة ويصغي للأحاديث الثقافية وقصائد الشعراء المعاصرين في المجالس الأدبية منذ صغره.

- أثرت جدته ومربيته في تكوينه الروحي واطلاعه على الحكايات والقصص الشعبية.

- دخل مدرسة الليسه عام ١٨١١ نمت فيها مواهبه الأدبية وميوله الوطنية التي غذتها حرب ١٨١٢. نظم أولى أشعاره في الليسه وانتهى من المدرسة فيها عام ١٨١٧.

- أثارت قصائده الأولى إعجاب الشعراء المشهورين حينئذ مثل دير جافين وباتشكوف وجوكوفسكي.

- انضم إلى جمعية «القنديل الأخضر» السرية التي تكونت عام ١٨١٩. أصبحت له صلات واسعة بالشخصيات الأدبية الثورية في بطرسبورغ.

- كتب عدداً من القصائد الوطنية التي وصل بعضها إلى يد القيصر ألكسندر الأول. وأراد نفيه إلى سيبيريا ثم بدل القرار - بعد توسط

كارامزين وجوكوفسكي له - بالنفي إلى الجنوب وإحاقه بالخدمة العسكرية لدى الجنرال إينزوف عام ١٨٢٠ .

- أعفاه القيصر من الخدمة العسكرية عام ١٨٢٤ لسوء سلوكه وفرضت عليه الإقامة الإجبارية في قرية والده ميخائيلوفسكيه التي قضى فيها عامين منفياً .

- بعد وفاة القيصر ألكسندر الأول كتب التماساً إلى القيصر نيقولاي الأول من أجل إنهاء فترة النفي فعاد إلى موسكو عام ١٨٢٦ .

- تزوج عام ١٨٣١ من الحسناء غوننتشاروفايا البعيدة عن اهتمامات الشاعر الأدبية .

- أراد القيصر استمالته وسمح له بحضور حفلات البلاط مع زوجته التي تستهويها الحفلات الفخمة . أصبح عندئذ تحت مراقبة القيصر وحاشيته التي كانت تكيد له وتنغص حياته .

- قتل عام ١٨٣٧ في مبارزة مع دانتيس الفرنسي الأصل .

## القرية

تحية لك أيتها الزاوية الخالية  
مثنوى الراحة والعمل والإلهام،  
حيث ينساب تيار أيامي الخفي  
في أحضان الهناء والسلوان.  
أنا لك: لقد استبدلت بلاط القياصرة الفاسد  
والولائم الباذخة والمسرات والضلال  
بوشوشة غابات البلوط الوادعة وسكينة الحقول  
وحياة التواني الحرة، وبرفيقتي التأملات.  
أنا لك: أحب ذلك البستان المظلم  
وبرودته وأزهاره،  
وذلك المرج بأكداسه الفواحة  
حيث الجداول الرائقة تضحج بين الشجيرات.  
ثمة لوحات متحركة أمامي أينما كان:  
هنا أرى بحيرتين من السهول اللازوردية  
حيث يتهادى فوقها زورق الصياد أحياناً  
وراءها بضع ربوات وحقول مخططة  
بعيداً تتناثر البيوت الريفية،  
وعلى الشواطئ الرطبة قطعان متجولة،  
ومنشف حبوب داخن وطاحونه ذات أجنحة،

أينما كان معالم الطمأنينة والعمل...  
أنا متحرر هنا من أغلال الصخب،  
أجد الغبطة في الحقيقة،  
لا أصغي إلى غمغمات الجمهور الجاهل  
إنَّ اجابتي عن مشاركتهم ابتهاج خجول.  
لا أحسد مصير

الشرير أو البليد- في تعاليهما الزائف.  
يا وحي العصور، هنا استفسر منكم!  
في العزلة السامية،

فصوتكم الرضي اوضح سماعاً.  
إنه يطرد خمول النعاس العبوس  
ويخلق في الحماسة للعمل،  
إن أفكارك المبدعة  
تنضج في باطن روحي.

\*\*\*

بيد أن أفكاراً مريعة تكرب فؤادي هنا:  
بين الحقول اليانعة والأطواد  
يلحظ صديق الإنسانية مكتئباً  
عار الجهل الفاضح في كل مكان.

هنا الإقطاعيون الضواري ليس لهم مشاعر ليس لهم قانون  
لا يبصرون العبرات ولا يسمعون أنين  
الناس المكتوب عليهم الهلاك،  
لقد اغتصبوا بقوة السياط

عمل الفلاح وطاقاته ووقته،  
وهو المنحني على محراث غيره والخاضع له بالسياط.  
هنا العبودية العجفاء يمسك بعنانها  
الملاك الفظ،  
هنا ينيخون تحت النير الثقيل إلى اللحد،  
لا يتجرؤون على رفد أرواحهم بالآمال والحنان،  
هنا الصبايا العذارى يتفتحن  
لا رضاء نزوات الانذال القساة.  
إنهم العماد العزيز للآباء المسنين،  
والأبناء الصغار، ورفاق العمل  
ومن أكواخ القربى تطلع متكاثرة  
حشود الوصفاء من الرقيق المنهكين.  
آه، لو يستطيع صوتي استصراخ القلوب!  
لماذا يشتعل لظى عقيم في صدري  
ولم يخلع القدر علي هبة البيان الرهيب؟  
أأرى، أواه، أيها الأصدقاء! الشعب طليقاً  
والعبودية تهوي تحت نير القيصر  
أبطلع الفجر الرائع أخيراً  
فوق الوطن المنور بالحرية؟

## إلى البحر (٢٤)

وداعاً أيها المدى الطلق!  
للمرة الأخيرة تترامى  
أمامي أمواجك الزرقاء  
وتتألق بحسبك الشامخ.

\*\*\*

كغمغمة صديق شجية  
كهتافة ساعة الوداع  
سمعت للمرة الأخيرة  
صخبك الكئيب، صخبك المنادي.

\*\*\*

أنت تخوم روحي المنشودة  
كم تجولت على شواطئك  
هادئاً غامض الأحاسيس  
تبرحني فكرة حبيبة!

\*\*\*

---

٢٤ . الشخص الذي قتل يرماك

كم أحببت ردودك!  
أصواتك الهامسة، صرخة لجتك السحيقة،  
هدوءك ساعة المساء.  
تدفقك الجامح!

\*\*\*

زورق الصيادين المتواضع  
يصون نزواتك،  
ينزلق مقداماً بين أمواجك:  
لكنك هائج لا تقهر،  
وتغرق بعضاً من السفن.

\*\*\*

لم أفلح في هجر شاطئك،  
المضجر الثابت، إلى الأبد  
أحبك بإعجاب  
وأرسل مع أعالي أمواجك  
هروبي الشعري!

\*\*\*

أنت انتظرت، أنت هتفت... وكنت مقيداً  
إليك هفت روعي:  
مكثت عند شواطئك  
مفتوناً بعاصفة هائلة...

\*\*\*

ماذا يثير الأسف؟ والآن إلى أين؟  
أنتطلق في الدرب دون اكتراث؟  
شيء واحد في مجاهلك أبتغيه:  
نحر روعي فيها.

\*\*\*

صخرة واحدة، ضريح المجد...  
هناك انغمرت الذكريات الجليلة  
في رقاد بارد:  
هناك أفل نابليون.

\*\*\*

هناك ثوى بين العذابات  
وجرى في أثره، كضجيج العاصفة،  
عبقري آخر منا  
مسيطر آخر على افكارنا<sup>(٢٥)</sup>

\*\*\*

تواري، من بكته الحرية  
وترك للعالم إكليله  
اصخب أيها الطقس الغائم واضطرب:  
فقد كان، آه أيها البحر، مغنيك.  
إنَّ طلعتك لتدل عليه

---

٢٥. يعني به الشاعر الإنكليزي بايرون الذي وقف إلى جانب اليونانيين في  
نضالهم التحرري ضد الأتراك، ومرض في اليونان وتوفي في نيسان ١٨٢٤.

وروحه مخلوقة منك:  
إنه مثلك جبار، عميق، عبوس  
إنه مثلك لا تفل له عزيمة

\*\*\*

اقفر الورى... والآن ترى إلى أين  
ستحملني أيها المحيط؟  
مصير الأرض متشابه أينما كان:  
فكل قطرة هناء، تحيطها  
مواعظ أو طاغية

\*\*\*

وداعاً أيها البحر! لن أنسى  
جمالك المهيب  
ولسوف أسمع طويلاً، طويلاً  
ضحجك في ساعات المساء.

\*\*\*

في الغابات، في الفلوات الصامتة  
سأحملك وأنا مترع بك،  
سأحمل صخورك، وخلجانك،  
وألحك، وظلك، وهمسات أمواجك.

١٨٢٤

## الأعنان

إنني لا آسف على الورود  
الذائوية مع الربيع العابر،  
حبابة إلى نفسي أعنان الدوالي  
الناضجة عنائد في أسفل التل.  
حباب إلى جمال الوهاد الخصبية  
ومرح الخريف الذهبي  
المتواصل الشفاف  
كأنامل عذراء شابة  
خبا نهار ماطر، ودجى الليل الماطر  
يفترش السماء كغطاء من رصاص.  
وكطيف من وراء غابة الصنوبر  
أطل القمر مضيئاً..  
وحمل كل الكآبة المتجهمة لروحي.  
هناك، بعيداً يطلع القمر مشعاً،  
هناك الهواء يرتوي من دفء المساء،  
هناك يتراقص زبد البحر الباذخ  
تحت السموات الزرقاء...  
أزفت الساعة: ها هو يسير على الجبال الآن  
نحو الشواطئ الغارقة بالأمواج الصاخبة،

هناك تحت الصخور الحبيبة  
يجلس الآن كئيباً وحيداً...  
وحيداً... لا يبكي أحد أمامه ولا يحزن.  
ولا يقبل أحد مرفقيه طلباً للسلوان،  
وحيداً لا يطال شيء ثغره  
ولا كتفيه ولا شفاهه الرطبة ولا أنامله الناصعة البياض  
لا أحد جدير بحبه السماوي  
أوليس حقاً: إنك وحدك... تبكي... وأنا هادئ  
لكن لو....

١٨٢٤

## مساء شتوي

العاصفة تغمر السماء ظلاماً  
الزوابع الثلجية تتلوى،  
تجار كالوحش  
أو تبكي كالطفل،  
وفجأة يخشخش القش  
في السقف البالي،  
أو تطرق علينا النافذة  
كعابر سبيل متأخر.  
كوخنا العتيق  
كئيب ومعتم.  
فمالك يا عجوزتي<sup>(٢٦)</sup>  
تلزمين الصمت عند النافذة؟  
هل أضناك يا رفيقتي  
عويل العاصفة،  
أم أنك استسلمت للنعاس  
على دندنة مغزلك؟  
لنشرب أيتها الصديقة الطيبة

---

٢٦. يقصد مربيته الطاعنة في السن

نخب صباي النكد،  
لنشرب فراراً من الأحزان، فأين الكأس؟  
ستدخل المسرات قلوبنا،  
غني لي أغنية العصفور الأزرق  
الذي عاش هادئاً وراء البحار،  
غني لي أغنية، كصبية  
تذهب صباحاً لجلب الماء.  
العاصفة تغمر السماء ظلاماً،  
الزوابع الثلجية تتلوى،  
تجار كالوحش  
أو تبكي كالطفل.  
لنشرب أيتها الصديقة الطيبة  
نخب صباي النكد  
لنشرب فراراً من الأحزان، فأين الكأس؟  
ستدخل المسرات قلوبنا.

١٨٢٥

إلى (٢٧)....

أذكر تلك اللحظة الرائعة  
حينما ظهرت أمامي،  
كطيف عابر،  
كآية الجمال الصافي  
في عذابات الكآبة اليائسة،  
في اضطراب الضوضاء الصاخب،  
رن صوتك العذب طويلاً  
وحلمت بالقسمات الحبيبة.  
مضت السنون. ذرت عاصفة  
الأحاسيس المتمردة الأحلام الخوالي،  
ونسيت صوتك العذب،  
وقسماتك السماوية.  
في الريف النائي، في عتمة المنفى  
تباطأت أيامي صامتة،  
بلا عبادة، بلا الهام

٢٧. نظمت هذه القصيدة بالسيدة الحسناء أ- ب كيرن التي أحبها الشاعر عندما التقى بها في بترسبورغ عام ١٨١٩. والتقى بها مرة ثانية عام ١٨٢٥ في ضيعة تريغور ونظم القصيدة المذكورة في أعقاب هذا اللقاء.

بلا دموع، بلا حياة، بلا هوى.

عادت صحوة لروحي

وها أنتِ تظهرين مجدداً

كطيف عابر.

كآية الجمال الصافي

وعاد الفؤاد يخفق نشواناً

وبعثت فيه مجدداً

العبادة، والإلهام

والحياة، والدموع، والهوى.

١٨٢٥

## المربية

يا رفيقة أيامي الكالحة  
ايتها الحبيبة المتهدمة!  
وحيدة في وحشة غابات الصنوبر  
تنتظرين منذ أمد بعيد بعيد.  
وعند نافذة غرفتك المضيئة  
تكتسبين من ثقل الوقت كما لو كنت في الحراسة،  
تتباطأ الصنارة لبرهة.  
في يديك المجمعدين  
وتنظرين إلى البوابة غير المطروقة  
وإلى الدرب البعيد الأسود،  
فيضيق صدرك دائماً،  
بالكآبة والنبوءات والاهتمام  
أو يخيل إليك...

## اعتراف

أهواك - ولو جن جنوني،  
إنه لمسلك عابث مخجل،  
وأعترف عند قدميك  
بهذا الغباء النكد!  
إنه لا يليق بي ولا بعمرى...  
فقد أزف زمن التعقل!  
لكن كل الأمارات تشير  
إلى سقام الحب في فؤادي  
بدونك أسأم وأتئاب.  
بحضورك اكتئب وأتجالد،  
أتمنى أن أقول، لكن لا طاقة لدي،  
كم أهواك، يا ملاكي!  
عندما أسمع من صالة الضيوف  
خطواتك الخفيفة ووشوشة فستانك،  
أفقد بغتة صوابي.  
إذا ابتسمت - فرحتُ،  
وإذا أشحت بوجهك - حزنتُ،  
حسبي يدك الشاحبة

هبة ليوم من العذاب .  
عندما تجلسين بثبات ،  
وتشئين متهاونة على طارة التطريز  
وتسرحين بطرفك وترسلين شعرك المجعد ،  
أتمتع بالرنو إليك  
متأثراً صامتاً كما أرنو إلى طفلة! ...  
أأبئك همي  
عندما أتجول أحياناً في يوم ماطر  
وتذهبين بعيداً؟  
أأتحدث عن عبراتك وأنت وحيدة ،  
وكلامنا في ركن الصالة  
وتطوافنا في أوبوتشكا  
وألحان البيانو في المساء...  
أولينا! آسفي علي  
لا أتجراً على نشدان حبك  
لعل ذنوبي  
لا تجعلني جديراً بحبك يا ملاكي!  
لكن تظاهري بحبي! فنظرة منك  
قادرة على التعبير الرائع عن كل شيء!  
أه، ليست صعبة مخادعتي  
وأنا جذل بالمخادعة!

## النبي

برحنا الظماً الروحي،  
وأنا أمضي في الصحراء القاتمة،  
ها هو الملاك ساوفيم بأجنحته الستة  
طلع عليّ في مفترق الطريق،  
ولمس مقلتي  
بأنامل رخوة كالحلم:  
فانفتحت مقلتي المتكهنتان  
كعيني حدأة وجلة.  
لمس أذني،  
فامتلاًتا ضجيجاً ورنيناً:  
سمعت ارتعاشات السماء،  
وطيران الملائكة في الأعالي،  
والزواحف البحرية في حركتها المائية،  
وهفيف الأعناب النامية في الوهاد.  
انحنى عليّ شفاهي  
واجتث لساني الأثيم  
المهذار الماكر،  
ودس بيمناه الدامية

لسان الحية الحكيمة  
في فمي المتخدر.  
شجّ صدري بسيفه،  
انتزع قلبي الراعش،  
وغمد جمرة متوهجة  
في جوف صدري.  
ارتميت كالجثة في البداء  
ودعاني صوت الرب:  
«أفق ايها النبي أبصر وأصغ،  
نفذ إرادتي،  
جب البحار واليابسة.  
وأشعل بكلماتك قلوب الناس»

١٨٢٦

## الشاعر

ما دام أبولو<sup>(٢٨)</sup> لا يستحث الشاعر  
على التضحية المقدسة،  
فسيظل خائراً مستغرقاً  
في الاهتمامات الدنيوية،  
وتصمت قيثارته القدسية،  
وتتوارى روحه في سبات شتوي،  
ولربما يصبح بين أبناء العالم التافهين  
أكثرهم تفاهة.

لكن ما تكاد تطرق الكلمات السماوية  
سمعه المرهف،  
حتى تنتفض روح الشاعر  
كعقاب متيقظ.

تمضه الكآبة بين مسرات الحياة،  
غريبة عليه أقاويل الناس،  
لا يحني هامه الفخور  
عند أقدام معبود الشعب،  
ويلوذ بالفرار، وحشاً متجهماً

---

٢٨. أبولو - إله الشعر والفن عند الإغريق

مفعماً بالأصوات والاضطراب،  
إلى شواطئ الأمواج المهجورة،  
إلى الغابات الرحبة الصداحة...

١٨٢٧

## الطّلسم

هناك، حيث يتماوج البحر  
على الصخور المهجورة،  
ويتألق القمر ألقاً دافئاً  
في سويعة حلوة من دجى الليل،  
حيث يقضي المسلم أيامه  
بالمتمعة بين الحرّيم،  
هناك داعبتني ساحرة  
وسلمتني الطّلسم.  
قالت ملاطفة:  
«خذ هذا الطّلسم.  
قالت ملاطفة:  
ففيه قوة مبهمة!  
تهبك الحب.  
لن ينقذ طلسمي  
رأسك يا حبيبي  
من الأسقام والموت،  
من العواصف والزوابع الهوج.

لن يهدي إليك  
ثروات الشرق،  
ولن يخضع لإرادتك  
أنصار النبي،  
ولن يحملك طلسمي  
إلى أحضان صديق،  
من بلاد الغربية الكثيبة،  
من الجنوب إلى وطنك في الشمال...

لكن عندما تسحرك  
فجأة العيون الغادرة،  
أو تقبلك شفاه غير محبة  
في ظلام الليل -  
حينئذ يا صديقي العزيز:  
سيحفظك طلسمي!  
من الجريمة والجروح الروحية الجديدة  
من الخيانة والسلوان».

١٨٢٧

## شجرة الأوباس

في الفلاة الداوية القاحلة،  
في الأرض المتوقدة حرارة،  
تتنصب شجرة الأوباس كحارس رهيب،  
وحيدة في كل المعمورة.  
ولدتها طبيعة الشهب الظامئة  
في يوم غضب،  
وأمدت أغصانها الميتة بالخضار،  
وأشبعت جذورها سموماً  
السم يقطر من قشرتها،  
وتتضرم من القيظ حتى الظهيرة،  
وتبرد عند المساء متحولة  
إلى قطران كثيف شفاف.  
لا يدنو الطير منها  
ولا يذهب النمر نحوها، الزوابع السود وحدها  
تسف على شجرة الموت،  
وتدبر مسرعة، تاركة الوباء.  
وإذا سقت غيمة شاردة  
أوراقها الكثيفة،  
هطل مطر مسموم من أغصانها

على الرمال الملتهبة.  
لكن امرءاً أرسل إنساناً حدج  
شجرة الأوباس بنظرة آمرة،  
سار مستكيناً في طريقه  
وعاد مع الصباح بالسم،  
حمل القطران المमित  
ومعه غصن من الأوراق الداوية،  
هطل العرق على الجبين الشاحب  
جداول باردة.  
حملة، فأصابه الوهن واستلقى  
على صفيحة تحت سقف الخيمة،  
مات العبد البائس عند أقدام  
المالك الذي لا يقهر.  
أغمد الأمير سهامه الطيبة  
في ذلك السم،  
وبعث معها الموت  
إلى الجيران في البلاد الأجنبية.

١٨٢٨

أحبتك: لعل الهوى لم يخب  
بعد في روعي خبواً تاماً،  
لكن دعك من القلق عليه  
فأنا لا أريد أن تجزعي،  
أحبتك حباً صامتاً خائباً.  
بيرحني الحياء أو الغيرة

أحببتك حباً صادقاً رقيقاً  
ليباركك الرب حبيبة امرئ آخر.

١٨٢٩

حطت عتمة الليل على ربوات جورجيا،  
ها هو أراغفا<sup>(٢٩)</sup> يهدر أمامي.  
احس بالحزن والراحة، يا له من حزن مضيء،  
حزن مترع بذاته،  
بذاته، بذاته فحسب... لا شيء  
يعذب أشجاني أو يقلقها،  
وقلبي يلتهب مرة أخرى ويهوى لأنه  
ليس بمقدوره ألا يهوى

١٨٢٩

عندما أطوف على امتداد الشوارع الصاخبة،  
عندما أدخل المعابد المزدهمة،  
أو أجلس مع الصبية الطائشين.  
فإنني أستسلم لأحلامي.  
أقول: ستمضي السنون،  
ويتوارى كثير منا.  
نثوي كلنا تحت القبة الخالدة،  
ورُبَّ امرئ قد دنت ساعته.  
إذا تطلعت إلى شجرة البلوط المنفردة،  
أفكر: ان بطريك الغابة

٢٩. نهر في جورجيا.

سيعاصر سنواتي اللاهية  
كما عاصر أعوام آبائي.  
إذا لاطفت رضيعاً حبيباً،  
فسرعان ما أقول؛ اعذرني  
اتنحى لك عن المكان  
لقد أزف الوقت لأموت وتفتح أنت.  
طول النهار، طوال الوقت  
اعتدت على ملازمة التفكير  
في ساعة المنية القادمة  
محاولاً حدسها.  
أين تبعث الأقدار الردى إلي؟  
في المعارك أو الأسفار أو البحار،  
أم أن الوهدة القريبة  
هي فأل رفاقي الباردة؟  
ومع أن الجسد الهامد  
لا يهمله أين يفنى،  
لكنني أريد الرقاد  
قرب ضيعتي الحبيبة  
ولتصدح حياة غضة بألحانها  
عند مدخل لحدي،  
ولتألق الطبيعة اللامبالية  
بحسنها الخالد.

## الشياطين

السحب تندفع، السحب تُدوم،

والقمر المختبئ

ينير الثلوج الهائمة،

السماء معتمة والليل داج؛

أسير وأسير في الحقل الطلق،

والجرس الصغير يدندن، دن، دن، دن... دن...

وتلفني الرهبة رغماً عني

بين السهول المجهولة!

«أسرع أيها الحوذي!...» - لا أستطيع:

الخييل مرهقة أيها السيد،

العاصفة الثلجية تعمي نواظري،

لقد غطت الطريق.

اقتلني إذا شئت، لكنني لن أجد أثراً،

لقد تهنا. ما العمل!

يبدو أن شيطاناً يقودنا في الحقل،

ويدور بنا جانبياً.

انظر: ها هو ذا يلعب،  
يعصف ويبصق علينا،  
ها هو ذا- يدفعنا نحو الوادي  
لقد جنت الخيل،  
ثمة معلم لا نظير له  
يتراءى أمامي،  
لقد سطع كشرارة صغيرة  
ثم احتوته الدياجير الموحشة.  
السحب تندفع، السحب تدوم،  
والقمر المختبئ  
ينير الثلوج الهائمة  
السماء معتمة والليل داج،  
لقد خارت قوانا من الدوران،  
صمت الجرس بغتة،  
وتوقفت الخيل... «ماذا هناك في الحقل؟»  
- «من يدري، جذع شجرة أم ذئب؟»  
العاصفة تغضب، العاصفة تنحب.  
والخيل المرهفة تشخر،  
ها هو الآن يثب بعيداً  
تلتهب فقط عيونه في الظلام،  
الخيل تخب مجدداً،  
والجرس الصغير يدندن، دن، دن، دن...  
أرى: الأرواح الشريرة تتجمع  
في السهول البيضاء.

شياطين متباينة،  
دميمة لا تحصي،  
تدور تحت البدر الشاحب،  
كأوراق تشرين الثاني...  
ما عددهم ! وإلى اين يساقون؟  
لماذا يغنون غناء شجياً؟  
هل يدفنون جنياً؟  
أم يحتفلون بزواج ساحرة؟  
السحب تندفع، السحب تُدوم  
القمر المختبيء  
ينير الثلوج الهائمة  
السماء معتمة والليل داج،  
الشياطين تهرع سرباً في إثر سرب  
في الأعالي اللامتناهية،  
ممزقة فؤادي  
بصراخها وعويلها الحزين...

١٨٣٠

من أجل شواطئ الوطن البعيد  
تركت البلاد الأجنبية،  
وفي ساعة حزن خالدة.  
بكيث طويلاً أمامك.  
يدي الباردتان حاولتا  
الإمساك بك،

وتضرعت آهاتي إليك ألا تنهي  
عذابات الفراق الرهيب.

لكنك انتزعت شفاهك  
من القبلة المرة،  
ودعيتني من دنيا المنفى القاتمة  
إلى بلاد أخرى.  
وقلت: «في يوم اللقاء،  
تحت السماء ذات الزرقة الأبدية  
وفي ظل الزيتون سنتلاصق  
مجدداً يا صديقي في قبلة حب».

لكن هناك، وأسفاه، حيث تتألق  
قبة السماء في شعاع أزرق،  
وحيث يترامى ظل الزيتون على الماء  
غفوت الغفوة الأخيرة.  
توارى حسنك وألمك  
في القبر،  
لكن قبلة اللقاء الحلوة  
سأنتظرها، إنها دَيْن في عنقك.

١٨٣٠

## المرثاة

يا أفراح أعوام الطيش الخائبة،  
أشعر بالثقل مثل خمار مضطرب.  
وكآبة الأيام الماضية، مثلها مثل النيذ  
في روعي، كلما عتقت زادت قوة.  
إن دربي كئيب. بحر المستقبل المائر  
يعدني بالعناء والأحزان.  
لكني لا أريد، آه أيها الصديق، المنية.  
أريد أن احيا وأفكر وأعاني،  
وأتنبأ في الظفر بالمتعة  
بين الشجن والهموم والقلق:  
طوراً يغمرني الوثام،  
وأسكب العبرات على الأخيلة،  
لعل ابتسامة الهوى الوداعية  
تتألق عند أفولي الحزين.

١٨٣٠

## الخريف

(مقطوعة)

هل بقي شيء لم يراود ذهني

الوسنان حينئذ؟

دير جافين

- ١ -

حل تشرين الأول، والغابة تنفض  
الأوراق الأخيرة عن أفنانها المتعرية،  
تنفس برد الخريف، وباتت الشوارع تتجمد،  
الجدول ما زال يتدفق خلف الطاحونة،  
بيد أن البحيرة تجمدت، وجاري يتعجل  
الذهاب إلى حقل الصيد  
تُعرض المسرات العنيفة<sup>(٣٠)</sup> المزروعات للتلف،  
يوقظ نباح الكلاب غابة البلوط الوسنى.

---

٣٠. يعني من كثرة دعس حيوانات الصيد عليها

ها هو الفصل المحبب لديّ، فأنا لا أحب الربيع،  
يفجرني ذوبان الثلج ومنتنه ووحوله - الربيع يجعلني عليلاً،  
الدماء تتهيج، الكآبة تمسك بأحاسيسي ولبي،  
الشتاء الصارم مرض لروحي.  
أهوى ثلوجه وجريان الزلافة الرشيق السريع الطليق  
تحت ضوء القمر، وأنت في صحبة صديقة  
دافئة مشرقة بفرو السمور  
تضغط متوقدة مرتعشة على يدك!

يا للسمرات، عندما تقف قدماك فوق الحديد القاطع،  
وأنت تنزلق على وجه النهر الزجاجي المستوي الثابت<sup>(٣١)</sup>!  
وماذا عن الإثارة المتألقة لأعياد الشتاء؟..  
لكن ثمة تخوم معروفة، فالثلوج تتساقط نصف عام،  
وحتى الدب القاطن في وجاره يصيبه  
الملل أخيراً. لا يمكنك دائماً وأبداً  
التزحلق في الزلافة مع أرميديا<sup>(٣٢)</sup> الشابة،  
أو الركود عند الموقد خلف النافذة المزدوجة الزجاج.

إيه، أيها الصيف الجميل! كنتُ شغوفاً بك،

٣١. في الشتاء تتجمد مياه الأنهار في روسيا ويتزحلق الناس أو يتمشون عليها.

٣٢. الساحرة الحسناء في كتاب «القدس المحررة» لتاسو.

لولا القيظ والغبار والبعوض والذباب.  
إنك تحيق بطاقتنا الروحية،  
وتعذبنا، إننا نخشى الجفاف، كالحقول،  
ولا نفكر إلا في إرواء ظمئنا وإنعاش أنفسنا-  
لا أفكار أخرى تخامرنا، فنأسف على الشتاء العجوز.  
الذي ودعناه بالفطائر والنيذ،  
ونقدم الآن في وليمة الجنائزية المثلجات والبوظة<sup>(٣٣)</sup>.

-٥-

تلاحق اللعنات أواخر أيام الخريف عادة،  
لكنه حبيب إلي أيها القارئ،  
بحسنه الهادئ وألقه المتواضع.  
إنه يجذبني كطفلة منبوذة  
في أسرتها. أقول لك بصراحة،  
أحب الخريف فحسب، دون فصول السنة.  
ففيه خير كثير، وأنا العاشق المتواضع  
وجد خيالي الغريب نكهة خاصة فيه.

-٦-

كيف أجلو ذلك؟ إنني أهواه،  
ولربما، كما تعجب أحياناً  
بعذراء مسلوسة. الموت حتفها،  
المسكينة تنحني بلاغممة أو غضب.

٣٣. الدوندرمة.

تلوح الابتسامة على ثغرها الداوي  
دون أن تلاحظ هوة اللحد المتثابثة.  
ثمة لون أرجواني ما زال يومض على محياها،  
ما زالت اليوم حية ترزق أما غداً فستتوارى.

-٧-

أيها الفصل الشجي! ويا سحر العيون!  
يسرني حسنك الوداعي -  
أنا أهوى ذبول الطبيعة البهي  
والغابات المكسورة نضاراً وأرجواناً،  
فوق هاماتها صخب الريح وأنفاس رَيَّانة،  
واشعة الشمس الخفيفة والصقيع المبكر  
والوعيد النائي يطلقه الشتاء الأشيب.

-٨-

إنني أتفتح مع كل خريف،  
البرد الروسي مفيد لصحتي.  
الحب يخالجنني مجدداً نحو الحياة المألوفة.  
يحتويني النعاس تارة والطوى تارة أخرى.  
تجري الدماء في الفؤاد خفيفة هنية  
الأمانى تغلي - وأنا سعيد، يافع من جديد،  
زاخر بالحياة مرة أخرى - هذا هو تكويني  
(أرجو المعذرة على هذا التعبير النثري غير الضروري).

-٩-

يجلبون لي جواداً، يحمل الفارس  
في السهول الفسيحة، محرّكاً عنقه،  
وترن تحت حوافره اللامعة  
في الوديان الثلجية ويطقطق الجليد.  
ها هو النهار القصير يتوارى، وفي الموقد المنسي  
تشتعل النار مجدداً- ملتهبة بسطوع طوراً،  
متوانية طوراً آخر، وأنا أقرأ امامها،  
أو تهدهد روعي فكر متروية.

-١٠-

أسلو الدنيا- وفي السكينة الحلوة  
تخامرني أخيلة جميلة،  
ويستيقظ الشعر في داخلي:  
تجيش روعي بالإثارة الغنائية،  
إنها ترتعش، ترجع الصدى وتتحرى كأنها في حلم،  
تفيض أخيراً بتعابير طليقة-  
عندئذ يتجه إلى حشد من الضيوف غير المرئيين،  
معارفي القدامى، ومخلوقات خيالي.

-١١-

توهج الأفكار مقدامة في ذهني،  
وتهرع القوافي خفيفة للقائهم،  
وتمسك أنا ملي باليراع واليراع بالورق،

-٢٠٨-

لحظة- وإذا الأشعار تتدفق طليقة.  
وهكذا ترقد السفينة الثاوية في المياه الساكنة،  
لكن أضغ- بغتة يتواثب البحارة ويدبون  
صعوداً ونزولاً- فيمتلئ المركب هواء،  
وتتحرك الكتلة الضخمة تضج الأمواج.

- ١٢ -

إنه يبحر إلى أين سنبحر؟ .....

.....

١٨٣٣

أزفت الساعة يا صديقي أزفت! فالقلب يروم الهدوء.  
الأيام تفر مدبرة، وكل ساعة تأخذ معها  
شذرة من حياتنا، وأنا وأنت سَوِيَّة  
نخطط للعيش... في نفس لحظة موتنا، كما ترى.  
لا هناء على الأرض، لكن هناك الطمأنينة والحرية.  
منذ زمن بعيد وأنا أحلم بالمصير المنشود،  
منذ زمن بعيد أزمعت، أنا العبد المتعب، على الهرب  
إلى مشوى العمل والأفراح الصافية النائية.

١٨٣٤

ظننت أن الفؤاد فقد  
القدرة على المعاناة الهينة،  
وقلت: ما كان،  
لن يكون أبداً لن يكون!  
مضت المسرات والأحزان،

والأحلام الساذجة...  
وها هو يخفق مجدداً  
أمام جبروت سلطة الجمال

١٨٣٥

..... ها أنا ذا أزور مجدداً<sup>(٣٤)</sup>.  
تلك الزاوية من الأرض، حيث قضيت  
منفياً سنتين دون أن أشعر بهما.  
مضت عشرة أعوام منذ ذلك الحين - كثير  
من الأشياء تغيرت في حياتي،  
وتبدلت أنا، نزولاً  
عند الأعراف العامة - لكن هنا من جديد  
يمتد الماضي أمامي حياً،  
ويبدو لي، أنني أتجول مساء  
في هذه الغابات  
ها هو البيت الريفي،  
حيث عشت مع مربيتي المسكينة  
لقد ماتت العجوز - ولا أسمع خلف  
الجدار خطواتها الثقيلة،  
ولا تطوافها الدؤوب.

ها هو تل الأحراش الكثيفة، الذي جلست  
غالباً فوقه بلا حراك - ونظرت

٣٤. قضى بوشكين ١٨٢٤ - ١٨٢٦ منفياً في ضيعة ميخائيلو فسكيه، ونظم هذه  
القصيدة عندما زارها ثانية عام ١٨٣٥.

إلى البحيرة، متذكراً والكآبة تلفني،  
الشواطئ الأخرى، والأمواج الأخرى...  
البحيرة تزرق وتمتد رحبة  
بين الحقول الذهبية والمروج الخضراء.  
وعبر مياهها الخفية  
يعوم الصياد ساحباً وراءه  
شبكة المهترئة. القرى تتبعثر  
على الشواطئ المنحدرة- وخلفها  
تلوى طاحونة، محرك أجنحتها  
بصعوبة مع الريح...  
وعلى التخوم  
تمتد ضياع الأجداد، في ذلك المكان  
حيث يرتفع طريق في الجبل  
خددته الأمطار، وتتنصب  
ثلاث صنوبرات- إحداهن بعيدة، والأخريان  
متقاربتان من بعضهما- هنا عندما مرت  
بجانبهن ممتطياً جوادي تحت ضوء القمر،  
حيثني وشوشة أعاليهن، بذلك اللغظ  
المألوف لدي. سرت الآن في  
الدرب نفسه ورأيتهن أمامي  
مرة ثانية. ما زلن على حالتهم  
وما برح مسموعاً ذلك اللغظ المألوف،  
لكن حول جذورهن القديمة  
(التي كانت خالية وعارية حينئذ)

نمت الآن غابة فتية،  
أسرة خضراء، تتزاحم الشجيرات  
تحت ظلالها كالأطفال. وبعيداً  
يقف متجهماً رفيقهم الوحيد،  
مثل أعزب كبير، وكل ما حوله  
خاوٍ كالسابق  
سلام، أيتها القبيلة  
الغضة الغربية علي! لست  
من يراك نامية قوية في وقت لاحق،  
عندما يربو طولك على معارفي  
وتحجيني هاماتهم المسنة  
عن نواظر العابرين. لكن دعي حفيدي  
يسمع ضجيجك البشوش، وهو  
عائد يتحدث مع أترابه.  
مفعم بالأفكار الفرحة الحلوة،  
سيمر قربك في دجى الليل  
ويذكرني.

١٨٣٥

## ذكريات

عندما يخمد لدى الميت صخب النهار،  
وتحط على المدينة الرحبة الخرساء  
ظلال الليل الشفافة قليلاً،  
والكرى، هبة التعب اليومي  
حينئذ تهبط علي في السكون  
ساعات السهاد المضمنية:  
في الليل الهاجع يلتهب في أعماقي  
بشدة، ندم عاطفي أشبه بوخزة الأفعى،  
الأحلام تتأجج، ومن ذهني المثقل بالكآبة  
يسجن فيض من الفكر الخطيرة.  
الذكريات تبسط أمامي صامته  
لفائفها الطويلة.  
أطالع بتأفف كتاب حياتي،  
انتفض مطلقاً اللعنات،  
وأتشكى بمرارة وأسكب العبرات حزيناً  
لكنني لا أمحو الأسطر الشجية.

## مختارات من نتاجاته الشعرية الأخرى

### مقطع من «روسلان ولودميلا»

عند شواطئ الخليج شجرة بلوط خضراء  
وعلى تلك الشجرة سلسلة ذهبية:  
هناك قطعة مروضة تدور  
ليلاً ونهاراً حول السلسلة،  
تسير يميناً- فتغني أغنية،  
تسير يساراً- فتقص الحكايات.

هناك الأعاجيب: هناك عفريت يطوف،  
وحورية تجلس على الأغصان  
وفي الدروب المجهولة،  
آثار خطى حيوانات غريبة.  
هناك ينتصب بيت ريفي على سيقان دجاجة،  
ينتصب دون نوافذ أو أبواب،  
هناك غابة ووادٍ زاخران بالأطياف،  
هناك تتدفق الأمواج في الفجر  
على الشاطئ الرملي المهجور،

ويخرج ثلاثون فارساً رائعاً  
بعضهم في إثر الآخر من المياه الصافية،  
وبصحبتهم مرشد البحر  
هناك يمر ابن الملك  
ليأسر القيصر الرهيب،  
هناك في الغمام وعلى مرأى الشعب  
وعبر الغابات والبحار  
يحمل ساحرٌ فارساً،  
هناك في السجن أميرة تتألم  
يخدمها ذئب بني بوفاء،  
هناك جرن فيه المرأة ياغاً<sup>(٣٥)</sup>  
تدور وتتجول وحدها،  
هناك القيصر كاشي<sup>(٣٦)</sup>، ينظر عليلًا إلى ذهبه،  
هناك روح ورسية... هناك شميم روسيا!  
وهناك كنت وشربت الميد<sup>(٣٧)</sup>  
ورأيت شجرة البلوط الأخضر عند البحر،  
جلست تحتها وأخذت القطة المروضة  
تقص عليّ الحكايات.  
أتذكر واحدة منها، وسأكشف الآن  
هذه القصة لترى النور...

١٨٢٠

٣٥. ساحرة شريرة يرد ذكرها كثيراً في الحكايات الشعبية

٣٦. شخص خبيث وثري في الفلوكلور الروسي.

٣٧. الميد- شراب حلو خفيف مخمر من العسل

منولوج بيمين من  
تراجيديا «بوريس غودونوف»

بيمين (يكتب على ضوء المصباح)

ثمة قصة أخيرة  
ويتهي سفر كتابتي،  
نفذت مشيئة الرب الموكل بها،  
أنا الآثم. ليس عبثاً أن جعلني الإله  
شاهداً على سنوات عديدة،  
وهداني إلى فن وضع الكتب،  
ستمضي السنون ويجد راهب مثابر  
كتبي الجدية المجهولة،  
فيشعل، كما فعلت أنا، مصباحه  
وينفض غبار العصور عن المخطوطات  
ويعيد كتابة القصص الحقيقية،  
معرفةً الأحفاد الارثوذكس  
بمصير وطنهم الماضي  
فيتذكرون قياصرتهم العظام،  
جهودهم وأمجادهم وأعمالهم الخيرة-

ويتضرعون للمنقذ خاشعين  
ليغفر لهم الخطايا وأعمال السوء  
أحيا مجدداً في شيخوختي  
ويمر الماضي أمامي -

هل انجرفت منذ زمن بعيد تلك الأحداث الحافلة  
المضطربة مثل بحر المحيط؟  
إنها صامته وهادئة الآن:  
ثمة كلمات زهيدة تحضرني،  
وانطوى الباقي دون عودة،  
لكن النهار يدنو، المصباح يخدم  
ثمة قصة أخيرة (يكتب).

١٨٢٥

## منولوج ساليري

من تراجيديا «موزارت وساليري»<sup>(٣٨)</sup>

الجميع يقولون: لا حقيقة على الأرض،  
لكن الحقيقة لا وجود لها في السموات أيضاً.  
واضح لدي هذا وضوح الظواهر المألوفة.

فطرت على حب الفن

وحينما كنت طفلاً دوتُ عالياً

ألحان الأرغن في كنيستنا القديمة،

أصغيت إليها وولعت بسماعها.

سالت دموع النسوة دون وعي مني

تركت مبكراً المسرات الوادعة،

أما المعارف، البعيدة عن الموسيقى فظلت

مقبلة إلي، ترفعت عنها

عناداً وكبرياء، ووهبت نفسي

للموسيقى وحدها. شاقة الخطوة الأولى

---

٣٨. انهم ساليري الموسيقار الايطالي بتسميم الموسيقار المشهور موزارت ممأ أدى إلى وفاته. اقدم ساليري على هذا العمل الذي اعترف به، كما يقال، وهو على فراش الموت - من شدة حسده لموزارت، ويتحدث ساليري في هذا المقطع المختار عن معاناته النفسية.

ومضجر مستهل الطريق. انجلت  
الغمرات المبكرة وأضحى  
الفن صنعتي،  
أمسيت حرفياً، أضحت  
لأناملي خفة طيعة طلقة  
ومنحتها أذنأ مرهفة. أهملت الألحان الرديئة  
وأحطت بالموسيقى كالإحاطة بتشريح جثة. آمنت  
بها رموني علم الجبر حينئذ  
أقدمت وأنا مخنك في العلم  
واستسلمت مغتبطاً للحلم الخلاق.  
طفقت أبداع، لكن في الصمت، في الخفاء  
لم أتجرأ بعد على التفكير بالشهرة.  
طالما مكثت في صومعتي الساكنة  
يومين أو ثلاثة، ناسياً النوم والطعام،  
متلذذاً بنعيم الإلهام ودموعه،  
أحرقت كتاباتي وتأملت جامداً  
التهاب الأفكار والألحان  
التي خلقتها وتوارى بها مع دخان خفيف.  
وأخيراً، بعد مثابرة دؤوبة مريرة  
بلغت في الفن اللامتناهي  
درجة سامية. ابتسم  
لي المجد. سمعت في قلوب الناس  
رنين الحاني.  
كنت سعيداً: تمتعت راضياً

بعملي ونجاحي ومجدي، وكذلك  
بأعمال ونجاحات خلاني -  
رفاقي في الفن الرائع.  
كلا! لم أعرف الحسد أبداً  
من يقول أن ساليري الفخور  
في حين ما، سيمسي حسوداً وضيعاً؟  
لا أحدا!... والآن - أقول أنا - أنا  
حاسد الآن. أحسده حسداً  
عميقاً معذباً. - آه أيتها السماء!  
أين عدالتك، ما دمت لا تمنحين الهبة المقدسة  
أو العبقرى الخالد، جزاءً  
للحب المتأجج ونكران الذات  
والعمل والمثابرة والعبادة.  
وإنما لإنارة عقل متهور،  
متسكع كسول؟.. آه.. موزارت، موزارت!

١٨٣٠

## حديث تاتيانا مع مربيتها

من رواية «يفغيني إينغين»

.... الألم المبرح يطارد تاتيانا،  
حزينة تسير في الجنيئة،  
خفضت فجأة طرفها الجامد  
ودب الخمول في خطواتها.  
علا صدرها، غمر  
وجتتها لهيب مباغت،  
وتباطأت أنفاسها بين شفيتها،  
ثمة ضجيج في سمعها وألق في عينيها...  
هبط الليل، القمر يطوف  
حارساً قبة السماء النائبة،  
البلبل في عتمة الأشجار  
يفرد أغاريد الصداحة.  
لكن تاتيانا لا تغفو في الظلام  
وإنما تتحدث همساً مع مربيتها:  
داده، أنا لا أنام، الجو خانق هنا  
«افتحي النافذة، واجلسي قربي»

- «ماذا، ما الخطب يا تانيا<sup>(٣٩)</sup>؟» - «انني ضجرة،

لنتحدث عن الأيام الخوالي».

«عمّ، يا تانيا! كانت

ذاكرتي تختزن غير قليل

من الأساطير والحكايات

عن الأرواح الشريرة والعذارى،

والآن يا تانيا كل شيء معتم:

ما كنت أعرفه وما نسيته على السواء. أجل، حلت حقبة عجفاء!

ووهنت ذاكرتي...» - «حدثيني يا دادة،

عن أيام شبابك:

ألم تعشقي آنذاك؟»

- «ماذا تقولين يا تانيا! في تلك العهود

لم نسمع بالعشق،

ولو حدث ذلك لكان الموت حتفي

علي يدي المرحومة زوجة أبي»

- «كيف تكلمت يا دادة؟»

- «هكذا، كما شاء الله، على ما يبدو. كان فانيا

يا حبيبتى أصغر مني،

كنت في الثلاثين من عمري.

ترددت الخاطبة على أسرتي

ما يناهز الأسبوعين، وأخيراً

باركني أبي.

بكيت فزعة بكاء مرأً

٣٩. تانيا تصغير تانيا

حَلُّوا جدائلي ناحبين  
وقادوني إلى الكنيسة مغنين.  
وهكذا سلموني لعائلة غريبة...  
انك لا تصغين اليّ...»  
- «آه يا دادة، يا دادة، إنني حزينة،  
أحس بالغيثان، يا عزيزتي:  
إنني أوشك على البكاء والنشيج!...»  
- يا طفلي، إنك متوعكة،  
رحماك يا رب، أنقذنا!  
اطلبي ما يطيب لله...  
دعيني أرش الماء المقدس عليك،  
انك تتوقدين...» - «كسْتُ عليلة:  
أنا... أتعرفين يا دادة... عاشقة».  
- «ليحفظك الرب يا عزيزتي!»  
ورسمت المربية علامة الصليب بيدها المعرورقة،  
مصلية للفتاة.

همست مرة أخرى للعجوز  
همساً موجعاً، «انني عاشقة»  
- «يا صديقتي العزيزة، انك متوعكة»  
- «دعيني وشأني : انني عاشقة»  
سطع القمر في هذه الأثناء  
وأضاء نوره الواهن  
جمال تاتيانا الشاحب،

وشعرها المرسل  
وقطرات الدموع، والدكة  
التي تجلس عليها العجوز في سترتها الدافئة،  
والمنديل فوق شعرها الأشيب،  
واسترخي الجميع في غمرة السكون  
تحت القمر الملمم.  
طوف قلب تاتيانا بعيداً  
وهي ترنو إلى القمر...  
جالت بغتة خاطرة في بالها...  
«امضي، اتركيني وحدي.  
هاتي يا دادة ريشة وورقة  
ادفعي المنضدة، ساضطجع حالاً،  
وداعاً» ها هي وحدها.  
يلفها السكون. القمر يضيء،  
اتكأت بمرفقيها وشرعت تاتيانا تكتب  
لم يشغل بالها سوى يفغيني،  
تنفس حب الصبية البريئة  
في الرسالة المتهورة.  
أعدت الرسالة وطوتها...  
لمن كتبتها يا تاتيانا.

١٨٢٣-١٨٣١

## مقطع من الفصل السابع

### رواية «يفغيني إينغين»

أشعة الربيع تطارد  
الثلوج في الجبال المتجاورة،  
وتجري نهيرات عكرة  
نحو المروج الغرقى.  
ابتسامة الطبيعة الصافية  
تلقى صباح السنة حالمة،  
والسماوات تسطع سطوعاً غامضاً.  
تبدو الغابات الرائقة  
مخضوضرة بالزغب.  
النحلة تعمل في الحقل.  
طائرة من خليتها الشمعية.  
الرهاد المتعبه تتلون،  
وأسراب القطعان تضج،  
والبلبل يشدو في الليالي الهاجعة.

\*\*\*

يا لها من إطلالة تبعث الحزن فيّ،  
الربيع، الربيع! ومواسم العشق!

ثمة اضطراب غامض  
يسري في روعي ودمي!  
يا لها من أحاسيس ثقيلة،  
حينما أتمتع بنسائم  
ينفحها الربيع على وجهي  
بين أحضان الريف الصامت!  
هل المتعة غريبة علي  
أم إن كل ما يفرح وينعش،  
كل ما يبهج ويتألق  
يبعث السأم والتعب  
في الفؤاد المائت منذ أمد بعيد  
وكل شيء يبدو داجياً عنده؟

\*\*\*

لماذا لا تفرحنا عودة  
الأوراق الميتة في الخريف،  
الأنها تذكرنا بالضياح المر،  
عندما نسمع ضجيج الغابات من جديد؟  
أم أن الطبيعة المتوهجة  
تقرب الأفكار المضطربة  
عن ذبول العمر  
الذي لن يبعث مجدداً.  
لعل ربيعاً آخر قد مضى  
يعود كفكرة إلينا  
إبان المجموع الشعري

ويحمل مع خفقات القلب  
أحلاماً عن الأصقاع البعيدة  
عن الليالي الرائعة والقمر... (...)

١٨٢٣-١٨٣١

## مدخل إلى «الفارس البرونزي» (٤٠)

عند شواطئ الأمواج المهجورة  
وقف هو، مملوءاً بالفكر السامية،  
وَرَنًا بعيداً. أمامه  
يتدفق مجرى النهر، والزورق البائس  
الوحيد يتحرك مسرعاً.  
على الضفاف الغارقة المكسوة بالطحلب  
والبيوت الريفية المسودة المبعثرة هنا وهناك  
مأوى لفلنلندي مسكين،  
الغابة المحتجة عن شعاع  
الشمس المدثرة بالضباب  
ضجت برمتها  
وفكر هو:

«من هنا سنهدد السويديين  
ونشيد مدينة في هذا المكان  
رغم أنف الجار المتغطرس،  
الطبيعة اختارت لنا المكان،

٤٠. يتحدث عن مدينة بطرسبورغ التي شيدها القيصر بطرس الأكبر على بحر البلطيق وجعلها عاصمة بلاده وثغراً رئيسياً من ثغور البلاد.

سنتفح نافذة على أوروبا،  
ونضع قدماً راسخة في البحر،  
وتزورنا السفن براياتها المتباينة  
هنا في المياه الجديدة عليها،  
ونفرد بالمدى الرحب».

مضت مئة عام والمدينة الفتية ما برحت  
حسن البلاد الشمالية وأعجوبتها،  
من الغابات المظلمة والمستنقعات  
نهضت بهية جليلة.

في الماضي كان الصياد الفنلندي،  
ريب الطبيعة الكثيب  
وحيداً عند أقدام الشواطئ المنخفضة  
يرمي في المياه المجهولة  
شباكه البالية، بينما الآن هناك  
على الضفاف المنتعشة،  
تزدحم بنايات شاهقة  
قصور وأبراج، وحشر السفن  
القادمة من أرجاء المعمورة  
قاصدة المرافئ الثرية.

اكتسى النيفا<sup>(٤١)</sup> بالغرانيت،  
امتدت الجسور فوق المياه  
وغطت جزرها  
الرياض الداكنة الخضرة،

٤١. نهر في مدينة بطرسبورغ (ليننغراد حالياً)

بهتت موسكو القديمة  
أمام العاصمة الفتية،  
كأرملة في رداء أرجواني  
مقابل إمراطورة جديدة.  
أهواك يا مخلوقة بطرس،  
أهوى طلعتك الجليلة المهندمة،

ومجرى النيفا العظيم،  
وضفافه الغرائبية،  
وأسوارك ذات الزخارف الحديدية،  
ولياليك الموحية بالتأملات،  
والغسق الشفاف واللمعان بلا قمر،  
عندئذ أكتب في غرفتي  
وأقرأ دون قنديل

الأبنية الضخمة الغافية  
على الشوارع الخالية،  
والبرج الأميرالي المستدق المضيء  
وفجر يتلوه فجر،  
مسرعاً ليهب الليل نصف ساعة  
عائقاً عتمته

في السموات الذهبية.  
أهوى شتاءك الصارم،  
وهواءك الجاثم وجليدك،

وعدو الزلاقات على امتداد النيفا العريض،  
ووجوه العذارى الأزهى من الورود،  
وبريق حفلات البال وصخبها وأصواتها الهامسة،  
أهوى في سويعات ولائم العزاب،  
هسهسة زبد الأقداح  
ولهيب البونش<sup>(٤٢)</sup> الأزرق،  
أحب الحماسة الحربية في ميادين مارس<sup>(٤٣)</sup> الضاحكة  
وجمال البدلات المتنوعة  
للمشاة والفرسان،  
المنتظمين في صفوف متموجة،  
وأعلام النصر القديمة  
ولمعان الخوذ البرونزية  
وقد تخرمت في هجير المعمعة.  
أحب العاصمة بروحها العسكرية  
ودخان قلاعها ودوي بناقها،  
عندما تقدم القيصرة الشمالية  
الابن إلى القصر الإمبراطوري،  
وحينما تحتفل روسيا مجدداً  
بالانتصار على الأعداء،  
وعندما تهشم النيفا  
ثلجه الأزرق ويحمله إلى البحر.  
ويتهج بنضارة أيام الربيع.

٤٢. شراب كحولي مسكر.

٤٣. إله الحرب في الأساطير اليونانية.

تجملي يا مدينة بطرس وقفي  
راسخة مثل روسيا!  
لعل الشدائد  
تتهادن معك أيضاً  
وتجرف الأمواج الفنلندية  
روح البغضاء والأسر الماضية،  
فلا تقلق الأحقاد العابثة  
شمس بطرس الأزلية!

١٨٣٣

## يفغيني باراتينسكي

EVGENY BARATYNSKY

(١٨٤٤-١٨٠٠)

- ترعرع في أسرة من عوائل النبلاء المثقفة في محافظة تامبوف.
- بدأ دراسته في بطرسبورغ عام ١٨١٢ في مدرسة أهلية ثم انتقل إلى معهد عسكري.
- فصل عام ١٨١٦ من المعهد بأمر من القيصر، بسبب تصرف صبياني صدر منه، مع منعه من العمل في السلك المدني وإجباره على الخدمة في الجيش جندياً اعتيادياً ليس غير، مما ترك أماً عميقاً في نفسه.
- ترك العمل عام ١٨٢٦ وانتقل للعيش في موسكو وتعمقت نظراته المأساوية للحياة بعد قمع انتفاضة الديسمبريين.
- سافر إلى الخارج والتقى في السنة الأخيرة من حياته بعدد من الشباب المهاجرين الثوريين ومنهم الشاعر أغاريوف الذي أثر في أفكاره ومشاعره.

## مصيران

خيّرت العناية الإلهية  
الحكمة البشرية بين نهجين:  
إما الأمل والاضطراب  
وإما القنوط والدعة  
ثق بتلك الأمانى البراقة  
المنعشة للألباب غير المجربة  
العارفة بسخرية الأقدار  
من الأراجيف المتباينة حسب.  
لتمنيكم نفوسكم أيها الشباب المتوقد!  
حلقوا، فقد وهبتم أجنحة،  
فلكم العزم اللامع  
وأحلام الفؤاد الملتهبة!  
ها أنتم اخترتم مصير الإنسان،  
وعبث الأفراح، وقوة الأحزان،  
واستقيتم معرفة الحياة  
من أقداركم الشجية!  
شتتوا ذلك السرب الفاتن،  
أجل! عيشوا بقية حياتكم بهدوء،

حافظوا على البرودة المصونة  
في أرواحكم الراكدة.  
إن أحاسيسكم الغافية الهائنة  
كجثة هامدة أيقظتها  
كلمات ساحر فنهضت

من التابوت صارة على أسنانها،-  
وهكذا، فلتكن الأمانى دافئة في نفوسكم،  
وإذا استكنتم متهورين لغدرها  
فلن تستيقظوا إلا للمعاناة  
ولألم جديد تثيره الجروح العميقة.

١٨٢٣

## الهوى

نرشف مع الهوى سموماً حلوة،  
لكننا نتجرع كل السموم فيه،  
وندفع لقاء سرور قصير  
أياماً طويلة نكدة.  
نار الحب - نار منعشة  
الكل يرددون ذلك، لكن ماذا نرى؟  
إنها تطفئ وتحطم  
الروح التي تحتويها!  
من يخمد، أيها الهوى، ذكريات  
أيام الهناء والأحزان  
وأيامك الرائعة؟  
عندئذ أعود للأفراح  
ولأحلام الشباب المتفتح الذهبية  
وأكشف لك روعي من جديد.

## فراق

افترقنا في لحظة رائعة  
لحظة قصيرة، كانت كل حياتي،  
لن أجلو هيامي بالكلمات  
ولن أتففس أنفاس الحب!  
امتلكت كل شيء وفقدته بغتة،  
ما إن بدأ الحلم... حتى توارى المنام!  
ولم تبق من سعادتني الآن  
سوى حيرة موجهة.

١٨٢٠

## غممة

أزفَ، أزفَ يوم اللقاء  
وسأراك أنت، يا صديقي!  
خبرني: لماذا لا يخفق  
صدري بفرحة اللقاء؟  
لست من يتذكر، لكن لعل أيام الأحزان  
تأذت في سيرها.  
كثيباً أنظر إلى الأفراح  
فشاعها ليس لي،  
عبثاً أوقف التراخي  
في روعي العليلة.  
لا أتمتع متعة كاملة  
بابتسامة المصير الباشه:  
كل شيء وهم، وأنا سعيد بالوهم،  
أما الافراح فلا تلائمني!

١٨٢٠

## الشلال

اصخب، اصخب من قمتك المنحدرة  
لا تصمت أيها التيار الأشيب!  
ضم صرختك المتواصلة  
مع صدى الوحدة المترامي.  
إنني أسمع: الريح الشمالية الشرقية تعصف،  
وتهز شجرة الشوح المصلصلة،  
ومع جلبة الجو الماطر  
يتجاوب هديرك المتمرد،  
لماذا أصغي اليك  
بانظار متلهف؟  
لماذا يخفق صدري  
خفقان نبیة؟

أقف كالمبهور  
فوق هاويتك الداخنة،  
وأخيل حديثك  
الصامت الذي يعيه الفؤاد.

اصخب، اصخب من قمتك المنحدرة  
لا تصمت أيها التيار الأشيب،

ضم صرختك المتواصلة  
مع صدى الوهدة المترامي.

١٨٢١

أهواك يا آلهة الغناء،  
لكن وقعك السحري  
وارتعاش الإلهام الحلو  
نبوءة لعوادي الحياة.

حب ربات الشعر وعداوة الأقدار  
متماثلة. الزم الصمت! أخشى  
أن توقظ أناملي  
الممسكة بالأوتار، مجدداً تلك الرزايا  
التي يغفو قدرتي بين ثناياها  
أتمزق، مغموراً بالعذاب،  
من ربة الشعر، العطوف عليّ  
وأقول: إلى الغد أيتها الأنغام  
دعي النهار يخبو سنانه بهدوء

١٨٤٤

## إلى المقلدين

حينما يمسي الحزن ملهماً  
يغني الشاعر أحزانه،  
قل لي: أيها اللحن الحبيب  
أي فؤاد لا يخفق بك؟  
من هو ذلك المستهدف للجنة دائمة  
يتجرأ على السخرية من أغنية آلامه،  
لكن الجميع فاترون إزاء التكلف،  
إن بكاء التقليد مكدر،  
والنواح المتكلف مضحك!  
الأحلام المتوترة  
لا تدفع بسناها اللطيف،  
الشاعر عندما تتأجج روحه  
ويدرك أسرار الآلام.  
في صراعه مع القدر الصلد،  
عرف مقدار القوى السماوية،  
تعلم التعبير عنها  
لقاء عذابات فؤاده.  
والآن تحيط وجه الشاعر

أشعة لا تخبو،  
وتمجده أقوام الأرض  
كشهيد.  
لكن آلهة شعرك الماكرة،  
الحالمة بإيقاظ شاعر القلوب  
بالسوداوية المتطفلة  
أشبه بامرأة بائسة فاجرة،  
تتضرع طالبة هبات محرمة  
حاملة طفل غيرها بين ذراعيها.

١٨٢٩

## لا إيمان

لا تغريني دون جدوى  
برقتك العائدة:  
كل إغواء الأيام الخوالي  
غريب على خائب الآمال!  
لم أعد أو من بوجود الإيمان  
لم أعد أو من بالحب،  
لن أقدر على الاستسلام مجدداً  
للأحلام التي خانتني مرة!  
لا تزد من كآبتي العمياء،  
لا تفه بكلمة عن الماضي،  
وأنت أيها الصديق الشفوق  
لا تكدر كرى العليل.  
إنني أغفو والرقاد حلو،  
إنس الأحلام الماضية:  
ففي روعي قلق واحد،  
لكنه لا يوقظ الحب فيها.  
الشعر يشفي الفؤاد السقيم  
وقوة التناسق المبهمة  
تفتدى بالضلال الرهيب

وتقمع العواصف المتمردة.  
تتدفق روح الشاعر متناغمة  
متظهرة من آلامها،  
ويعيد الشعر المقدس  
النقاء والسكينة لروح العالم.

١٨٣٤

## رَبَّةُ الشَّعْر

لن تسلب ربة الشعر بصري،  
ولن تدعى بالحسناء،  
إذا رآها الفتيان  
لن يعدوا وراءها كسرب ولهان.  
إنها لا تنطوي على رغبة أو موهبة  
للإغراء بزيتها المتأنق،  
ونظرات عيونها وحديثها المتألق،  
لكن العالم يذهل لومضة خاطفة  
بتعابير وجهها الفريدة،  
وحديثها الهادئ البسيط  
وسرعان ما يمجدها بإطراء عابر  
بدل اللوم اللاذع.

١٨٢٩

ما جدوى الأيام! إن مظاهر العالم الأرضي  
لن تتغير!  
كل شيء جلي، الرتابة وحدها  
مواعيد المستقبل.  
ليس عبثاً أن تتحركى، أيتها الروح، وتتحرقى

ناشدة النمو،  
لقد حققت مأثرتك قبل الجسد،  
أيتها الروح الهوجاء!  
أغفت، منذ أمد بعيد، الانطباعات المتتابة  
المتزاحمة الجميلة،  
وتحت أنفاس الأحلام العائدة  
تغفين أنت، أما الجسد  
فيرنو بغباء انبلاج الصبح من  
الليل بلا وطر،  
وكيف ينغمس في عتمة الليل، المساء المجذب  
خاتماً النهار التافه

١٨٤٠

## النحات

حدج الحجر بنظرة ثابتة،  
وأبصر الفنان حورية في داخله،  
سرت النيران في عروقه،  
وهفا قلبه نحوها.  
مع أن رغباته لا متناهية،  
لكنه يمسك بزمام نفسه:  
أنه يزيل بمنقاشه متأنياً متدرجاً  
القشرة تلو القشرة  
عن الآلهة المختفية.

يمضى الساعة واليوم والعام  
في استغراق حلو ضبابي،  
ما دام لم يرفع بعد الستارة عن تلك التي  
يحدثها ويتمناها،  
وإذا تجسدت العواطف  
تحت المنقاش المتسلل اللطيف  
نقود غالاتيا<sup>(٤٤)</sup> المتوقدة رغبة

---

٤٤. غالاتيا، التمثال العاجي الذي صنعه بغماليون لامرأة ثم هام في حب مخلوقته.

بنظرتها الجوابية  
إلى انتصار نعيم المرء الحكيم

١٨٤١

## نيقولاى يازيكوف

NIKOLAY YAZYKOF

(١٨٠٣-١٨٤٦)

- ولد في أسرة ملاك من الملاكين الأثرياء في سيمبرسك.
- دخل الجامعة عام ١٨٢٢ وبقي فيها سبع سنوات. كانت تلك الفترة مفعمة بروح الحماسة والنشاط وأصبح يازيكوف محور الحياة الطلابية.
- اتّسم شعره في العشرينات بروح وطنية وتفكير حر وقوة فنية عالية.

## مرثاة

ما زالت عاصفة الشعب هاجعة،  
ما زال الفكر الروسي مكبلاً  
والحرية الطريدة  
تخفي نفحات الأفكار الباسلة.  
أواه.. ستظل سلاسل الدهور  
تلف طويلاً نطاق الوطن،  
ستمر مئة عام رهيب  
قبل أن تستيقظ روسيا!

١٨٢٤

لست زينة أيامنا،  
يا شرار نار الحرية!  
لقد مات ريليف<sup>(٥)</sup> كمجرم!  
آه، يا روسيا، اذكره  
حينما تنفضين السلاسل  
وتهين بقواك الجبارة  
على طغيان القياصرة

١٨٢٦

---

٤٥. الشاعر الذي أعدم بعد فشل انتفاضة الديسميريين، وقد ترجمناه بعض القصائد في مختاراتنا هذه.

## السابح

بحرنا المهجور،  
يصخب ليل نهار،  
ويطوي في رحابه  
المهلكة أرزاء جمّة.

تشجعوا يا إخوتي! لقد أرسلت  
زورقي الشراعي الزاخر بالريح،  
وستطوي الأمواج الملساء  
أشرعة المركب السريعة!

السحب تعدو فوق البحر،  
الريح تشتد، الموج يسود،  
ستهب العاصفة، ونتبارى  
ونستبسل معها.

تشجعوا أيها الإخوان! الغيوم تتفجر،  
ومياه عظيمة تهدر،  
الموجة الغاضبة تنهض عالياً  
الهاوية تتقعر عميقاً!

هناك بعيداً وراء الأمطار  
ثمة بلاد هنية،  
لا تعتم فيها قبة السماء،  
ولا يبارحها الهدوء.

لكن الأمواج تحمل هناك  
الروح الجبارة فحسب! ...  
تشجعوا، أيها الإخوان، فزورقي  
مليء بالعاصفة مستقيم وصلب!

١٨٢٧

## إلى الراين

رأيت أمواجك الخضراء تتدفق  
في ضوء يوم ربيعي،  
تتراقص وتصخب زاخرة ببريق خاطف،  
وأرجحتني ملاطفة،  
رأيت لوحات ساطعة باهرة،  
منعطفاتك ورحابك،  
أشجار الكستناء والحدود المرحية  
الكروم في سفوح الجبال،  
الجبال المحاطة بالقبور العالية  
لأبطالك السالفين،  
لحدود الفروسية والبطولة والجبروت  
للأيام الخوالي الغابرة!  
أنا من بلاد الفولغا: أحمل إليك تحايا الفولغا  
هل سمعت به؟  
أنت عظيم ورائع! لكن الفولغا أكبر وأجمل منك،  
وأكثر بهاء ورواء،  
مياهه المتدفقة أعمق، وتياره الأزرق أرحب!  
ما هكذا يزيد،

عندما تتعالى ولولة العاصفة  
وتتكلم الأمواج البيض!  
ما أعظم أمواجه الصاخبة في الربيع، عندما  
تنظر في أعالي ضفافه  
فلا ترى عيناك نهاية فيضانه المترامي عبر بحور المياه والجزر  
يا لك من إمبراطورية أيها النهر! ... إليك يبعث تحياته وتمنياته  
عاهل المياه،  
عَمْر المياه الروسية، المنطلق في مسيرته المجيدة.  
مسيرته المهيبه دائماً،  
بين الربوات والجبال والوديان اليانعة  
وإلى مياه قزوين المعتمة!  
سلام إليك من روافده النبيلة،  
من توابعه وأمرائه:  
من التفيرتسا التي تلاطف مياهها الهادئة  
آلاف السفن،  
المبحرة كسرب ملون جميل على أصوات  
أغاني السابحين،  
سلام إليك من الأوكا الهائج الأمواج، المحاط بالبلوط  
في سهول موروم الرملية  
المتدفق بهيبة وألق ووداعة،  
وعلى مرأى ضفافه الجليلة  
تترأى المعابد القديمة بقبابها المتلائة  
منعكسة في النهر العميق الصافي،  
وجلجلة الأجراس الهادئة تحمل فوق الماء

صوت الأزمان الغابرة!  
وسولرا- تلك الجميلة المتجولة المفكرة  
في غاباتها الكثيفة  
المختبئة تارة في الحقول، والمتألقة  
تارة في الزوارق المفتوحة.  
وسفياغا، المحاطة بأرض خضراء، اللعوب المسهدة  
المنهكة بالشؤون الحياتية،  
المحبة لصوت العجلات والألق الدائم  
وخرير المياه،  
سلام إليك من أرض بيارميا النائبة  
سلام من ملكة الأنهار الباردة  
من كاما الرصين العريض العميق،  
ومجراه العنيف العاصف،  
المتدفق بأواجه الفضية بين الشواطئ الصخرية  
تحت صيحات العقبان  
حاملاً الحديد والخشب وأطواد الملح  
في مراكب عملاقة،  
سلام من سمارا الذي لا يُسمع صوت مجراه  
من أحاديث التجار  
وهم يملؤون سفنهم بثروات الحقول  
بالقمح، ذهب السهول.  
سلام من تشريمشان الرشيق المتدفق،  
ومن مروج الأغيز  
ومن سيزران الجاري متمهلاً طليقاً

ومن جميع الكبار والصغار  
من التوابع والروافد التي لا تحصى  
لأنهار الشمال الضخمة،  
أحمل إليك التحايا!... تدفق مجيداً  
يا أمير الأنهار، تدفق رائعاً!  
تألق بحسبك أيها الراين! لن تسمع أبداً  
أغاني العدو الجذلة.  
ولا دوي الحرب، وليصن السلام المقدس  
الهدوء على ضفافك!  
وليتهااد ويحلم عليها بحلاوة.  
وفي ظلال أغصانها الفسيحة  
وصلصلة بلورها الأزرق  
الشباب الجريء والقبل الجميلة.

١٨٤٠

## مرثاة

طوبى لمن يستطيع أن يحتويك  
بين ذراعيه في فراش الليل:  
جبين على جبين، ومقلة في مقلة  
وشفاه على شفاه وصدر على صدر!  
من يوقف همسك المغربي  
وقبلتك المتأججة!

والارتعاش المتوحش لصدرك الأسمر  
وهو يتخدر ويتيقظ!..  
لكن أكثر هناء، يا عذراء الليل،  
من يرنو في نشوة الهوى  
إلى عيونك النارية،  
وحاجبيك الرائعين،  
ولين شفاهك القرمزية،  
وسواد شعرك المعقوص الطري،  
وينسى حرارة الأفراح العاصفة  
وقوة شبابه!

## الكسي كولتسوف

ALEKSEY KOLTSOV

(١٨٠٩ - ١٨٤٢)

- ولد في أسرة تمتهن تجارة الأغنام. أجبره والده على مساعدته في عمله التجاري مما جعله يشعر بالتعاسة والسأم.
- كانت أفجع صدمة في حياته بيع والده لفتاة ذكية من الأقران أحبها الشاعر وأراد أن يتزوجها. استغل أبوه فترة غيابه عن البيت مرة وباعها إلى أحد الملاكين. أدت هذه الحادثة إلى مرضه وإصابته بالحمى. نظم فيها قصائد عديدة، مثل «أغنية» «الحب الأول» «إليها».
- حرمه عمله مع والده من إكمال تحصيله العلمي.
- كانت الحكايات الشعبية بداية ثقافته الأدبية، أعجب بحكايات ألف ليلة وليلة، وكان كاشكين بائع الكتب يساعده في اختيار الكتب الأدبية.
- قضى السنوات الأخيرة من حياته مريضاً بمرض السل. عاش عيشة راكدة مضجرة، ولم يعامله والده معاملة إنسانية لأنه لم يعد يستفد من روابطه الأدبية في ترويج تجارته. لقد قتله وضعه العائلي في سن مبكرة كما قال الكاتب غرتسن.

## تفكير قروي

أجلس وراء المنضدة  
وأفكر:  
كيف يحيا المرء في العالم  
وحيداً؟

ليس لدى الفتى  
زوجة صبية،  
ليس لدى الفتى  
صديق مخلص.  
خزانة ذهب،  
ركن دافئ،  
رفش ومحراث  
حصان وحرث.

مع البؤس  
وهبني أبي  
منحة واحدة حسب:  
القوة الشديدة،

وتلك القوة أيضاً،

من الفقر المرير،  
بددتها في العمل  
لدى الناس الغرباء،  
أجلس وراء المنضدة  
وأفكر:  
كيف يحيا المرء في العالم  
وحيداً.

١٨٣٧

## مصير

مضت فتوني  
كهزار طائر،  
وضجت سعادتني العابرة  
كموجة في جو ماطر.

الأيام الذهبية،  
كانت هنا، لكنها تلاشت،  
وقوة الشباب  
نضبت مع الجسد،

الأفكار الشجية  
جمدت الدم في فؤادي،  
وما أحبته كروحي  
كان خداعاً.

وكورقة عشب  
رنحتني الريح شاباً،  
الشتاء يثلج وجهي،  
والشمس تلهبه.

قبيل الأوان، قبيل الوقت  
استترفت نفسي،  
وانساب عن كتفي  
ثوبي الأزرق!

بلا حب، بلا سعادة  
أجول العالم،  
وإذا فارقتني الفواجع  
قابلتني الأحزان!

نمت دوحة البلوط الأخضر  
على سفح ربوة منحدره،  
الآن يرقد ويضمحل  
تحت الربوة.

١٨٣٧

## أغنية

واحسرتاه، لماذا  
زوجوني قسراً  
دون حب  
برجل عجوز.

ستكونين فرحة  
الآن يا أمي  
عندما تمسحين  
دموعي الحارة،

سيكون فرحاً  
أبي، عندما ينظر  
إلى حياتي وعيشتي  
التعسة!

سيتفطر  
قلبهما،  
عندما أجيء وحيدة  
في عيد الفصح،

سأحمل الهدايا  
لهم من حبيبي:  
وفي وجهي حزن  
وفي روعي كآبة  
فات الأوان، أيها الوالدان  
في ملامة القدر  
والتنبؤ بالمصير وحدثه  
وترقب السعادة!

دع السفن  
تمخر البحر  
وليتناثر الذهب  
ويرن على الأرض،

لن ينمو العشب  
بعد الخريف،  
لن تتفتح الأزهار  
في ثلوج الشتاء

## الغابة

مهداة إلى ذكرى أ. س. بوشكين

بماذا تفكر

الغابة الوسنى،

المتلبدة

بكآبة قاتمة؟

البطل بوفاً<sup>(٤٦)</sup>

مسحور،

حاسر

الرأس في المعركة.

أنت تقف مطرقاً

لا تقاتل

الغيوم والعاصفة

العابرة

إن خوذك الخضراء

الكثيفة الأوراق،

---

٤٦. بطل أسطوري في الحكايات الروسية الشعبية.

انترعتها عاصفة هوجاء  
وذرتها فتاتاً  
هوى المعطف عند القدمين  
وتناثر...  
أنت تقف مطرماً  
لا تقاقل.

أين توارت  
خطبك الفخمة  
وقوتك المتشامخة  
وجراتك الملوكية؟  
ألم ينطو  
الليل الساجي عندك  
على أغاني رنانة  
شادية...

ألم تعش  
أياماً باهرة  
يمكث عندك  
الصديق والخصم...

ألم يدر عندك  
في المساء المتأخر  
حديث سائر  
متوعد مع العاصفة.

الغمامة السوداء  
تنشق،  
وتغمرك  
برياح باردة  
أنت تقول لها.  
بصوت مرنان:  
«عودي إلى الورااء  
وظلي على الهامش!»  
حامت مدوية  
وهاجت،  
مست صدرك  
وترنحت،  
هاجت  
وماجت:  
لا شيء سوى الصخب حولك  
الأصوات والضجيج...  
العاصفة تنشج  
كعفريت، كساحرة خبيثة  
وتحمل الغمام  
إلى البحر.  
أين هي الآن  
قوتك الخضراء؟  
اكتنك السواد

وأحاط بك الضباب...

استوحشت وهمدت...

مع الغيث فحسب

تنطلق شكواك

من المنية المبكرة

هذا ما حدث أيتها الغابة القاتمة

للبلبل بوفا!

أنت استنزفت حياتك كلها

في المعارك.

لم يقهرك

الأقوياء،

قضى عليك

الخريف القاتم.

أتعرف، في ساعات الكرى

هوت عليه

قوى عدوانية

وهو بلا سلاح.

انتزعوا هامته

عن كتفيه

لم ينتزعوها دفعة واحدة

وإنما تدريجياً.

## أغنية روسية

أهواه، أشد من  
قيظ النهار والنار  
لا أحد يقدر  
أن يحب كحبي أبدأ!

عشت معه فحسب  
وله وحده في الكون،  
له أهب روعي  
له أهب حياتي!  
يا له من ليل ويا له من قمر  
حينما أنتظر حبيبي!  
شاحبة، باردة  
أتجمد وأرتعش!

ها هوذا قادم يشدو:  
«أين أنت يا حبيبي؟»  
ها هوذا يأخذ يدي،  
ها هوذا يقبلني!  
«يا حبيبي أطفئ

قبلا لك،

بدونها، في حضورك،

يشعل الدم ناراً،

بدونها، في حضورك،

يلتهب وجهي متورداً،

يضطرب صدري

ويضطرم متوقداً!

وتلمع عيناى

كنجمة مشعة!

إني أحيا من أجله

اني أحبه بروحي.

١٨٤١

## ميخائيل ليرمنتوف

MIKHAIL LERMONTOV

(١٨٤١-١٨١٤)

- كان أبوه ملاكاً صغيراً وأمه من عائلة نبيلة ثرية، أغضب زواج والديه غير المتكافئ جدته من أمه.
- توفيت أمه بمرض السل عندما بلغ الثالثة من عمره ونشأ في كنف جدته التي حرمتها من رؤية والده.
- أثار موت والده عام ١٨٣١ شجونه فنظم قصيدة «رهيب مصير الأب والابن».
- كان ضعيف البنية عليلاً، لم تأل جدته جهداً في رعايته والعناية به، أخذته إلى القفقاس للعلاج والاستجمام.
- وكان لجمال الطبيعة القفقاسية أثرها الواضح في شعره.
- دخل الجامعة عام ١٨٣٠، درس فيها عامين ثم طُرد منها بحجة «مخالفته لنظام الجامعة». كانت روحه الوطنية الملتهبة هي السبب الحقيقي لطرده.
- أمر القيصر بإرساله إلى الجيش الذي يقاتل الجبلين في القفقاس وذلك بسبب القصيدة التي نظمها في موت بوشكين، وحال مرضه دون المشاركة في القتال.

- أرسل مرة أخرى إلى القفقاس على إثر مبارزته مع بارانت ابن المبعوث الفرنسي. اشترك في الحرب لعدة شهور وأبدى ضروباً من البسالة بحيث اقترح قائده، مرتين، منحه وساماً عسكرياً.

- أتعب القتال صحته الضعيفة، فذهب إلى مدينة بيتيغورسك للمعالجة والراحة.

- دبر أعداؤه مكيدة للتخلص منه وذلك عندما دعاه شخص اسمه مارتينوف للمبارزة معه، وقتل في المبارزة عند أحد الجبال القريبة من مدينة بيتيغورسك....

## الملاك

طار ملاك في السماء عند منتصف الليل،  
وغنى أغنية خافتة،  
أصغى القمر والنجوم والسحب  
لأغنيته المقدسة.  
غنى عن غبطة الأرواح الطاهرة  
تحت ظلال جنائن الفردوس،  
غنى لله العظيم  
وكانت مدائح صادقة.  
حمل روحه الفتية بين ذراعيه  
لاحتضان أحزان العالم ودموعه،  
ظل صوت أغنيته أبكم،  
لكنه حي في روح شابة،  
تعذبت طويلاً في الدنيا  
وجاشت بأمانٍ عجيبة.  
بيد أن أغاني الأرض المضجرة لم تستطع  
أن تعوضها عن أصوات السماء.

١٨٣١

كلا، لست بايرون، أنا امرؤ آخر،

إنني المصطفى المجهول،  
إنني كبايرون، رحالة مطارِد من العالم  
غير أن أنفاسي روسية،  
لي البدء والنهاية من قبله،  
عطاء فكري زهيد،  
وفي روعي كما هو شأن المحيطات،  
تجنم الأحلام المهشمة.  
فمن يستطيع أيها المحيط العابس  
أن يستشف خفاياك؟ من بوسعه  
التحدث عن أفكاره للجمهور؟  
أنا، أم الله، أم لا أحد.

١٨٣٢

## غصن فلسطين

حدثني يا غصن فلسطين،  
في أي مكان نمت وأزهرت،  
وأية ربوات ووهاد  
ازدانت بك،

هل لطفتك أشعة الشرق  
عند مياه الأردن الصافية؟  
أم هزتكَ الرياح الغضوب ليلاً  
في جبال لبنان؟

هل همسوا صلاة خافتة،  
أم غنوا أغنيات قديمة،  
أولاد سليم البائسون  
وهم يصفرون أوراقك؟

أما زالت شجرة النخيل تلك موجودة؟  
أما زالت هامتها ذات الأوراق العريضة  
تجتذب في حرارة الصيف  
عابري الصحراء؟

أو أن الفراق الكئيب  
أذبلها مثلك،  
وغبار الوديان يجثم ثقيلًا  
على الأوراق الصفراء...

حدثيني يا ركيزة المؤمن  
من حملك إلى هذا المكان؟  
وهل كان حزيناً دائماً عليك؟  
وهل تصونين آثار دموعه الحارة؟  
أكان أفضل مقاتلي جحافل الله  
بجبهته الصافية  
أكان مثلك جديراً بملكوت السموات  
على مرأى الناس والآلهة؟...

العناية الإلهية تصونك  
أمام الأيقونة الذهبية،  
حيث تقف يا غصن القدس،  
كحارس مخلص مقدس.

الغسق الشفاف وضوء المصباح،  
المحراب والصليب، رموز القداسة...  
وكل ما يعمر السكينة والفرح.  
يطوقك ويغمرك.

## بورودينو (٤٧)

حدثني أيها العم، لم يكن عبثاً  
أن تلتهم الحرائق موسكو  
وتسلم للفرنسيين.  
دارت معارك حامية الوطيس،  
ويقولون... يا لها من معارك،  
ليس مصادفة أن تتذكر روسيا قاطبة،  
يوم بورودينو.

أجل كان أناس أشداء في زماننا،  
خلافاً للأقوام الحالية،  
إنهم جبابرة لا يشبهونكم!  
كانوا سيئي الحظ،  
قلّة هم الذين عادوا من أرض المعركة،  
ولولا مشيئة الله  
لما سلموا موسكو.

---

٤٧. المعركة الحاسمة التي وقعت بين نابليون والقوات الروسية عام ١٨١٢، وقرر قائد الجيش الروسي على أثرها الانسحاب من موسكو بعد قتال ضارٍ خاضه مع الفرنسيين في تلك المعركة.

تراجعنا طويلاً صامتين،  
كاتميين ضيقنا، منتظرين القتال،  
دمدم مسنوناً:  
«ماذا دهانا؟ هل أتينا للاستجمام؟  
ألا يجرؤ قادتنا  
على تمزيق المعاطف العسكرية الأجنبية  
بالحراب الروسية؟»  
ها قد عثرنا على حقل رحب:  
حيث يمكننا أن نتفسح بحريتنا!  
أقاموا الحصون.  
أرهفنا السمع!  
أوشك الصباح أن ينبلج ضياؤه  
فوق الغابات والقمم الزرق  
بينما الفرنسيون رابضون في أماكنهم.  
شحت المدفع بقوة،  
وفكرت: سأستضيف صديقي!  
انتظر يا أخي المسيو!  
ما نفع المراوغة، دعنا نتحارب،  
سنذهب ونحطم الجدار  
ونقدم هاماتنا  
في سبيل الوطن!  
مضى يومان ونحن نتبادل إطلاق النار  
ما جدوى هذه المناوشات؟

انتظرنا اليوم الثالث.

سرى حديث مسموع في كل مكان

«أزف وقت الضربة الشاملة!»

ها هي ظلال الليل تهوي

على أرض المعركة الرهيبة.

غشيني النعاس، فاستلقت قرب المدفع،

تناهت إلى أسماعنا قبل الفجر،

أصوات الفرنسيين الجذلة،

لكن السكون خيم على تحصيناتنا:

نظف أحدهم قبعته ورتبها

شحذ آخر الحربة وتمتم غاضباً

عاضاً شاربه الطويل.

ما كاد الضياء يلوح في السماء،

حتى ضجت الحركة بغتة في كل شيء،

لمعت صفوف إثر صفوف،

كان رئيسنا مفطوراً على البسالة:

جندي القيصر وأبو الجند

وأسفي عليه، فقد قتل بالسيف،

وثوى في الأرض الرطبة.

خاطبنا وعيناه تلمعان:

«أيها الشباب! أو ليست موسكو وراءكم!

استشهدوا في ضواحيها،

كما استشهد اخواننا!»

وأقسمنا أن نموت،  
وحافظنا على قسمنا  
في معركة بورودينو...  
يا له من يوم رهيب! عبر الدخان المتطاير  
تحرك الفرنسيون كالغمام  
متجهين كلهم نحو حصوننا.  
مر الخيالة بإشاراتهم المتنوعة،  
والفرسان بقبعاتهم المذيلة،  
بسرعة أمامنا  
ووقفوا كلهم هناك.  
وقاكم الله رؤية مثل تلك المعارك!  
رفعت الرايات كالظلال،  
وسطعت النار من بين الدخان،  
علا صليل السيوف، دوي الرصاص،  
أصاب التعب أيدي المحاربين من الطعن  
أعاق تطاير القذائف،  
جبل من الأجساد الدامية.

اختبر العدو في ذلك اليوم غير قليل  
معنى القتال الروسي الباسل  
قاتلنا بالسلاح الأبيض!...  
ارتجت الأرض مثل صدورنا،  
اختلطت الجياد بالناس مزدحمين،  
دوت إطلاقات آلاف الأسلحة

في صرخة متواصلة.

هبط الغسق. الجميع متأهبون  
لخوض القتال مجدداً في الصباح  
والصمود حتى النهاية...

ها هي الطبول تفرع.

والجنود يتراجعون

عندئذ طفقنا نحصي الجرحى

نحصي رفاقنا.

أجل عاش أناس أشداء في زماننا،

كانوا قوماً شجعاناً شديدي البأس،

جبايرة لا يشبهونكم،

كانوا سيئي الحظ،

قلة هم الذين عادوا من أرض المعركة،

ولولا مشيئة الله،

لم يسلموا موسكو.

١٨٣٧

## موت شاعر (٤٨)

استشهد شاعر! - أسير الشرف -  
سقط بين الشائعات الباطلة،  
في صدره طلقة وظماً للانتقام،  
تدلى رأسه الشامخ! ...  
لم تطق روح الشاعر  
عار الإساءات الوضيعة،  
ثار على أفكار علية القوم  
وحيداً، كالسابق.... ومات!  
مات!... فعلام العويل الآن،  
والمدائح الجوفاء من تلك الجوقة اللامجدية  
وعبارات الأسف والتبرير المتلعثمة؟  
لقد نفذ القدر حكمه!  
أستم أنتم أول الذين طاردتم حانقين  
موهبتة الحرة الشجاعة؟  
وأججتم طلباً للسوى،  
ذلك الحريق الذي كاد يخمد؟  
فماذا بعد؟ افرحوا!... إن العذابات  
الأخيرة لم يستطع صبراً عليها:

٤٨، نظمها بمناسبة موت بوشكين في مبارزة دبرها البلاط للتخلص منه.

انطفأت كالمشعل، تلك العبقرية المدهشة،  
وذوى الإكليل المظفر.

\*\*\*

سد قاتله<sup>(٤٩)</sup> الضربة  
ببرود.... فلا خلاص يرتجى:  
القلب الخاوي يدق دقات منتظمة،  
ولا يهتز المسدس في اليد.  
وما العجب في ذلك؟... فمن بعيد  
شأن مئات الهارين،  
لاصطياد السعادة والمناصب  
ألفت به مشيئة الأقدار إلينا،  
ضحك، وازدرى بوقاحة  
لغة أرض أجنبية وعاداتها،  
لم يستطع الإبقاء على مجدنا  
لم يستطع في تلك اللحظة الدامية أن يدرك،  
من هاجمت يده!...

قضى نحبه، واحتواه اللحد،  
مثل ذلك المغني المجهول الحبيب<sup>(٥٠)</sup>  
-ضحية الغيرة الصماء-

٤٩. يشير إلى دانتس الفرنسي الجنسية الذي دعاه بوشكين للمبارزة دفاعاً عن شرفه، حيث أخذ يغازل زوجته وينشر عنها الشائعات الكاذبة مع بعض رجال البلاط للنيل من سمعته واستفزازه.

٥٠. إشارة إلى فلاديمير لينسكي، أحد أبطال رواية بوشكين الشعرية «يفغيني إينغين» الذي قتل في مبارزة مع صديق بسبب غيرته على حبيبته.

الذي غناه بقوة سحرية،  
وخرَّ صريعاً مثله بيد لا تعرف الرحمة.  
لماذا ترك النعيم الهادي والصدقة المخلصة  
وعاشر تلك الفئة الحاكمة الخائفة<sup>(٥١)</sup>  
للقلب الطليق والعواطف المتوهجة؟  
لماذا مد يداً للوشاة التافهين،  
لماذا صدق الكلمات العذبة الزائفة،  
وهو الذي فهم الناس منذ صباه...؟  
لقد نزعوا تاجه السابق، ووضعوا عليه إكليل شوك  
كسوه بأوراق الغار الذابلة  
لكن إبراً خفية لاذعة  
لسعت جبهته المجيدة،  
وسممت الهمسات الماكرة لأولئك  
الأجلاف اللمازين لحظاته الأخيرة،  
مات يبرحه ظمأً للانتقام،  
وفيض دفين من الآمال الخائبة.  
طوت السكينة أصوات الأغاني الرائعة،  
ولن تصدح مرة أخرى:  
أن بيت المغني قاتم وضيق،  
وشفاهه ممهورة،

---

٥١. يقصد رجال البلاط، فقد منح بوشكين لقباً صغيراً كي يستطيع التردد على حفلات البلاط ولوائمه ولم يكن هذا اللقب يليق بمكانته الشعرية لأنه من الألقاب الدنيا، وقد سبم ارتباطه بالبلاط حياته وكثرت الوشايات والمضايقات والضغوط عليه.

وأنتم أيها الأحفاد المتغطرسون،  
يا من اشتهر أسلافكم بالسفالة،  
بأقدام العبودية حطتمم إلى شظايا  
حياة الناس المظلومين ولعبتم بسعادتهم.  
وأنتم أيتها الحشود الواقفة عند العرش،  
يا سفاحي الحرية والعبقرية والمجد!  
تواروا خلف ستار القانون،  
أمامكم المحكمة والحقيقة، فأسكنوهما!  
ولكن هناك محكمة الرب يا محبي الفجور!  
ثمة محكمة رهيبه في انتظاركم  
انها ليست في متناول الذهب المرنان  
وتستقرئ سلفاً الأفكار والأمور  
حينئذ لن يجديكم نفعاً اللوذ بالوشايات  
ولن يهبّ لنجدتكم مرة أخرى.  
حينئذ لن تغسلوا بدمائكم السود كلها  
دماء الشاعر النقية!

١٨٣٧

## تأمل (٥٢)

أتطلع حزينا إلى جيلنا!  
فمستقبله - مجذب أو مظلّم،  
وهو يشيب راكداً،  
تحت عبء المعرفة والشكوك،  
إننا لأثرياء من المههد تقريباً  
بتركة خطايا أسلافنا وإدراكهم المتخلف،  
الحياة تضنينا كصراط مستقيم بلا وطر،  
كوليمة في عيد غيرنا،  
إننا نقف بلا اكتراث مشين أمام الخير والشر،  
إننا ندوي ونحن في مستهل الطريق دون كفاح،  
إننا جنباء جنباً مخزياً أمام المخاطر.  
بينما نحن أرقاء حقراء أمام ذوي السلطان.  
نحن كالثمرة الضعيفة الناضجة قبل أوانها،  
لا تلذ المذاق ولا تسر العين،  
معلقة بين الزهور غريبة وحيدة،

---

٥٢. ظهر هذا النوع من الشعر المتعلق بأحوال المواطنين وتفكيرهم وسلوكهم في القرن التاسع عشر.

وفترة جمالها هي فترة سقوطها!

\*\*\*

لقد أهزلنا افكار العلوم المجدية،  
وكتمنا- عن الأقرين والأصدقاء-  
أفضل أمانينا وصوتنا النبيل،  
والشكوك في عواطفنا المهانة،  
ما كدنا نمس كأس الأفراح إلا قليلاً،  
لكننا لم نصن قوانا الفتية،  
كنا نخشى التخمة من كل مسرة،  
واستخرجنا، الأبد، أفضل عصارتنا.

\*\*\*

إن أحلام الشعر وإبداعات الفن  
لا تحرك فكرنا بمسرة حلوة،  
إننا نصون ضنينين بقايا أحاسيس في صدورنا-  
وكنزاً عديم الجدوى مطموراً ببخلنا.  
إننا نبغض ونحب عفويًا  
لا نضحى بشيء، لا من أجل ضغائننا ولا محبتنا،  
تجثم برودة خفية على أرواحنا،  
بينما تتقد النيران في دمائنا.  
إن مسرات أجدادنا الباذخة مضجرة لنا،  
كم يبعث السأم فينا لهُوَ أجدادنا الباذخ  
وتهتكهم الصبياني البريء،

إننا نغذ السير إلى رموسنا، بلا سعادة، وبلا مجد،  
متطلعين باستخفاف إلى الورااء.

إننا جمع متجههم سيطويه النسيان سريعاً،  
نتخطى عتبات العالم دون ضجة أو أثر،

لم نخلف للعصور القادمة فكرة مثمرة  
أو عبقرية قد استهلكت نشاطها.

وسيزدري أحفادنا رفاتنا

بقصيدة مهينة، بصرامة القاضي والمواطن،

إنها سخرية الابن المخدوع المُرّة

من أبيه العابث

١٨٣٨

## تهويدة قوزاقية

نم يا صغيري الجميل  
هنهونه.

القمر الصافي يرنو ساجياً  
إلى مهدك  
سأحكي لك الحكايات،  
وأغني أغنية،  
فأطبق عينيك الصغيرتين واغف،  
هنهونه.

يجري نهر يترك بين الصخور،  
طاوياً أمواجه العكرة،  
ويزحف التشيتشين الحقود نحو الشاطئ،  
شاحداً سيفه.

لكن أباك محارب قديم،  
تصلب عوده في المعارك،  
نم يا صغيري وكن مطمئناً  
هنهونه

سيأتي زمان، وتعرف بنفسك

نمط حياة الجندي.  
ستضع قدمك ببسالة في الركب  
وتحمل بندقية.  
سأطرز سرجك الحربي  
بخيوط حريرية...  
نم يا صغيري الحبيب،  
هنهونه.

ستكون لك طلعة البطل  
وروح القوزاقي.  
سأخرج لمرافقتك في الوداع  
وتلوح لي بيدك..  
كم من الدموع الحارة  
سأسكبُ خلسة في ذلك الليل!  
نم يا ملاكي نوماً حلواً هادئاً،  
هنهونه.

ستبرحني الكآبة،  
سأنتظر دون سلوان.  
سأصلي اليوم كله  
وأمارس العرافة ليلاً،  
سأفكر أنك تكتب  
في ذلك البلد الغريب...  
نم ما دمت خالي البال،  
هنهونه.

سأعطيك أيقونة مقدسة  
للطريق  
ضعها أمامك  
وَصَلِّ لِلَّهِ،  
وعندما تستعد لقتال خطير  
تذكر أمك...  
نم يا صغيري الجميل  
هنهونه.

١٨٣٨

وحيداً أخرج إلى الدرب.  
الطريق الصخري يسطع عبر الضباب،  
الليل ساج والبراري تصيخ إلى الله،  
ونجمة تناجي نجمة.

كل ما في السماء مهيب ورائع!  
الأرض تغفو في بهاء جليل...  
فعلام أنا حزين ومثقل القلب؟  
أنتظر شيئاً؟ أم آسف لشيء؟

لا أتوقع شيئاً من الحياة،  
ولا آسف على الماضي أبداً.  
إنني أبحث عن الحرية والسكينة،  
وأنشد السلوان والرقاد.  
لكنه ليس رقاد القبر البارد:

إني أتوق لغفوة أزلية،  
كي تهجع قوى الحياة في صدري،  
كي يعلو صدري هادئاً حينما أتنفس.

كي بداعب سمعي ليل نهار،  
صوت عذب يغني للحب،  
كي يخضوضر فوقني دائماً شجر  
السنديان القاتم، ينحني ويضج.

١٨٤١

## الوطن

أحب الوطن ولكنه حب غريب،

لا يغلبه العقل!

فلا المجد المبتاع دماً

ولا الطمأنينة التامة المفعمة بثقة فخورة،

ولا التقاليد المقدسة في الماضي القاتم،

تحرك في روعي أخيلة مفرحة.

لكنني أحبه، لماذا، لست أدري

أحب الصمت البارد في سهوله،

وتماوج غاباته المترامية،

وفيضان أنهاره الشبيهة بالبحار،

أحب العَدُوَّ بالعربة في دروب الريف،

لكي أنفذ ببصري بطيئاً في ظلال ليله

متشوقاً لماوى على أطرافه،

بين الأضواء الراعشة في القرى الكثيبة

أحب دخان مزارعه المحروقة،

وقوافل العربات الهاجعة ليلاً في السهول،

وشجرتي البتولا البيضاءوين.

فوق ربوة تتوسط حقول القمح الصفراء،  
أرنبو بسرور لا يعرفه الكثيرون،  
إلى الأجران الممتلئة،  
والكوخ المغطى بالقش  
ومصراع النافذة المنقوش،  
وفي العيد عندم يلف الندى المساء.  
أراني مستعداً أن اتطلع حتى منتصف الليل  
إلى الرقصات المصحوبة بضرب الأرض والصفير  
على نغم حديث الفلاحين السكارى.

١٨٤١

وداعاً يا روسيا غير المستحمة،  
يا بلاد العبيد والسادة،  
وداعاً يا معاطف الجندرمة،  
وأنت، أيها الشعب الخاضع،  
أيمكنني الاختفاء من باشاواتك  
خلف جبال القفقاس المترامية؟  
أيمكنني الاختفاء من عيونهم الرانية لكل شيء  
من آذانهم التي تسترق السمع لكل شيء؟

١٨٤١

## دعوة الشيطان لتامارا

أقسم بأول يوم الخليفة  
أقسم بآخر يوم،  
أقسم بعار الجريمة  
وانتصار الحقيقة الأبدية،  
أقسم بسقوط العذابات المرة،  
وأحلام الانتصار القصيرة،  
أقسم باللقاء معك  
والفراق الذي يتوعدنا من جديد  
أقسم باجتماع الأرواح  
ومصير الإخوان تحت رحمتي،  
ونصال الملائكة اللاعاطفين.  
أعدائي المتيقظين أبداً.  
أقسم بالسماء والجحيم.  
والقديسين الدنيويين وبك  
أقسم بنظرتك الأخيرة  
ودموعك الأولى،  
وأنفاس شفاهك الوديعه  
وأمواج شعرك المجعد الحريرية.

أقسم بالهناء والآلام  
أقسم بحبي أن:  
أتخلى عن انتقامي السابق،  
أتخلى عن أفكاري الشامخة،  
إنَّ سموم الاغراءات الخادعة  
لن تحرك ذهني منذ الآن.  
أروم الصلح مع السماء،  
أروم الهوى، أروم الصلاة،  
أروم الإيمان بالخير،  
وسأمحو بدموع التربة  
آثار النيران السماوية  
عن وجهي وأكون جديراً بك،  
دعي العالم في جهله الساجي  
يذوي بدوني!  
أه.. صدقيني، أنا الوحيد  
الذي فهمك وقيّمك حتى الآن:  
اخترتك لمحرابي المقدس  
ووضعت سلطتي عند قدميك.  
انتظر حبك كهبة لي،  
وسأمنحك الخلود لقاء لحظة عشق.  
ثقي يا تمارا، أنني في الحب كما أنا في البغضاء  
مخلص وعظيم،  
أنا ابن الأثير الحر،  
سأحملك إلى عوالم ما وراء النجوم

وتصبحين ملكة الدنيا،  
ورفيقتي الأولى،  
ستنظرين إلى الأرض  
دون أسف أو صلة تصلك بها،  
إنها خاوية من السعادة الحقة  
ومن الجمال الأبدي...  
... اتركي أمانيك الماضية  
ودعي العالم المسكين لمصيره،  
سأكشف لك مقابل ذلك  
أغوار المعرفة الشامخة،  
وأجلب حشود الأرواح الحارسة لي  
عند قدميك،  
وأهبك أيتها الحسناء  
وصيفات رشيقات ساحرات،  
وأنتزع لك من النجمة الشرقية  
تاجاً ذهبياً،  
وأرشه بندي  
أزهار منتصف الليل،  
وأصنع من أشعة الغروب الوردية  
شريطاً يلف خصرك  
وأترك الهواء المحيط بك  
بأنفاس أريج صاف،  
والأطف سمعك دائماً  
بألحان رائعة،

وأبني قصوراً بهية  
من الفيروز والكهرمان  
وأغوص إلى قرارة البحر  
وأطير فوق الغمام،  
وأعطيك كل ما تهبه الأرض.  
أحبيني!...

١٨٤١

حينما تتماوج حقول القمح الصففر،  
وتصبح الغابة الغضة على صفير الريح،  
ويختبئ في الجنية توت العليق  
تحت أفياء الأورق الخضر الحلوة،  
حينما يهز سوسن الغابة الفضي  
المرصع بالندى المعطر  
رأسه محيياً من بين الشجيرات  
في مساء وردي أو سويعة صباح ذهبية،  
حينما يتراقص الينبوع البارد في الوادي  
وتتمم فكرة داعبتها في حلم مضطرب،  
قصة بطولية غامضة  
عن أرض السلام المنحدرة منها:  
عندئذ يهدأ القلق في روعي،  
عندئذ تتوارى التجاعيد من جبهتي،  
وأستطيع بلوغ السعادة على الأرض  
وأرى الله في السموات.

١٨٣٧

## اليوم الأول من كانون الثاني

طالما أحاطني جمهور متباين،  
ولاحت صور أناس متحجري العواطف  
يرتدون أقنعة مؤدبة،  
ينتقلون أمامي كما يحدث في حلم،  
على صخب الموسيقى والرقص وهمسات  
أحاديث تافهة يعرفونها عن ظهر قلب،  
عندما تمس يد حسناء المدينة  
التي توقفت منذ أمد بعيد عن الارتعاش  
بجراحة لا ابالية يديّ الباردتين  
أنغمر ظاهرياً بألقهم وعبثهم  
واهدد في فؤادي حلماً قديماً  
وأصواتاً مقدسة من السنين الخالية.  
وإذا هيئ لي كيفما كان ولو للحظة  
الاستغراق في ذاتي، سأطير كطير طليق، طليق  
إلى الماضي غير البعيد،  
وأرى نفسي طفلاً، وحولي،  
الأماكن المألوفة : بيت الملاك العالي  
والحديقة ذات المستنبت الزجاجي المهدم،

والبحيرة الوسنى المدثرة بشبكة خضراء من العشب  
وخلف البحيرة يتعالى دخان قرية، ويتصاعد  
الضباب بعيداً، فوق الحقول.  
دخلت ممر الحديقة المعتم، ومن خلال الشجيرات  
انبلج شعاع شمس المساء، وأحدثت الأوراق الصفراء  
حفيفاً تحت الخطوات الوجلة  
ثمة كآبة غريبة تجثم على صدري،  
أفكر بها وأبكيها وأهواها،  
أهوى مخلوقة أحلامي  
بعينها المفعمتين بلهيب سماوي  
وابتسامتها الوردية كأول شعاع  
نهار وليل يطل خلف الأدغال.  
وهكذا جلست وحيداً لساعات طويلة  
كعاهل جبار لمملكة - مندهشة،  
ما زالت حية ذكريات تلك الساعات  
تحت عواصف الشكوك المضنية والمشارع،  
مثل جزيرة صغيرة نقية تزدهر ببراءة  
وسط ببداء البحر المائية.  
وعندما صحوت، أدركت الخداع،  
وروع حلمي صخب جمهور الناس.  
ذلك الضيف غير المدعو إلى الوليمة،  
آه.. كم أتمنى أن أعكر بهجتهم.  
وأقذف بجرأة في عيونهم شعري الحديدي  
الزاخر بالمرارة والغضب!...

## آخر مسكن جديد

عندما تلقت فرنسا بين التصفيق  
وهتافات الفرح، الرفات الباردة  
لذلك الفاني بين الآلام الصامتة،  
في المنفى المعتم والسلاسل،

وبينما يتوج العالم هذه النفحة  
من الندامة المتأخرة بالإطراء الكيس،  
والجمهور السخيف الراضي عن نفسه  
يمتلىء فخراً ويتناسى الماضي.

أطلقت العنان لسخطي وعواطفني  
مدركاً عبث تلك الرعاية البهيجة،  
أود أن أقول للشعب العظيم:  
أنت شعب وضيع وتافه!

أنت وضيع لأن كل ما هو جليل ونبيل  
على الأرض، الإيمان والمجد والعبقرية،  
دسته في التراب

بضحكة ريبة طفولية بليدة.  
حولت المجد إلى العوبة رياء

والحرية إلى أداة سفاح،  
لنسف نواميس الآباء الحبيبة.  
واجتثاتها كلها.  
أنت تهلك! وها هو ذا يطل بنظرته الثاقبة  
بأنامل إلهية فريدة  
ورفعه القضاء العام قائداً  
واندمجت حياتك فيه.  
وتصلبت مجدداً في ظل جبروته.  
ونظر العالم المرتعش صامتاً  
إلى حلة الجبروت والمجد الرائعة  
التي خلعها عليه.

كان وحيداً بارداً ثابتاً أينما حل،  
أبو السرايا المحنكة وابن الشائعات  
في سهول مصر وعند جدران فيينا المقهورة  
وفي ثلوج موسكو المحترقة.  
قولوا، ماذا فعلتم أنتم حينئذ،  
عندما تلقى الموت بكبرياء في أرض غريبة  
لقد أضعفتم السلطة التي اخترتموها، مع أنها عبء.  
وشحذتم سيوفكم في الخفاء!

في غضون المعارك الأخيرة والجهود المستميتة،  
خائفاً من أن لا تدركوا عاركم،  
لم تخلصوا له، كالمرأة  
وأقدمتم على خيانتته، كالعبيد!

محروماً من حق المواطن ومكانه،  
التقط تاجه المهشم ورماه بنفسه،  
وترك لكم ابنه وديعة  
وسلمتم ابنه إلى أعدائه!  
بعدئذ حملوا البطل من السرايا النائحة  
وهو مرهق بالقيود المشينة،  
إلى صخرة أجنبية وراء البحار الزرق  
ومات وحيداً منسياً.

وحيداً تبرحه سدى رغبة الانتقام  
كثيباً كآبة صامته فخورة  
وكجندي بسيط دُفِن بيد أجيره  
بمعطفه العسكري...

مضت السنون، وإذا الشعب الهائج  
يصرخ: «اجلبوا لنا هذه الرفات المقدسة!  
إنها لنا! الآن، ندفن هذه البذرة التي أعطت  
حصاداً عظيماً داخل الجدران التي أنقذها!»

وعاد إلى وطنه، وبجنون،  
كما حدث في الماضي، ازدحموا حوله وضجوا،  
وفي تابوت بهي وسط العاصمة الصاخبة  
وضعوا جثمانه الفاني.

الأمنية الأخيرة تكلمت بالنجاح!  
وإذا الجمهور المرتجف أمامه  
يتحول حماسه القصير إلى شيء آخر

وما هو يطوف داعساً رفاته بضحكة خيلاء!

إنني حزين، عندما أفكر الآن

بتعكير السكينة المقدسة

المحيطة بذلك الذي انتظر، في الصحراء

بظماً ولأعوام طويلة، الهدوء والكرى!

وإذا هفت روح القائد للقاء

الضريح الجديد، حيث يهجع جثمانه،

فأي غضب سيتفجر فيه

لدى رؤية هذا المشهد!

كم سيأسف، يبرحه الحزن،

على تلك الجزيرة القائظة تحت سماء البلاد النائبة

حيث وقف على حراسته نظيره

المحيط العظيم الذي لا يقهر!

١٨٤١

## حلم

في قيظ الظهيرة، في وادي داغستان  
انطرحت بلا حراك وفي صدري طلقة،  
والجرح العميق ما برح يتنزي  
ودمي يسيل قطرة فقطرة.

انطرحت وحيداً على رمال الوادي  
وحافات الصخور الناتئة تتكدس حولي،  
والشمس تلهب ذراها الصفراء  
وتلهبني، ولكني غفوت غفوة الموتى.  
وحلمت بوليمة في المساء  
تألق أضواؤها في وطني،  
ودار حديث بهيج عني  
بين الزوجات الصبايا المكملات بالزهور.  
ولكن صبيّة جلست وحيدة مستغرقة في تفكيرها،  
لم تشاركهن الحديث،  
وانغمرت روحها الفتية، الله أعلم لماذا، في حلم حزين.

حلمت بوادي داغستان...

وبشخص تعرفه مطروح في ذلك الوادي،

وبصدره جرح مسود يتنزي  
والدم يسيل دفقا بارداً...

١٨٤١

## فيودور توتشيف

FEDOR TYUTCHEV

(١٨٠٣ - ١٨٧٣)

- نشأ في أسرة نبيلة عريقة

- درس في جامعة موسكو وتخرج منها عام ١٨٢٢ وشهدت أروقة الجامعة أولى نتاجاته الشعرية.

- وجد له وظيفة في السلك الدبلوماسي في ميونيخ. ظل يعمل في الخارج ما ينيف عن العشرين سنة، مما أضعف صلته بالحياة الأدبية الروسية.

- كان يرسل القصائد بين فينة وأخرى إلى المجلات والدوريات الروسية. وأكثر أيضاً من ترجمة أعمال مشاهير الشعراء والكتاب فترجم لهوراء وشيللر ولامرتين وغوته وهايني.

- لم يواصل نظم الشعر باستمرار بعدما عاد إلى روسيا، وكان ينقطع عن نظمه لفترات طويلة أحياناً.

- ظل القراء على معرفة قليلة بمكانته الشعرية حتى كتب عنه نيكرا سوف وتورغينيف.

- بقيت قصائده مبعثرة في المجلات وسعى زوج أخته لجمع ديوانه وطبعه عام ١٨٥٢ ولكنه لم يفلح في مسعاه.

توفي في تموز ١٨٧٣ ولم تحدث وفاته صدى واسعاً لدى القراء أو  
في الأوساط الأدبية.

## صمت

لُذ بالصمت، احتجب وأخف  
مشاعرك وأحلامك  
دعها تستيقظ وتمكث  
في أعماق روحك،  
خرساء كنجوم الليل -  
تمتع بها واخلد إلى الصمت.

\*\*\*

كيف يعبر الجنان عن مكنونه؟  
كيف يفهمك الآخرون؟  
كيف يدركون ما تحيا به؟  
فالأفكار التي تتفوه بها مزيفة.  
وإثارته تكدر الينابيع،  
فعبها واخلد إلى الصمت.

\*\*\*

تعلم العيش في حنايا نفسك وحدها -  
فروحك تنطوي على عالم كامل

من الأفكار الغامضة السحرية،  
تخنعها الضجة الظاهرية،  
وتتقاذفها أشعة النهار،  
فأصغِ إلى ألعانها وأخلدْ إلى الصمت.

١٨٣١

## القضاء المحتوم

الحب، الحب- الأعراف تعلن-:  
هو اتحاد الروح بروح الحبيبة،  
ارتباطهما، امتزاجهما،  
اندماجهما الحتمي،  
و... صراعهما المحتوم...

وكلما كان فؤاد أرق من آخر  
بات الصراع غير متكافئ بين القلبين،  
وغدا أكثر حتمية وصدقاً  
أن يحب الفؤاد، يعاني ويدوي حزناً،  
ويفنى أخيراً.

١٨٥٢-١٨٥١

## الحب الأخير

آه، عند منحدر أعمارنا  
ما أرق الحب وما أكثر وسواسه...  
اسطع، اسطع يا ضياء الوداع  
لآخر حب، لشفق المساء!  
الظلال تغمر نصف السماء،  
هناك، في الغرب فقط، تحوم حزمة ضوء.  
رويدك، رويدك يا مساء اليوم،  
استمري، استمري أيتها الفتنة.

لتشع الدماء في عروقنا،  
لكن الرقة لن تشع في قلوبنا...  
آه، أيها الحب الأخير!  
إنك الغبطة والقنوط.

١٨٥٤-١٨٥٢

## عاصفة الرعد

أحب العاصفة الرعدية في مستهل أيار  
عندما يبدو أول رعد ربيعي  
كما لو كان يعدو ويلعب  
ملعلاً في السماء الزرقاء.

دوت زمزمة فتية،  
هطل الغيث، تطاير الغبار،  
تدلت الدرر المطرية،  
ولمعت خيوط الشمس.

هبط تيار رشيق من الجبل،  
لم يهدأ لغط الطيور في الغابة،  
ولا لغط الغابة ولا ضوضاء الهضاب -  
كلها ترجع مرحلة صدى الرعود.

ستقول: إنها نيبة النزقة  
تطعم نسر زيوس  
ساقبة كأس الرعود الهادر من السماء  
على الأرض وهي تضحك

ما زالت تضنني هموم الأمانى،  
لا زالت تتوق إليك روحي،  
والأحق صورتك  
في عتمة الذكريات...  
فصورتك الحبيبة خالدة،  
إنها ماثلة أمام ناظري دائماً وابدأً،  
بعيدة المنال راسخة،  
كنجمة في سماء الليل -

١٨٥٠

## رؤيا

ثمة ساعة صَمَّتْ كُلِّيَّ في الليل،  
ساعة الرؤيا والأعاجيب،  
تجوب فيها مركبة العالم الحية  
جهاراً في مقدسات السموات.

عندئذ يكشف الليل كماء مشوش،  
غافياً مثل مارد يعتصر الأرض.  
لا شيء سوى الآلهة بروحها العذراء  
يقلقها الرب في أحلامها التنبئية.

## حلم على البحر

رنح البحر والعاصفة زورقنا،  
كنت وسناناً مستسلماً لنزق الأمواج.  
وفي داخلي بعدان مطلقان  
يلهوان بي كما يشاءان.  
هدرت الصخور حولي هديرأ يشبه دوي الصنج،  
استجابت الرياح وغنت الأمواج،  
اضطجعت كالأصم بين لُجَّةِ الأصوات،  
لكن حلمي طفا على سطحها.  
كان ساطعاً غير اعتيادي، أخرس سحرياً،  
طفا خفيفاً فوق العتمة المرعدة،  
وبسط عالمه في الأشعة المحمومة،  
فأخضوضرت الأرض وأشرقت السماء  
والحدائق وممراتها والقصور والأعمدة،  
تزاحم حشر صامت واضطراب،  
عرفت كثيراً من الوجوه المجهولة،  
رأيت مخلوقات سحرية وطيوراً عجيبة،  
وسرت كإله فوق ذرى المخلوقات.  
شع العالم تحتي جامداً

وفي غبش هذه الرؤى، ومثل صرخة سحرية،  
سمعت لجة البحر الصاخبة،  
وفي مملكة الأطياف والأحلام  
اندفع زبد الأمواج الهادرة.

ثمة إيقاع موسيقي في القصبة النامية عند الشاطئ

أوسونيوس

ثمة ألحان في أمواج البحر  
واتساق في المحاورات العفوية،  
وهمس موسيقي متناغم  
يسري في القصب المتمايل.

هناك اتساق رصين في كل شيء،  
وتناغم كامل في الطبيعة.  
إن حريتنا الوهمية فحسب  
تشعرنا بالتنافر معها.

من أين جاء التنافر وكيف ولد؟  
لماذا لا تغني الروح مع البحر  
في كورس واحد  
ولماذا تشكى القصبة المفكرة؟

لماذا من الأرض حتى أبعد نجم  
لا يوجد جواب حتى الآن  
على الصوت المولول في القفار:  
على احتجاج الروح... اليأس؟

## الصباح في الجبال

تضحك السماء اللازوردية  
متوضئة بالعاصفة المطرية الليلية،  
بين الجبال الندية  
تضفر الوهاد جدائلها المضيئة.  
الضباب يغطي منحدرات  
الجبال الشاهقة إلى منتصفها.  
كأن الأطلال الجوية  
خيام سحرية

## شيشرون

قال الخطيب الروماني،  
وسط صخب المواطنين وقلقهم:  
«نهضت متأخراً وباغتني  
ليل روما في الطريق!»  
أجل! لكن إبان وداعك لمجد روما  
رأيت من فوق مرتفعات الكابيتول  
أقول نجمها الدموي...!  
بكل عظمته.

طوبى لمن زار هذا العالم  
في لحظاته المصيرية.  
لقد دعت الآلهة الخيرة  
كجلس لها في وليمة،  
ومشاهد لمناظر عظيمة،  
واعترفت به مستشاراً لها،  
ورشف كقاطني السماء  
وهو ما زال على قيد الحياة،  
من كأسها الخالد.

## إلى المرأة الروسية

بعيداً عن الشمس والطبيعة،  
بعيداً عن الضوء والفنون،  
بعيداً عن الحياة والحب،  
تُومض سنوات صباك،  
تموت مشاعرك الحية،  
وتذوي أحلامك...  
تمر حياتك مروراً خفياً  
في مكانٍ قفرٍ مغمور  
على أرض مجهولة،  
مثلما يتوارى دخان الغيوم  
في السماء الباهتة المعتمة  
في القبر الخريفي اللامتناهي

## السهاد

دقات الساعة الرتيبة،

وقصة الليل المؤلمة!

واللغة الغريبة على الجميع،

والمفهومة لهم كالوجدان!

من منا أصغى غير مكتئب

عبر الصمت الشامل،

إلى مضايقات الزمن الصماء

وصوت الوداع التنبئي؟

يخيل إلينا: العالم يتيم

باغته قدر محتوم،

ونحن في صراعنا مع الطبيعة كلها

قد عكسناه على أنفسنا ذاتها.

تنتصب حياتنا أمامنا

كشبح على طرف الأرض،

ونحن مع زماننا وأصدقائنا

نشجب في الغيبش البعيد.

إن ارومة يافعة جديدة  
تفتحت تحت الشمس إبان ذلك  
وحملت النسيان منذ أمد بعيد  
لنا ولأصدقائنا وزماننا!

ثمة، مراسيم حزينة  
تجري أحياناً في منتصف الليل،  
وتارة يرثي لنا  
صوت الحديد المطمور.

الطبيعة ليست كما تتصورون:  
وجه أعمى جاف،  
ففي حناياها روح وحرية  
حب وحديث.....

.....  
.....  
.....  
.....  
.....

انتم ترون أوراقاً وألواناً على الشجرة  
أو تحسبون أن البستاني ألصقها؟  
أم أن نضوج الثمار في جوفها الحبيب،  
من فعل قوى ظاهرية غريبة؟

.....  
.....

.....  
.....  
إنها لا ترى ولا تسمع،  
تعيش في عالم كالعمية.  
ويبدو أن الشمس لا تتنفس  
والحياة معدومة في الأمواج البحرية.  
لم تهبط الأشعة في روحها،  
لم يتفتح الربيع في صدرها،  
لم تتحدث الغابات في حضرتها،  
ولزم الليل والنجوم الصمت.

تموج الأنهار والغابات  
بأحاديث سماوية،  
ولم تشارك في سمرها الودي  
ليلاً، العاصفة المطرية!

لا ذنب لهم في ذلك، افهموا إذا استطعتم  
فأرغن الحياة أصم أبكم،  
لا روح فيه وأسفاه  
ولا يثيره حتى صوت الأم ذاتها.

عام ١٨٥٦ (٥٣)

نقف كالعميان أمام القدر،  
فلسنا من يمزق حجبه...  
أنا لا أكشف نفسي لك،  
بل هذيان الأرواح التنبؤية...

مازلنا بعيدين عن الغابة،  
العاصفة تزمجر، العاصفة تنمو،  
وها هي السنة الجديدة تولد،  
في نهد حديدي وبين الرعود...

ملاحها صارمة رهيبة،  
الدم على يديها وجبهتها...  
لم تحمل معها للناس على الأرض  
خطر الحرب فقط.

لن تكون مجرد مقاتلة،  
بل منفذة للقصاص الإلهي،  
وستوجه - كمنتقم أخير -  
الضربة المدبرة من أمد بعيد...

---

٥٣. السنة التي وقعت فيها حرب القرم وهزمت فيها روسيا.

لقد جاءت للقتال والتنكيل،  
وحملت معها سيفين:  
أحدهما سيف مدمى محارب،  
والآخر بلطة سفاح.

ولكن لمن؟... أهنك عنق واحد؟  
هل الشعب كله مقضي عليه؟...  
الكلمات مبهمة وقدرية،  
وحلم القبور مضطرب...

على من تولولين أيتها الرياح الليلية  
ولماذا تثنين أنيناً مريعاً  
ماذا يعني صوتك الغريب  
الصامت الشاكي والصاخب أحياناً؟  
إنك تتحدثين عن العذابات الغامضة  
بلغة يفهمها القلب،  
وتجوسين الفؤاد وتفجرين  
أحياناً صخباً أهوج!...

أه، لا تغني أغنياتك المريعة تلك  
عن الفوضى المحلية الغابرة!  
كم يتوق عالم الروح  
للإصغاء إلى قصص الحب ليلاً!  
ويتحرق للانفلات من الصدر الميت  
والاندماج مع اللامتناهي...

آه، لا توقظي العواصف الغافية،  
ولا تحركي الفوضى التي تحتها! ...

أواه، أيتها الروح المتنبئة  
أواه، أيها القلب الزاخر بالقلق  
أواه، كم تخفق عند العتبة  
كما لو كنت تعيش عالمين!  
أجل، أنت تسكن عالمين،  
فنهارك حزين وملتهب،  
وحلمك متنبئ مبهم،  
مثل بوح الروح ...

دع العواطف القدرية  
تضطرب في صدرك المتألم.  
فالروح متأهبة مثل مريم  
للمكوث دائماً عند أقدام المسيح  
عرفت عينيك، ويا لها من عيون،  
الله يعلم كم أحببتها!  
لم أستطع انتزاع روعي  
من ليلها السحري الحميم.

تجار الأفهام في كنه هذه النظرة،  
ففيها تتعري أعماق الحياة،  
وتتجلى الشجون  
ولجج العواطف!

تنفسُ كثيراً متبحراً  
في ظلال أهدابها الكثيفة،  
مثل متعة تعبي  
مثل معاناة جبرية.

لم أستطع ولو مرة واحدة  
في هذه اللحظات الرائعة  
ملاقاتها بلا انفعال  
والتمتع بها دون دموع.

ثمة فترة قصيرة مذهشة  
في مستهل الخريف،  
تتعاقب فيها طوال الأيام  
أماسي بلورية مشعة...

حيثما يتجول المنجل الجدل، تتساقط السنابل.  
خلا المكان كله، لا شيء غير الفضاء  
ونسيج شعيرات رقيقة،  
تلمع في الأحاديث الخاملة.

أقفر الهواء، ولم تسمع زقزقة العصافير،  
لكن لا زالت بعيدة أولى العواصف الشتوية،  
وما طفقت تنسكب الزرقة الدافئة  
على الحقول المستريحة.

ما أجملك ليلاً أيها البحر،  
هنا شعاع، هنالك زرقة رمادية وعممة...

أنت تروح وتجيء، تتنفس وتسطم  
كمخلوق حي في هالة القمر...

في المدى الموجي المترامي  
سطوع وحركة، قصف ورعد...  
أيها البحر السابح في الشعاع الباهت،  
ما اروعك في الليل المقفر من الناس!  
أيتها التموجات العظيمة، أيتها التموجات البحرية

بُعِيد من تحتفين بحلتك هذه؟  
الأمواج تتدفق صاخبة لامعة،  
والنجوم ترنو، من الأعالي متلاطفة...  
وقفت كما لو كنت في حلم، ضائعاً  
بين الصخب والاشعاعات-  
آه كم رغبت أن أغمر  
روحي في ذلك السحر...

١٨٦٥

## النهار والليل

في عالم الأرواح الغامضة،  
وفي هاوية الأسماء المجهولة  
ألقت إرادة الآلهة المجيدة  
وشاحاً ذهبياً.

فولد النهار من ذلك الوشاح اللامع  
وحياة الانسان

وبلسم الأرواح المتألّمة  
وصديق الإنسان والآلهة.  
لكن النهار يذوي والليل يهبط،  
لقد جاء من عالم مميت  
ومزق نسيج الوشاح المقدس  
ورماه جانباً...

وتكشفت الهاوية لناظرينا  
بكل هولها وعمتها،  
لا حاجز بيننا وبينها.

ولهذا يعترينا الفزع في الليل!

## عشية ذكرى الرابع من آب ١٨٦٤

ها أنا أتجول بمحاذاة الشارع  
في الضوء الهادئ ليوم آفل،  
بؤادي مثقل وقدماي جامدتان...  
فهل تراني يا صديقي العزيز؟

كل ما يحيط بالأرض يزداد ظلاماً وعتمة،  
لقد هرب آخر ضوء للنهار...  
هذا هو العالم الذي نحيا فيه معاً  
فهل تراني يا ملاكي؟

غداً يوم الصلاة والأحزان،  
غداً ذكرى اليوم المحتوم،  
يا ملاكي، أينما سكنت روعي  
فهل تراني يا ملاكي؟

أحب عينيك يا صديقتي  
ولهو هما الحماسي الرائع،  
فعندما ترفعينهما بغتة  
كانما وميض سماوي يعدو  
ملقياً بأطواقه كاملة...

لكن هناك سحراً أروع:  
عينك المطرقتان الساجيتان  
في لحظات القبل الحارة،  
ونار الرغبة الباهتة العابسة  
من بين أهدابك المسدلة...

مهما بلغ عسر الساعة الأخيرة  
فالغموض يكتنف  
آلام الموت الواهنة،  
ولكن أكثر ما يفزع الروح  
أن تراقب كيف تموت  
أفضل الذكريات فيها...

ليس ثمة يوم لا تتوجع فيه الروح  
أو لا تتألم على الماضي،  
إنها تبحث عن الكلمات، فلا تجدها  
وتجف، وتجف كل يوم.

إنها أشبه بامرئ تضيئه  
الكأبة المحرقة إلى وطنه  
ثم عرف بغتة أن الموج  
حمله إلى أعماق البحر.

## أفاناسي فيت

AFANASY FET

(١٨٢٠-١٨٩٢)

- ولد في عائلة ملاك اسمع شينشين، ثم اكتشفت الكنيسة أنه ولد من فيت زوج أمه الأول فحمل لقبه الذي عرف به في الأوساط الأدبية، وفي شيخوخته طلب إرجاع لقب شينشين له وتحقق ما أراد.

- دخل جامعة موسكو وقضى فيها ست سنوات - مدة الدراسة أربعة اعوام - لضعفه في الدراسة. وبدأ ينظم الشعر منذ السنة الأولى في الجامعة.

- لعب الناقد أبولون غريغوريف دوراً مهماً في حياته، فقد كان طالباً معه ويرأس حلقة تهتم بالقضايا الفلسفية والشعرية.

- بدأ العمل في مجلة «أيتشفينيه زايسكي» منذ عام ١٨٤٢ وأخذ ينشر قصائده فيها.

- بعد إنهاء دراسته الجامعية التحق بالجيش وعمل فيه لمدة تسع سنوات مما أبعده عن الأوساط الأدبية.

في الستينات تزوج واشترى أراض واسعة في محافظة أورلوف وأخذ يعتني بمزرعته. وواصل في الوقت ذاته نشر المقالات مدافعاً عن مصالح الملاكين ومهاجماً الاتجاهات اليسارية.

- أخذ يتعد في السبعينات عن الحياة الأدبية والأدباء وظل ليف  
تولستوي صديقه الوحيد من بين كُتَّاب هذه الفترة.

- توفي في موسكو في ٢١ تشرين الثاني عام ١٨٩٢

## جئتك بالتحايا

لأخبرك أن الشمس قد أشرقت.

وأن سناها اللاهب

طفق يرتعش على الأوراق،

لأخبرك أن الغابة استيقظت،

استيقظت كلها، وبكل غصن فيها،

وضجت العصافير فيها

يحدوها ظمأ للربيع،

لأخبرك، أنني عدت إليك ثانية،

بلواعج الأمس ذاتها،

وأن الفؤاد ما زال على العهد.

مستعد لخدمتك أنت والسعادة،

لأخبرك أن أنسام الفرح

تهب علي من كل صوب،

وأنني لست أدري ما سأغنيه-

وأعرف فقط أن الأغنية تنضج.

## الصفصافة وشجرة البتولا

حبيبة إليّ أشجار البتولا في الشمال،  
إنّ طلعتها الحزينة المطرقة  
تسكب البرودة على حرارة فؤادي،  
كحديث جدثٍ صامت.

لكن الصفصافة بأوراقها الطويلة  
المتساقطة على المياه الصافية،  
أكثر تناغماً مع الأحلام المعذبة،  
وأطول بقاء في ذاكرتي.

يهمي الدمع الدفين  
على الغابات والمروج الحبيبة،  
وتبوح أشجار البتولا هامسة بآلامها  
إلى ريح الشمال وحدها فقط.

الصفصافة الباكية مالت  
بأطراف أفنانها في كل مكان،  
أسوانة، يتيمة، تخال أن  
أديم الأرض هو موطن الأحران.

العاصفة في المساء،  
ولجب البحر الغاضب.  
عاصفة وفكر في البحر،  
فكر كثر معذبة -  
عاصفة وفكر في البحر،  
غمر من الفكر النامية،  
غمامة داجية إثر غمامة،  
ولجب البحر الغاضب.

١٨٤٢

لم يستطع أن يصلنا بعد  
شذى مسرات الربيع،  
الوهاد ما زالت حافلة بالثلوج،  
العربة ما فتئت تصلصل في الفجر  
فوق الدروب الثلجية.

الشمس تكاد تنشر الدفء هنيهة عند الظهيرة  
ويتورد الزيزفون في الأعالي،  
وغابة البتولا الشفافة تميل إلى الصفرة،  
والهزار الهاجع في شجيرة عنب الثعلب  
لم يجرؤ بعد على الغناء.

لكن الغرائيق في طيرانها  
تحمل أنباء البعث المنعشة  
رانية بنواظرها  
إلى السهول الممتدة الفاتنة،

المخضبة وجناتها بحمرة زرقاء

١٨٥٤

في ليلة من ليالي الجنوب، على كومة أعشاب  
استلقيت ميمماً وجهي صوب السماء  
منظومة النجوم المتناثرة حولها،  
تضيء وتختلج متناغمة منتعشة.  
الأرض بكماء كحلّم مشوش،  
تتوارى في المنأى المجهول،  
وأنا مثل أول قاطن للفردوس،  
حدقت وحدي في وجه الليل.

أنا السائر إلى هاوية الليل السحيقاً  
أم أن جموع النجوم تسير نحوي؟  
خيل إليّ أني أتدلى من يد جبارة  
فوق هذه الهاوية.

وَجِلًّا، مضطرباً

قست بنواظري أعماق الهاوية  
التي أغرق فيها كل لحظة  
دونما عودة

١٨٥٧

ما أروع إكليلك الندي، يا إمفيتريت<sup>(٥٤)</sup>  
عند إطلالة الصباح الألقّة!

٥٤. آلهة البحر عند اليونان.

بطوي الفجر الشرق  
كالنار والصدف الشفاف!

الطحلب البحري في المنعطفات المترامية  
انجرف بعيداً على الرمال،  
وانسابت قبة السماء على الماء  
ورشت الخليج بألوان وردية.  
أطلت جريرة فوق الظلال الخضراء  
لا حركة ولا شوشة في السكون،  
ومال على المياه المالحة،  
القصب المغطى بقطرات كبيرة.

١٨٥٧

## وردة تشرين الأول

فرجت شفافها القرمزية  
لتأوهات الزمهير الصباحية  
يا لغرابة ابتسامه الوردة  
في نهار تشرين الأول، السريع الفرار!  
تتقدم الملكة بجرأة  
وعلى ثغرها تحية الربيع،  
نحو الزرقة الحائمة  
بين الشجيرات العارية أفنانها منذ أمد بعيد.  
لتزدهر أمانها الراسخة.  
ويغادر صدرها فراش البرد،  
وتلتصق نشوانه للمرة الأخيرة،  
بصدر ضيف فتي!

١٨٩٠

الغبار في المنأى  
كسحابة متموجة،  
لا يرى في الغبار  
أرجل أم خيال!

أرى امرأً يشب  
على جواد منطلق  
يا خليلي، يا خليلي البعدي!  
تذكرني!

١٨٤٣

الهمس والأنفاس الوجلة،  
وأغنية البلابل،  
الفضة وصلصلة  
الجداول الوسنانة،  
سنا الليل، ظلال الليل،  
أفياء لا متناهية،  
صفّ من التغيرات الساحرة  
على الوجه الحبيب،  
في الغيوم الداخنة حمرة الزهور،  
ولمعان كانون الثاني،  
والقبل والدموع  
والفجر، الفجر! ...

١٨٥٠

يا للسعادة: الليل، ونحن وحدنا!  
النهر - كالمرآة ومتلألئ كله بالنجوم،  
هناك... ألقى رأسك وتطلّعي:  
يا لها من سماء عميقة صافية فوقنا!  
أواه، صيفيني بالجنون اسميني

كما تشائين، ففي هذه اللحظة يضعف لُبي  
وأحس في فؤادي دقات الهوى  
فلا أستطيع الصمت ولا أقدر عليه ولا أعرفه!  
إنني عليل، إنني صبّ، ومع عذابي ووجدي -  
آه.. اصغني إليّ! افهميني! - فأنا لا أخفي هيامي،  
وأريدك أن أقول، إنني أحبك أنت،  
أحبك أنت وحدك وأتمنّاك!

١٨٥٤

## ليل أيار مرة أخرى

يا لك من ليل! على كل شيء يلوح النعيم!  
شكراً لك يا مكان منتصف الليل الحبيب!  
من مملكة الجليد، من مملكة السواقي والثلوج  
ينطلق أيار غضباً نقياً!

يا لك من ليل! النجوم كلها حتى الوحيدة  
ترنو إلى روعي من جديد، دافئة وديعة،  
ومع النسيم وراء أغنية العندليب  
يشيع القلق والحب.

أشجار البتولا تنتظر. أوراقها نصف الشفافة  
تجذب البصر وتُمنيه بحياء.  
إنها ترتجف، كفتاة في ثياب العرس الجديدة  
غريبة عليها حلتها وفرحة بها.

كلا، لم يستطع وجهك سابقاً أيها الليل  
أن يشوقني برقته وروحانيته كما شوقني الآن؟  
أمضي اليك مرة أخرى بأغنية عابرة  
عابرة، ولربما تكون الأخيرة

هذا الصباح، هذا الحبور،  
هذا جبروت النهار والضوء،  
هذه القبة الزرقاء،  
هذا الصخب والحشود،  
هذه الأسراب والعصافير،  
هذه وشوشة المياه،  
هذا الصفصاف وأشجار البتولا  
هذه القطرات - هذه العبرات،  
هذا زغب - لا ورق  
هذي النجاد، هذي الوهاد،  
هذا البعوض، هذا النحل،  
هذا الصخب والصفير،  
هذه الأشجار بلا عتمة،  
هذه الآهات في ليالي الريف،  
هذا ليل بلا رقاد  
هذا الدجى ولظى الفراش،  
هذا الهشيم وهذه الزغاريد،  
كل هذا - هو الربيع

١٨٨١

إذا أتاك الصباح بالأفراح،  
إذا آمنت بالحظ الرائع -  
إذا أحببت لبرهة، للحظة فحسب،  
أهد هذه الزهرة للشاعر.

لو أحييت أحداً، لو قاسبت  
من زوايع الحياة، ولست وحيداً في ذلك،  
فإنك ستجد في الشعر المؤثر  
هذه الزهرة الشذية دائماً

١٨٨٧

## ياكوف بولونسكي

YAKOV POLONSKY

١٨١٩-١٨٩٨

- كان أبوه موظفاً صغيراً محدود التفكير والثقافة في مقاطعة ريازان.
- فقد والدته سنة ١٨٣٠ ودخل المدرسة عام ١٨٣١ وبدأ فيها أولى محاولات الشعرية.
- سافر عام ١٨٣٩ إلى موسكو لأداء امتحانات القبول في الجامعة وهو لا يملك قرشاً واحداً.
- دخل كلية الحقوق وتعرف على أبولون غريغوريف وفيت ويسيمسكي وغيرهم من الذين لعبوا دوراً في الحياة الأدبية في وقت لاحق.
- أثر بيلينسكي في تكوينه الفكري في الأربعينات وكان قد تعرف عليه في تلك الفترة.
- أنهى الجامعة عام ١٨٤٤ وذهب إلى أوديسيا عام ١٨٤٥ بعد أن ضاق ذرعاً بحياة موسكو ثم انتقل بعدها إلى العمل في تفليس عاصمة جورجيا.
- ذهب إلى بطرسبورغ عام ١٨٥١ بعد قضاء خمس سنوات في الففقاس. أخذ يكتب القصص والحكايات والمقالات في الجرائد لغرض سد احتياجاته المادية.

## البجع

قوس الكمان يرتعش، في الحديقة تسطع  
الأنوار، الجمهور رائح غاد،  
الريح وحدها هاجعة، ومظلمة  
قبة سماء الليل.

مظلمة البركة الخضراء،  
والقصب الكثيف أيضاً.  
حيث يشقى البجع المسكين،  
مختبئاً في سكون الليل.

يموت، دون أن يرى  
- وهو الوديع الوحيد -  
صاروخاً يحلق في الفضاء  
ناثراً نيرانه،

لم يسمع خرير المياه،  
ولا همس الينبوع عند الشاطئ.  
أغمض عينيه وحلم  
بالتحليق فوق الغيوم.

في فضاء السماء السامقة

يحملة الطيران-

ويالها من أغنية

ملهمة يغنيها!

كل ما هو مقدس،

يخفيه عن الناس،

ويرجع سرب البجع الأبيض

من ذوي القربى، صداه.

ها هو ذا يحلم : لحظة

يتنهد ويضرب بجناحيه،

وأغنيته الطليقة

تبشر بالصباح.

لكن الجناح لم يتحرك،

وتاهت الأغنية في ذهنه:

بلا طيران، بلا أغنية

احتضر في عتمة خافتة.

بين القصب، وحفيف الأوراق

تسلل الريح...

في الحدائق حوله تسطع

الأنوار وقوس الكمان يرتعش.

١٨٨٨

## الجرس

همدت العاصفة الثلجية... وأنير الطريق...  
الليل يرنو بملايين العيون الخابية...  
خذني للرقاد، يا رنين الجرس!  
احمليني، أيتها الترويكا<sup>(٥٥)</sup> المتعبة  
دخان الغيوم الكدر في المدى البارد  
أخذ يصفو، وطيف القمر الأبيض  
يرمق رוחي ويكسو كآبتي الماضية  
في أحلام منسية.  
بغثة سمعت صوتاً عاطفياً شادياً،  
متناغماً مع رنين الجرس:  
«أواه، أيان، أيان يأتي حبيبي  
ليستريح على صدري!  
أي حياة سأهبها لك! فما يكاد يطل الفجر من النافذة  
حتى يلاعب شعاعه الجليد،  
عندما يغلي سماوري<sup>(٥٦)</sup> على منضدة من خشب البلوط،  
ويطقطق موقدي منيراً في الركن،

٥٥. عربة ذات خيول ثلاثة.

٥٦. إناء يحضر فيه الشاي.

وسريري خلف الستائر الملونة...  
أي حياة سأهبها لك! حينما أفتح نافذتي ليلاً،  
ينساب شعاع البدر الذهبي على الجدار،  
حينما تثور العاصفة الثلجية، فإن مصباحي يحترق،  
عندما أغفو فإن فؤادي مسهد،  
كل ما فيه تضنيه الكآبة!»

فجأة، طرق مسمعي الصوت المغني نفسه،  
متناغماً بحزن مع رنين الجرس:  
«اين صديقي القديم؟ أخشى ان يدخل  
ويضمني إليه مترفقاً!  
أي حياة سأهبها لك! - إن غرفتي ضيقة  
معتمة، كثيبة، والريح تنفذ من الشباك،  
إن شجرة الكرز وحدها تنمو وراء النافذة،  
لكن لا يمكن حتى رؤيتها من الزجاج المغمور بالثلج،  
ولعلها قد هلكت منذ أمد بعيد...  
يا لها من حياة! لقد بهتت الوان الستائر الزاهية،  
أنا أتجول عليلة ولا أزور أقربائي،  
لن يوبخني أحد، فحبيبي غائب...  
لا أحد سوى عجوز تشتم عندما يزورني الجيران  
لأنني منشرحة معهم...»

## الليل

لماذا أهواك، أيها الليل المضيء -  
أهواك هوى يبرح روعي حينما أستمتع بك!  
ومالي هائم بك، أيها الليل الساكن!  
أنت لا تهب الراحة لي، وإنما لغيري!

مالي وما للنجوم والقمر والسماء والغيوم  
وهذا الضوء المنساب على الأحجار الباردة  
- محولاً ندى الأزهار إلى الماس -  
يعدو نحو البحر، مثل طريق ذهبي؟

أيها الليل! لماذا أحب ضوءك الفضي!  
أتخففُ كرب الدموع الدفينة،  
أتمنح القلب الصادي أمانيه،  
وتجيب عن سؤال الشكوك الثقيل!

مالي وما لسحر التلال وارتعاش الأوراق الوسنانة  
وأمواج البحر المعتم الصاخبة أبداً،  
وأصوات خشاش الحدائق في الظلام  
وحديث الينابيع الدافق المتناغم؟

أيها الليل! لماذا أهوى صخبك المبهم!

ابروح أعماق الروح المحمومة  
أبهدي عاصفة الأفكار المتمردة؟  
كل شيء أشد حرارة في الظلام وأوضح صوتاً في السكون.  
لست أدري، لماذا أهواك أيها الليل،  
أهواك هوى يرح روحى حينما أستمتع بك!  
لست أدري، لماذا أهواك أيها الليل،  
لعلني أهواك لأن الهدوء ناءٍ عني.

أليست عواظي  
تثير العواصف  
وليس بوسعي  
صراع العواصف؟

هبّت العاصفة  
والأفكار والبرد،  
وأمرت الغيوم  
على الحديدية الخضراء.

رباه! على أوراق  
الزهرة الساقطة  
لآلاء كالماس  
أوليس هو دموعي؟

أم لدى الطبيعة  
كما للقلب في الحياة،  
بسمتها  
وفواجعها؟

## أغنية غجرية

حطبي المشتعل يضيء في الضباب،  
الشرر المتصاعد يتلاشى...  
لم نلتقَ أحداً في الليل،  
وغمغنا بالوداع عند الجسر.

مضى الليل وفي الصباح الباكر  
ابتعد حبيبي في السهل،  
مضيت مع معشر الغجر،  
في عربة البدو.

عقدت لي في الوداع ربطة  
من شال مزخرف الحاشية،  
ومثل طرفيه  
تحاينا في تلك الأيام.

من يتنبأ لي بلوح الغيب  
يا صقري، من غداً  
يفك عن صدري  
الربطة التي عقدتها؟

اذكرني إذا عشقت  
حبيبةً أخرى عندما  
تغني لك الأغاني وتعزف  
عند مرفقك!

حطبي المشتعل يضيء في الضباب،  
الشرر المتصاعد يتلاشى...  
لم تلتق أحداً في الليل،  
وغمغنا بالوداع عند الجسر.

١٨٥٣

## قُبلة

ليس عبثاً أن أقبلك هذه القبل الحارة  
ففيها يذوب عقلي وقلبي وذاكرتي،  
قبّلتك، لكن أمام الآخرين.  
أخفي عواطفني، وكنت خجولاً أخرس،  
لأجلك يا من أحرقتني دون نار،  
وضحكت وعذبتني طويلاً  
لأجلك يا من كان حبها درعاً لي،  
والنائمة هامة تحت صليب اللحد.  
فلينطفئ كل ما اشتعل في قلبي  
بين أحضانك.

١٨٦٣

## في البوم ك.ش...

إذا كان الأديب موجة  
والمحيط روسيا،  
فلا يقدر ألا يغضب  
عندما يغضب المحيط.  
إذا كان الأديب عصب  
الشعب العظيم،  
فلا يمكن ألا يهزم  
عندما تهزم الحرية

١٨٧١

## ألكسي تولستوي

ALEKSY TOLSTOY

(١٨١٧-١٨٧٥)

- ينتمي إلى أسرة أرستقراطية من أسر بطرسبورغ. وهو ليس ليف تولستوي صاحب روايات «الحرب والسلام» و «آنا كارنينا» و «البعث»، وإنما يحمل اللقب نفسه.

- انفصلت أمه عن أبيه بعد ولادته بفترة قصيرة. قامت والدته بتربيته عند أهلها في أوكرانيا، حيث قضى طفولة حلوة صافية، ولم يكن لأبيه أي أثر في حياته.

- اخذته والدته عام ١٨٣١ إلى إيطاليا التي أعجب بأثارها الرائعة ومعالمها الفنية المتميزة.

- عمل منذ ١٨٣٤ في أرشيف وزارة الخارجية، ثم في البعثة الروسية الدبلوماسية في ألمانيا سنة ١٨٣٧. في عام ١٨٤٠ اشتغل في مؤسسة حقوقية، وبدأ نشاطه الأدبي ولو أنه لم ينشر كثيراً في الأربعينات.

- التقى في شتاء ١٨٥٠-١٨٥١ بصوفيا أندريفنا المرأة المثقفة ذات الحس الأدبي المرهف وأحبها.

- كان لها تأثير كبير في توجيهه الشعري وفي حياته. وكانت متزوجة فطلبت الطلاق من زوجها لكنه رفض ذلك. وقفت أم تولستوي

ضد هذا الزواج أيضاً. ولم يستطع الاقتران بها إلا عام ١٨٦٣ .  
وكرس لها معظم قصائده الغنائية.

- استطاع التحرر من العمل الوظيفي عام ١٨٦١ . أحال نفسه على  
التقاعد وانصرف إلى العمل الأدبي الذي استقطب اهتمامه .

- عاش معظم الوقت في ضيعته بوستينك وقلما كان يذهب إلى  
بترسبورغ .

## الأمير ميخائيل ريبنين

إيفان فاسيليتش الرهيب مع حاشيته المقدامة  
يُولِمُ الولايم دون كلل قرب موسكو الأم  
صفوف الموائد تتألق بالكؤوس الذهبية،  
وخلفها يجلس الأبريتشنيكي<sup>(٥٧)</sup> المتهتكون،  
منذ صلاة الغروب يراق النبيذ على سجاد القيصر،  
يغني له منذ منتصف الليل العازفون المتحمسون،  
يغنون أفراح الحرب ومعارك الأزمان الغابرة،  
وأسر القازانيين وسبي الاستراخنيين  
أصوات الأمجاد الماضية لاتفرح القيصر  
ويأمر سقاة الخمر أن يناولوه قناعاً.  
«البعش ضباطي والأبريتشنيكي!  
وانتم ايها الشعراء والبلابل، غنوا عالياً واضربوا على الأوتار،  
لِيُخْتَرِ كُلُّ منكم أيها الأصدقاء قناعاً  
وأكون البادئ الأول في الرقصة الدائرية المرحّة!  
اتبعوني يا ضباطي والأبريتشنيكي!  
وانتم ايها الشعراء غنوا عالياً، واضربوا على الأوتار!»

٥٧. الأبريتشنيكي - فنة حاكمة كَوْنُها وقواها القيصر إيفان الرابع - الذي ساد الإرهاب والظلم في عهده - لمناوئة ملاكي الأرض والقضاء على نفوذهم.

رفع الجميع كؤوسهم، ثمة امرؤ لم يرفعه،  
هناك امرؤ لم يرفع الكأس، إنه الأمير ميخائيل ريبنين.  
«وأسفاه أيها الملك، لقد نسيت ربك ونسيت مقامك،  
أيها الملك!

ومن نكد حظنا أن يحيط الأبريتشنيكي عرشك!  
فَرَّقْ بأوامرك الملكية حشد أطفال إبليس!  
أيليق بك يا حاكمنا أن ترقص هنا مقنعا!  
قَطَّبَ القيصر حاجبيه: «أوهن عقلك،  
أم أنت مخمور للغاية؟ صه، أيها العبد المتمرد!  
لا تنبس بكلمة والبس القناع  
وإلا أقسمت أن تعيش يومك الأخير!»

بعدئذ نهض ريبنين الأمير المخلص ورفع الكأس.  
رسم على صدره علامة الصليب وقال: «الموت للأبريتشنيكي!»  
«ليعيش إلى الأبد القيصر الأرثوذكسي!  
وليحكم الناس كما حكموا في الماضي!

وليحتقر صوت الزيف المخزي، كالخيانة!  
لن ألبس القناع في ساعتى الأخيرة!»  
أنهى حديثه وداس القناع بقدمه،  
هوى الكأس مدوياً من يده على الأرض...

صرخ القيصر متهيجاً «مت أيها الوقح!»  
وَخَرَّ الأمير المخلص صريعاً بحربة ضابط ملكي.  
رُفِعَت الكؤوس ثانية ورنت الأقداح،  
ضحج الأبريتشنيكي وراء الموائد الطويلة،

ودوى ضحكهم واضطربت الوليمة مرة أخرى،

لكن رنين الأقداح لم يعد يبهج القيصر:  
«لقد قتلت، قتلت عبثاً خادماً مخلصاً!

لا أستطيع أن أتذوق الأفراح الآن!»  
عبثاً يراق النيذ على سجاد القيصر  
يغنون أفراح الحرب ومعارك الأزمان الغابرة  
وأسر القازانيين وسبي الاستراخنيين.

١٨٤٠

حدث ذلك مع إطلالة الربيع،  
الأعشاب ولدت توأماً  
الجداول تدفقت والقيظ لما يأت بعد،  
واخضوضرت الغابات،  
حتى مزمار الراعي في الصباح  
لم يغن حتى الآن غناءه الرنان،  
الخنشار الناعم في الغابة  
ما زال في لفافاته،

حدث ذلك مع إطلالة الربيع،  
حدث تحت ظلال أشجار البتولا،  
عندما ابتسمت أمامي.  
وخفضت طرفك...  
خفضت طرفك

جواباً عن حبي،  
أه أيتها الحياة! أيتها الغابة! ويا شعاع الشمس!  
أيها الصبا! أيتها الأمانى!

بكيت أمامك  
متطلعاً إلى ثغرك الحبيب،  
حدث ذلك مع إطلالة الربيع  
حدث تحت ظلال أشجار البتولا!  
حدث ذلك في مطلع أعوامنا،  
آه أيتها السعادة! أيتها الدموع!  
آه أيتها الحياة! أيتها الغابة! ويا شعاع الشمس!  
آه يا شميم أشجار البتولا الغض!

١٨٧١

## مقطع من «يوحنا الدمشقي» (٥٨)

أي حلاوة في هذه الحياة  
البعيدة عن أحزان الأرض؟  
ومن ليست أمانيه سوى عبث،  
وأين السعيد في الأنام؟  
كل ما حصلنا عليه بعناء،  
باطل وزهيد-  
أي مجد على الأرض-  
يظل راسخاً وطيداً؟  
كله رماد، طيف، ظل ودخان،  
كله يتلاشى كتراب تذرره الريح،  
إننا نقف أمام المنون  
عاجزين بلا سلاح.  
اليد الجبارة واهية،  
تافهة المراسيم الملكية،  
أدخِل، أيها الرب، عبدك الظاعن،  
في جنانك الهنية!

٥٨. يوحنا الدمشقي - حفيد منصور بن سرجون، له كتب في اللاهوت والعلوم  
الحيانية وكان معلماً في الكنيسة.

هوي الردى كمقاتل هائج،  
لطمني كوحش ضارٍ،  
كشَّر اللحد عن فكيه،  
وآل كل شيء ذنيوي إليه.  
أنقذوا نفوسكم، ذوي القربى وأطفالكم،  
أهتف بكم من الجدث،  
أنقذوا نفوسكم، إخوانكم، خالانكم،  
لكي لا تروا الهيب الجحيم!  
الحياة كلها مملكة العبث  
وما أن تمسنا أنفاس المنون  
حتى ندوي كالأزهار.  
فلماذا نتدافع على العبث؟  
عروشنا تكاد تكون رموساً،  
قصورنا خرائب،  
أَدْخُلْ، أيها الرب، عبدك الظاعن،  
في جنانك الهنية

من هو الملك أو العبد، القاضي أو المقاتل  
بين أكداس العظام البالية؟  
ومن هو جدير بمملكة الرب  
ومن هو شرير منبوذ منها؟  
آه، أيها الإخوة، أين اللجين والعسجد،  
أين حشود العبيد؟  
من هو الثري ومن هو المُدَقِّع

بين الرموس المجهولة؟  
كل شيء رماد، دخان، عجاج، هباء،  
كل شيء طيف، ظل وشبح.  
عندك أيها الرب  
في سماواتك وحدها، الملاذ والخلص!  
كل ما هو آدمي يتوارى  
وتؤول عظمتنا إلى انحطاط،  
أَدْخُلْ، أيها الرب، عبدك الظاعن  
في جنانك الهنية!

أنت شفيعتنا،  
وأنت حامية المضجوعين  
إليك أيتها القديسة نستصرخ!  
نيابة عن إخواننا الراقدين هنا،  
صَلِّ أيها الابن الرباني  
صل له، هو الطاهر،  
كي يترك قاطنو الأرض  
آلامهم عليها!

كل شيء رماد، هباء، دخان وظل،  
أواه، أيها الأتراب، لا تثقوا بشبح!  
حينما نتنفس في يوم مجهول  
أنفاس الموت العفنة،  
ستهاوى جميعاً كالسنابل  
المحصودة بالمنجل في حقول القمح،

أَدْخِلْ، أَيُّهَا الرَّبُّ، عَبْدُكَ الظَّاعِنَ  
فِي جَنَّاتِكَ الِهِنِيَّةِ!

أَمْضِي فِي دَرْبِ مَجْهُولِ،  
أَمْضِي فِي رِحْلَةِ المَخاوِفِ وَالْأَمالِ،  
نَظْرِي وَاهِنِ، صَدْرِي بارِدِ،  
فِي أذْنِي وَقْرٍ، وَأَجْفانِي مَسْبِلَةٍ،  
أَرْقِدْ أَبْنايَ دُونَ حِراكِ  
لَا أَسْمَعُ نَحِيبِ إِخْوَتِي،  
إِنْ عَبِيرِ الدِّخانِ الْأَزْرَقِ  
لَا يَفْوَحُ لِي،  
إِنِّي أَرْقِدُ رِقاداً أَبْدياً،  
لَكِنْ حَبِيبِي لَا يَفْنِي،  
أَنْضِرْ عِلى إِلَيْكُمْ بِحَبِيبِي أَيُّهَا الإِخْوَةُ  
أَنْ تَصِلُوا إِلَيْكُمْ،  
رَبِّنا! فِي اليَوْمِ الَّذِي يَنْفِخُ بِالْبوقِ  
مَعْلَناً نِهايةَ العالَمِ  
أَدْخِلْ، أَيُّهَا الرَّبُّ، عَبْدُكَ الظَّاعِنَ،  
فِي جَنَّاتِكَ الِهِنِيَّةِ!

١٨٥٨

عَلَى امْتِدادِ طَريقِ وَعَرِ صَلْصالِ  
عَلَى امْتِدادِ شَبابِكِ الصَّيْدِ البَحْرِيَّةِ.  
تَتَرَنِّحُ العَرَبِيَّةُ،  
أَجْلِسُ فِيها وَأَفْكرُ مَتأمِلاً.

أجلس وأرنو من الدرب المنبسط  
إلى النهار الرمادي الكالح،  
إلى ضفاف البحيرة الوعرة  
وإلى دخان القرية البعيدة.

يمر عبر الطريق يهودي  
بأطمار بالية ونظرة متجهمة،  
المياه تتدفق من البحر  
مزبدة هادرة.

هناك طفل يعزف بالمزمار  
متوارٍ بين القصب الأخضر،  
البط الخائف حاول التحليق  
وضجت أصواته فوق البحيرة،  
قرب الطاحونة الهرمة المزعزعة  
يجلس فلاحون على العشب،  
وثمة عربة، يجرها حصان منهك  
متوانٍ، تحمل أكياساً...

كل شيء يبدو مألوفاً لدي  
لكنني ما مررت هنا قط،  
لا بسقف البيت البعيد،  
لا بالطفل أو الغابة أو المياه.

إن حديث الطاحونة المضمني  
والبيدر العتيق،

كله كان موجوداً في حين من الأحيان  
لكنني نسيته منذ أمد بعيد.

هكذا مشى الحصان متوانياً،

هكذا حملوا الأكياس،

هكذا جلس الفلاحون على العشب

قرب الطاحونة المزعزعة.

هكذا سار اليهودي بأطماره البالية

هكذا ضجعت المياه،

كله كان موجوداً في حين من الأحيان،

لكنني لا أذكره أبداً...

١٨٤٠

## بالاداء<sup>(٥٩)</sup> عن المستشار ديلازو.

القاتل الكافر غمد سيفه  
في صدر ديلازو،  
فرقع قبعته قائلاً بأدب:  
«أشكرك»  
وإذا الوغد يغرس السيف الرهيب  
في جنبه الأيسر،  
قال ديلازو: «يال له من سيف  
رائع عندك!»  
وإذا بالوغد يتقدم إليه من جهة اليمين،  
ويغمده فيه،  
ابتسم ديلازو ابتسامة مرحة،  
مهدداً بأصبعه فقط.  
عندئذ طعن الوغد  
جسمه كله،  
قال ديلازو: «تعال وتناول قدح شاي  
في الساعة الثالثة»  
هوى الوغد ساجداً، وهمع الدموع

٥٩. لبس لها تاريخ، نشرت لأول مرة عام ١٩٠٠ في «كتب الأسبوع».

مرتجفاً كالورقة،  
قال ديلارو: «أواه، انهض استحلفك بالله!  
فالأرض هنا قدرة»  
ولكن الوغد ظل ينحب عند قدميه  
متألماً،  
قال ديلارو، باسماً ذراعيه:  
«لم أتوقع!  
أممكن هذا؟ كيف؟ أتبكي هذا البكاء المرير؟  
وعلى شيء تافه؟  
سأسعى لمنحك ترفيلاً، يا عزيزي  
ترفيلاً!  
سيضعون وسام ستانيسلاف على كتفك  
كقدوة للآخرين.  
بمستطاعي الاقتران بابنتي دونيا؟  
ومقابل ذلك  
أهبك مئات الألوف  
من الأوراق النقدية،  
والآن خذ صورتي للذكرى  
كرمز لصداقتنا.  
لم أستطع بعد من وضع إطار لها.  
اقبلها هكذا!»  
حينئذ أضحى وجه الوغد  
أحر من الفلفل.  
القلب الفاسد لا يسمع، وأسفاه،

من يقابل الخير بالشر.  
الروح العالية تثير قلق النفوس الصغيرة  
والنور مريع للظلام.  
القاتل يمكنه التغاضي عن أخذ الصورة  
أما الترفيع، فلا.  
اضطرت سموم الضغينة في الوغد،  
كاللظى  
وما كاد يضع وسام ستانيسلاف  
على كتفه،  
حتى غمس سيفه الوقح بحقد  
في السم  
وزحف نحو ديلا رو حذراً  
وطعن صديقه في الخلف!  
اضطجع ديلا رو على الأرض وأقعدته آلامه  
عن الجلوس على الأريكة.  
وفي الأثناء اغتصب الوغد في الطابق الأعلى  
شرف دويننا.  
وهرب إلى تامبوف، وأصبح حاكماً،  
محبوباً للغاية.  
ومن ثم أصبح نائباً متحمساً في موسكو  
يُجلُّه الجميع.  
وَعَدَا عضواً في مجلس الحكومة  
بعد فترة قصيرة...  
فيها لها من عظة لنا،

ويا له من درس!

في صخب الحفلة الراقصة،  
في قلق البحر الهادر،  
لمحتك فجأة، لكن سرّاً  
غَشَى قسماتك.

نظرة العيون وحدها حزينة  
ورن صوتك بروعة كبيرة،  
كصوت، ناي بعيد،  
كموجة البحر المتراقصة.

أعجبني خصرك الدقيق  
وظلعتك المتأملة كلها،  
وضحكك الرنان الشجي،  
ما فتىء صدهاء يتردد في فؤادي.

في ساعات الوحدة ليلاً  
أحب- وأنا مستلق مضنى  
أن أنظر إلى عينيك الحزيتين،  
وأسمع حديثك الممراح،  
أغفو وأنا حزين  
وأنا في أحلام مجهولة...  
أهواك؟ لست ادري،  
لكن يخيّل إلي أنني أحبك!

## نيقولاى نيكراسوف

NIKOLAY NEKRASOV

(١٨٢١-١٨٧٨)

- كان أبوه ملاكاً قاسياً جلفاً في معاملة عبيده، مما ترك آثاراً أليمة في نفس الشاعر عن بشاعة الاستبداد والطغيان المطلق الذي يعاني منه الأرقاء.

- دخل المدرسة عام ١٨٣٢ وظهرت ميوله نحو نظم الشعر فيها.

- أراد له والده أن يدخل معهداً عسكرياً فأرسله إلى بطرسبورغ لهذا الغرض، لكنه فضل الدخول إلى الجامعة وأخذ يتردد مستمعاً في بعض المحاضرات.

- أثار دخوله الجامعة غضب والده وامتنع عن إمداده بالمال الذي كان يرسله له، مما اضطره إلى البحث عن عمل وترك الجامعة.

- عاش حياة بؤس وإدقاع، ووصل به العوز درجة أنه قام بكتابة رسائل الفلاحين لقاء رغيف خبز أو بضعة قروش لكيلا يموت جوعاً.

- اشتغل عام ١٨٤٦ في مجلة سفريمينيك التي أسسها بوشكين، كان يعمل ساعات طويلة بحيث تعجب هو نفسه إذ لم يصب الشلل يده من شدة إرهاقه لها.

- كانت خاتمة حياته قاسية أيضاً. فقد عانى من آلام مرض السرطان

المبرحة وظل قعيد الفراش لا يفارقه. ومع ذلك ظل يكتب لأن  
الكتابة كانت سلواه الوحيدة.

## قبيل المطر

الريح المولولة تطارد  
سرب الغمام في طرف السماء.  
وأبكة الشربين المتعبة تئن.  
والغابة المعتممة تهمس بغموض.  
على الجدول المتلون المتغير،  
تنطير ورقة إثر ورقة،  
الجدول الخشن الحاد،  
يتسربل بالبرودة.  
تجثم عتمة خفيفة في كل صوب  
تهب الرياح من كل الجهات،  
أسراب الزيغان والغربان  
تدور صارخة في الهواء.  
فوق التاراتايكا العابرة  
المغلقة السطح والصدر،  
بصرخ الشرطي بالحوذي  
«مر!» وهو متأهب ممسك بالسوط.

## الترويكاً (٦٠)

ما لك تنظرين متلهفة إلى الطريق  
بمنأى عن أصحابك المرحين؟  
يعني أن الفؤاد أظهر قلقه -  
وتورد وجهك كله بغتة.  
ما لك تنطلقين مسرعة  
وراء الترويكاً المندفعة؟ ...  
وراءك يمر ضابط تخصّر بجمال،  
وأعجب بك.

ليس غريباً أن يعجب الناس بك،  
فلا أحد يمقت الوقوع في هواك:  
يرفرف الشريط القاني متراقصاً  
في شعرك الفاحم كالليل،

على وجنتيك القرمزيتين السمرأوين  
لاح زغب خفيف،  
وتحت حاجبيك المستديرين  
تطل عينان جذلتان ساهيتان.

---

٦٠. عربة ذات خيول ثلاثة.

نظرة من المتوحشة، سوداء الحاجبين  
مفعمة سحراً، تشعل الدماء!  
وإذا المعوز يفلس من تقديم الهدايا النفيسة  
والهوى يتقد في فؤاد الفتى.

سحجين وتبتهجين ملء رغبتك،  
حياتك مترعة هيئة...  
لكن مصيراً مغائراً ينتظرك،  
لسوف تتزوجين فلاحاً قذراً.

سربطين صدرية تحت الإبطين  
ويغدو صدرك مشوهاً،  
سيضربك زوجك الصارم،  
وتستغلك حماتك بلا رحمة.

من العمل البدني الشاق المضني  
ستذوين قبلما تستطعين أن تفتحي،  
وتغور أحاسيسك في رقاد عميق،  
فتربين وتعملين وتأكلين.

على وجهك الطافح حيوية،  
الزائر بالحياة، ستظهر فجأة  
تعايير الصبر البليد،  
والوجل الغبي الأبدي.

ستوبين في لحد رطب؟  
بعدهما تقطعين دربك الوعر،

قوتك نضبت سدى  
وصدرك لم يدفته أحد.

لا تنظري كثيبة إلى الطريق  
ولا تسرعي في أثر الترويك،  
القلق الأسوان في فؤادك  
اكبحيه سريعاً وإلى الأبد!

لن تلحق بك أيتها الترويك المنطلقة:  
فالجياذ قوية شبعى ونشطة  
والحوذي نشوان، ولفتاة أخرى  
يندفع الضابط الشاب مسرعاً...

١٨٤٦

حينما أسير ليلاً في الشوارع المظلمة،  
أو أصغي إلى العاصفة في يوم متجهم،  
فإن ظلك يلوح فجأة أمامي،  
يا صديقتي العزلاء العليلة الشريدة!  
وتعتصر قلبي فكر معذبة.  
أبغضك القدر منذ طفولتك:

كان أبوك العبوس مدقعا منكوداً،  
تزوجت امرأ وأنت تحبين غيره.  
وكان نصيبك زوجاً فظاً  
ذا طبع متهيج ويد غليظة  
لم تستكيني له، تحررت منه،

ولم تلتقي بي لنيل الأفراح...

\*\*\*

أتذكرين يوماً، كنت عليلًا ساغباً  
معدباً واهنَ القوى؟  
في غرفتنا الخاوية الباردة،  
طاف بخار أنفاسنا متموجاً.  
أتذكرين أنين المدخنة المفجع  
ورشاش المطر والضوء والعتمة الخافتين؟  
بكي ابنك، ودفأت  
بيديه الباردتين بأنفاسك.  
لم يسكت، كان صوت عويله  
نفاذاً... اشتد الظلام،  
بكي الطفل كثيراً ومات...  
يا لك من بائسة! لا تسفكي دموعك سدى!  
غداً كلانا سننام، من الطوى والآلام،  
مثل هذه النوم العميقة الحلوة،  
وبيتاع السيد شاتماً، ثلاثة توأبيت  
ويضعوننا فيها معاً ونرقد جنب إلى جنب...

\*\*\*

جلسنا متجهمين في أركان متفرقة  
أذكر، أنك كنت شاحبة واهنة،  
خالجت نفسك فكر خفية،  
وتنازع الصراع قلبك.

غلبني النعاس، وذهبت صامتة،  
ارتديت حلة قشبية كما لو كنت تتأهبين لعرس،  
وبعد سويعة حملت مسرعة،  
كفن الطفل الصغير وعشاء والدك.  
أخمدنا جوعنا الضاري،  
أوقدنا النار في الغرفة المعتمة،  
وكفنا الطفل ووضعناه في التابوت...  
أنقذنا القدر؟ أم الرب أعاننا،  
لم تسرعني للبوح باعترافك الحزين!  
لم أسألك شيئاً،  
نظرنا.. كلانا ناحبين فحسب  
وكنتُ عبوساً مغتاضاً فقط...

\*\*\*

أين أنت الآن؟ هل حطمت الصراع  
الضاري مع الإدقاع المر؟  
أم مضيت في الدرب المألوف  
وسيدور مصيرك دورته المحتومة؟  
من يحميك؟ الجميع بلا استثناء  
سينادونك بالاسم الرهيب،  
وستتحرك اللعنات فيّ وحدي  
لتموت بلا جدوى!...

١٨٤٧

بالأمس، في الساعة السادسة

عرجت على ساحة السينيا<sup>(٦١)</sup>

هناك جُلدت امرأة،

فلاحة شابة بالمقرعة

لا آتة تصدر منها

السوط وحده يتعالى فحيحه وينشط...

قلت لربة الشعر: «انظري!

إلى أختك وقريبتك!»

١٨٤٨

٦١. ساحة بطرسبورغ كان المذنبون يجلدون فيها.

## مقتطف من «في القرية»

### بكاء فلاحه عجوز

طاب نهارك أيتها العزيزة «كيف حالك يا جارة؟  
أمازلت تبكين؟  
هل هناك فكر شجية تجوب قلبك،  
وما برحت تمسك به؟»  
كيف لا أنوح؟ لقد هلكت، أنا المخطئة!  
فؤادي يتمزق ويؤلمني...  
«مات كاسيونوفا، مات، عزيزي،  
مات وواروه في الأرض!»

\*\*\*

ألم ينقض على مخلوق كربه!  
ألم يكن ابني شجاعاً؟  
أربعون دباً سقطوا بنصاله.  
وخر صريعاً في صيد الواحد والأربعين،  
كان فارع القامة، يدها حديدتان،  
كتفاه عريضان،  
مات، كاسيونوفا، مات، عزيزي،

هذا هو اليوم الثالث عشر!

\*\*\*

سلخت جلود الدببة وبيعت،  
بمبلغ سبعة عشر روبلاً  
أعطيتها صدقة عن روح سافوشكا المسكين  
ليسكنه الله ملكوت سماواته!  
دفعت السيدة الطيبة ماريا رومانوفا  
تكاليف الدفن...  
مات، حبيبي، مات، كاسيونوفا،  
حالماً أو شكت على الوصول إلى البيت.

\*\*\*

الريح ترنح داري البائس،  
المخزن يتهدم إلى كسرٍ  
مضيت في الدرب مسلوقة اللب،  
أأصادف ابني؟  
لو أخذ فأسه، لهانت المصيبة  
وهدأت أمه...  
مات، كاسيونوفا، مات عزيزي،  
وما حاجتي للفأس؟ سأبيعه

\*\*\*

من بسلي العجوز الوحيدة،  
لقد حلّ بها البؤس أخيراً!  
في الخريف الماطر والشتاء البارد

من يدخر لي الحطب؟  
و حينما يبلى معطف الفرو  
من يصطاد لي أرانب أخرى؟  
مات، كاسيونوفا، مات، عزيزي،  
وما نفع البندقية الآن!

\*\*\*

ثق يا عزيزي: من الكرب والقلق  
غدا العالم مقيتاً لدي!  
اهجع في غرفتي، وتحيطني الشباك  
كما لو كنت في كفن... كلا!  
الردى لم يأت... أطوف وحيدة.  
لا جدوى من إشفاق الناس عليّ  
مات، كاسيونوفا، مات، عزيزي،  
آه! لعله مات دون خطيئة...

\*\*\*

حسناً سيحين أجلي... إذا الباري أبقاني حتى الشتاء،  
فلن أخطوا فوق العشب الطري!  
كوخي سيؤول عاجلاً إلى أطلال  
لا أحد يحرق الحقل.  
ماريا رومانوفا ستنتقل إلى المدينة  
لا أقوى على الاستجداء...  
مات، حبيبي، مات، كاسيونوفا،  
ولن أحيأ طويلاً!

١٨٥٣

## فلاس

العم فلاس، عجوز أشيب،  
ومسترة ريفية وياقة مفتوحة،  
عاري الرأس،  
يسير بطيئاً في المدينة.

على صدره أيقونة برونزية :  
يجمع الصدقات لمعبد الرب،  
مطوقاً بالسلاسل، حذاؤه بال،  
نمة ندبة عميقة في خده.

يحمل عصا طويلة في يده  
ذات طرف حديدي...  
يقولون كان في الماضي  
مرتكب آثام عظام. لم يعرف الرجل

الله، بالضرب المبرح  
أودي بزوجه إلى القبر،  
أوى سارقي الخيول  
والمعتاشين على السلب،

ابتاع الحبوب  
من جيرانه المعوزين، وفي أيام القحط  
لا يعطي فلساً أحمر  
ويعيد بيع المحصول غالياً للفقراء!  
سلب أقرباءه، سلب المدقعين،  
اشتهر كامرء شحيح،  
كان ذا طبع صارم حاد...  
أخيراً جلجلت الرعود!

أصابه الوصب ودعا حكيماً،  
لكن من يسعف امرأ  
جرد الفلاح ثوبه،  
وسرق نقود الشحاذا؟

ازداد سوءاً على سوء.  
مضى عام، وفلاس راقد  
وأقسم أن يبني كنيسة  
إذا نأى عنه الموت.

يقولون إن رؤيا  
صاحبته في هذيانه:  
رأى يوم القيامة،  
ورأى الخطاة في الجحيم:

عفاريت دهاة تعذبهم،  
الساحرة المرحة تلسعهم.

ثمة زنوج أشكالهم فاحمة  
وعيونهم كالجمر،

التماسيح والشعابين والعقارب  
تسوطهم، تمزقهم، تحرقهم...  
الخطاة يعولون متألمين،  
ويقضمون سلاسلهم الصدثة.

يوقرهم الرعد بهزيمة الأبدى،  
تخنقهم صنّة رهيبة،  
ويحوم حولهم مقهقهاً  
نمر أسود له ستة أجنحة.

بعضهم معلق بعمود طويل،  
الآخرون يلغقون الأديم اللاهب...  
وهناك في الميثاق مكتوبة  
خطايا فلاس التي قرأها..

رأى فلاس دياجير الجحيم  
ونذر نذره الأخير..  
سمعه الرب، وأرجع  
روحه الأئمة إلى عالم الحرية.

وزع فلاس أملاكه  
ظل حافياً عارياً،  
ومضى يجمع الصدقات  
لبناء معبد الرب.

ومنذ ما يناهز الثلاثين عاماً  
يجوب فلاس الآفاق،  
مقتاتاً على الصدقات،  
متمسكاً في البر بنذره

سخر قواه الروحية العظيمة  
لخدمة قضية الرب:  
كما لو لم يُعَانِ أبداً  
من البخل الفظيع...

مفعماً بألم لا يهدأ  
أسمر الوجه مستقيم القامة شامخاً،  
يسير وثيد الخطى  
في القرى والمدن.

ليس ثمة درب ناء عنده،  
كان في موسكو- الأم،  
وفي قزوين الواسع،  
وفي النيفا الملوكية.

يمضي حاملاً أيقونة وسيفاً  
متحدثاً طوال الوقت مع نفسه،  
بيده عصاه الحديدية  
المصلصلة في أثناء سيره الوثيد.

يمضي في ثلوج الشتاء،  
يمضي في قيظ الصيف،

داعياً روسيا المسيحية  
لإعطاء الهبات الممكنة -

المارة تعطي وتعطي  
ومن النقود المجمعة بالعناء  
انتصب معبد الرب  
على سطح أرض الوطن...

١٨٥٤

## مقتطف من «البائع المتجول»

لا أريد خاماً  
لا حاجة إلى القماش القطني «أغنية»  
«أيا، مملوء، مملوء صندوقي،  
قماش قطني ومطرز.  
أشفقوا يا أعزائي،  
على منكبي المفتولتين!  
هيا، هيا إلى الجودار<sup>(٦٢)</sup> العالي!  
سأنتظر هناك حتى حلول الليل،  
وعندما أرى ذات العيون السود-  
سأنشر بضاعتي كافة.  
لقد دفعت ثمناً جيداً لها،  
لن أساوم ولن أبخل:  
اكشفي شفاهك القانية  
واجلسي قرب الحبيب!»  
ها هو ذا الليل الضبابي يطل،  
والفتى الجريء ينتظر.  
أرهف السمع، ها هي مناي تأتي،

٦٢. نوع من الحبوب يصنع منه الخبز الأسود.

طفق البائع المتجول يبيع البضاعة.  
كاتيا تساوم بحرص،  
تخشى دفع ثمن عال.  
الشاب يُقَبِّلُ الفتاة  
متوسلاً إليها رفع الثمن  
الليل العميق وحده يعرف  
كيف تفاهما.  
استقم أيها الجودار العالي،  
وصن السر المقدس!

\*\*\*

«أيا، خفيف، خفيف صندوقي  
الشد لا يحز كتفي!  
مع أن حبيبتى لم تأخذ سوى  
خاتم فيروز.  
أعطيتها قطعة قماش قطنية كاملة،  
وشريطاً أحمر قانياً لصفائرها،  
وزناراً تشد مئزرها الأبيض  
في أثناء الحصاد،  
أعادت حبيبتى الأشياء كلها  
إلى الصندوق ما عدا الخاتم:  
لا أريد أن أمضي أنيقة الملبس  
بينما حبيب القلب غائب!  
أست حمقاء أيتها الصبية!  
ألم تجلبي أنت

نصف قنينة من الفودكا الحلوة؟  
ولا تقبلين الهدايا!  
انتظر سأعطيك  
وعداً ثابتاً  
فأنا مدللة أبي  
واذكر كلماتي هذه:  
حينما يفرغ الصندوق،  
سأتي إلى البيت، إلى عيد العذراء حارستنا،  
وأقودك يا حبيبي العزيز  
إلى كنيسة الرب!»

١٨٦١

## مقتطف من «الجليد والأنف الأحمر»

... ليست الريح تعول فوق الغابة،

ليست الجداول تتدفق من الجبال:

إنما عسس الأمر - الجليد

تجوب ممتلكاتها

إنها تتحرى: أحسنت العواصف الثلجية

تغطية ممرات الغابة،

أثمة شق أو صدع

أثمة أرض عارية أينما كان؟

أزغباء ذرى الصنوبرات،

أجميل وشي البلوط؟

أصلدة متماسكة الثلوج

في مياه الغمر والغيض؟

بمضي متمشياً بين الآيك

يطلق الماء المتجمد تحت خطاه،

يلاعب سنا الشمس

لحبتة الشعثاء.

الدروب مفتوحة  
أينما يسير الساحر الأشيب،  
وبغثة حل فوقها  
فوق هامتها مباشرة!  
أمسك بالصنوبرة السامقة،  
ضرب أغصانها بصولجان  
وغنى أغنية جريئة،  
متبجحاً بنفسه:

«انظري أيتها الغادة ببسالة  
إلى الأمر - الجليد الرائع!  
أتراهنُ معك، هل رأيت فتى  
أوسم منه وأقوى؟» -

العواصف والثلوج والضباب  
طوع بنان الجليد دائماً،  
سأمضي إلى البحار - المحيطات  
وأشيد قصوراً من الثلج.

إن شئت - تختفي الأنهار العظيمة  
تحت أكداس الثلوج طويلاً،  
وتقام جسور جليدية،  
لا يقوى الناس على إقامتها.  
حيثما كانت المياه الهادرة المتدفقة  
تجري طليقة منذ أمد قريب،

أيسير اليوم المارة فوقها،  
وعربات البضائع.

أحب أن أكسو الموتى  
بندى ثلجي في لحودهم العميقة،  
ليتخثر الدم في عروقهم،  
ويتجمد المخ في جماجمهم.

من نكد اللص الخبيث،  
وهلع اللص والجواد،  
إني أحب في الأماسي  
الشروع في الطقطقة.

أسرعت النساء، الشاتمات  
لعفاريت الغابة، إلى بيوتهن  
أما السكارى فوق ظهور الخيل والمشاة  
فقد واصلوا عبثهم بسرور عظيم.

سأبيض وجوههم السمجة دون طباشير،  
وأشعل أنوفهم بلا نار،  
وأجمد لحاهم واشدها إلى ظهورهم.  
ولن يقوى على فكها حتى الفأس!

ثريُّ أنا، لا يحصى كنتري،  
لكن ثروتي لا تتضاءل  
ومملكتي أزيئها  
بالماس واللؤلؤ والفضة.

ادخلي مملكتي برفقتي  
وتصبحين ملكة فيها،  
ونحكم مبجلين في الشتاء  
ويلفنا سبات عميق صيفاً.

ادخلي! لأداعبك وادفئك،  
وأقيم قصرأ سماوي الزرقة...»  
شرع أمر الجليد يرفرف،  
ويلوح بصولجانه فوقها.  
صاح من أعالي الصنوبرة،  
«أدافئة أنت أيتها الصبية؟»  
أجابت الأرملة «دافئة!»  
وكانت باردة ترتعش.

هبط الجليد قليلاً،  
لوح ثانية بالصولجان،  
وهمس لها مداعباً بهدوء:  
«أدافئة أنت...؟» - «دافئة يا عزيزي!»

دافئة، وكانت تتخدر.  
لامسها الجليد:  
نفث أنفاسه في وجهها  
وتناثرت إبر حادة فوقها  
من لحيته الشيباء.  
ها هو ذا يقف أمامها!

وغمغم مجدداً «أدافئة انت؟»  
وبغثة تحول إلى بروكلوشكا<sup>(٦٣)</sup>  
وشرع يقبلها.

قبلها الساحر الأشيب  
في شفيتها وعينيها وكتفيها،  
همس نفس الكلام الحلو  
الذي سمعته من حبيبها في العرس.

أضحت داريا سعيدة  
لدى سماع كلماته الحلوة،  
أغمضت مقلتيها،  
وسقط الفأس على الأرض

ابتسامة شاحبة تتراقص  
على شفاه الأرملة التعسة،  
أهدابها بيض وطفاء،  
وابرثلجية في أجفانها...

.... لا صوت! الروح تحتضر  
من الحزن والعاطفة. تقف  
وتحس كيف يقهرها  
هذا السكون المطبق.

لا صوت! تراءت قبة السماء

٦٣. اسم زوجها المتوفي.

الزرقاء والشمس والغابة،  
متألقة في إبر فضية داكنة  
زاخرة بالعجائب،

مثيرة في سرها الدفين،  
العاطفة عميقة وخامدة... ولكن ها هي  
وشوشة حفيف عابر،  
وسنجاب يسير فوق الذرى.

وثب على الصنوبرة وانهاالت  
كومة ثلج على داريا،  
داريا واقفة جامدة  
في حلمها السحري..

١٨٦٣

## مقتطف من «لمن يصفو العيش في روسيا»

روسيا

أنت فقيرة،

أنت ثرية،

أنت قوية،

أنت عاجزة،

أيتها الأم - روسيا!

مع العبودية ظل

قلبك حراً

نضار، نضار

فؤاد الشعب!

قوة جبارة -

ضمير صاف

وحقيقة ناصعة!

القوة والأراجيف

لا يطبقها،

التضحية الزائفة

لا يتطوع لها.

روسيا لا تتحرك.

روسيا - كالميتة!  
الشرارة الدفينة  
لا تضطرم في جوفها  
نهضوا دون طلب،  
وساروا من تلقاء ذاتهم،  
اجتمعوا حبة حبة  
وأصبحوا جبلاً!  
المقاتلون ينهضون  
عددهم لا يحصى،  
عزيمتهم  
لا تقهر!  
أنت فقيرة،  
أنت ثرية،  
أنت قوية،  
أنت عاجزة،  
أيتها الام - روسيا! ... (...)

١٨٦٣-١٨٧٧

في أوج حصاد القرية...  
يا له من مصير! مصير المرأة الروسية!  
هيهات العثور على أشق منه.  
ليس غريباً، أن تذوي قبل أوانك،  
أيها الشعب الروسي يا من تجشم العناء  
أيتها الأم الكثيرة العذاب!

قبط لا يحتمل : سهل أجرد،  
غيطان، حصاد، رحابة تحت السماء -  
والشمس تسفع بلا رحمة

المرأة المسكينة نخور قواها،  
كومة حشرات تنز فوقها  
تلسع، تخز وتطن!

ترفع المذراة الثقيلة،  
وينجرح ساقها العاري -  
لا وقت لديها لإيقاف النزف!

يسمع صراخ في الأرض المجاورة،  
تهرع المرأة، إلى هناك، شعثناء الشعر  
ينبغي هز أرجوحة الوليد!

مالك واقفة في بلاهة قربه؟  
غني له اغنية عن الصبر الأزلي،  
غني أيتها الأم الصابرة!..

أدموع أم عرق فوق أهدابك،  
حقاً يصعب القول.

على هذا الإبريق، المغطى بخرقة قدرة،  
يتساقطون - على حد سواء!

إن شفاهها متوقدة عطشاً  
ترفع الإبريق بشراهة..

الذيدة، أيتها العزيزة، الدموع المالحة الممزوجة  
مناصفة مع الكفاس<sup>(٦٤)</sup> الحامض؟....

١٨٦٢

---

٦٤. الكفاس - شراب شعبي مصنوع من الحنطة عادة.

## قطعة أرض لم تحصد

في أواخر الخريف. الغربان هاجرت،  
الغابة جرداء، الحقول خاوية،

قطعة أرض واحدة لم تحصد فقط...  
إنها توحى بفكر شجية.

كأن السنابل تهمس لبعضها البعض:  
«مضجر أن نسمع عواصف الخريف،

مضجر أن نميل إلى سطح الأرض،  
والحبوب الكبيرة تسقط في الغبار!

أسراب الطيور تأكلنا، كل ليلة،  
وكل طائر عابر ملتهم،

الأرنب يدوسنا، العاصفة تحطمنا...  
أين حاصدنا؟ وماذا ينتظر؟

أم أن غلالنا أسوأ من الآخرين  
أو أننا لم نتفتح في أواننا وننم إلى سنابل؟

كلا! لسنا أسوأ من سوانا- منذ أمد طويل

امتلأنا ونضجت حبوبنا.

أَحْرَثُ وَزَرَعُ كِي تَذَرُونَا الرِّيحَ الخريفية؟...

الرياح تحمل لهم جواباً حزيناً:  
- إن حارثكم واهن القوى.

يعرف لماذا حرث وزرع،  
لكن لا قوة له على العمل.

سيء حال هذا المسكين - لا يأكل ولا يشرب،  
هناك سوسة تنخر قلبه العليل،

يداه التي استنبتت هذه الأتلام  
جفت ضامرة، وتدلت كخيوط الغزل،

العينان معتمتان، لقد تلاشى الصوت  
الذي غنى أغنية شجية،

ما كادت يده تمسك المحراث،  
حتى سار الحارث مفكراً في قطعة الأرض.

١٨٥٤

أشعاري! شهود أحياء

على عالم الدموع المراقبة!

اخلفني في اللحظات العصبية

العواصف الروحية

واضربي القلوب البشرية

كأمواج على الصخور

١٨٥٨

لا أحب سخريتك.  
دعيها مهملة فانية،  
بالحرارة حبنا الماضي،  
ومازلنا نصون بقايا أحاسيس -  
من المبكر الاستسلام لها.  
ما دمت خجولة رقيقة،  
عندما ترغبين في إطالة اللقاء،  
وما دامت تجيش في داخلي الأحلام  
المتمردة وهو اجس الغيرة -  
فلا تستعجلي النهاية المحتومة!

ومع ذلك فإنها غير بعيدة  
نتوقد أقوى، مفعمين بالظماً الأخير،  
لكن في الفؤاد برودة دفينه وكآبة..  
هكذا النهر أكثر سخياً في الخريف،  
لكن الأمواج الهادرة أكثر برودة...

١٨٥٠

أواه ياربة الشعر! أنا عند باب القبر<sup>(٦٥)</sup>  
لأكن كثير الذنوب،  
ولتضاعف ضغينة الناس  
ذنوبي مائة مرة -

٦٥. هذه آخر قصيدة كتبها الشاعر حسب قول أخته.

لا تبكي ! إن نصيينا لباعث على الحسد،  
فلن يندد بنا أحد:  
أنت لن تسمحي طويلاً بانفراط  
الاتحاد الحي العميق  
بيني وبين القلوب الشريفة!  
ليس الروسي من ينظر بلا مودة  
لهذه الربة الشاحبة المدماة  
التي جلدها السوط...

١٨٧٧

## سكة الحديد

فانيا (في سترة حوذي). بابا!

من شيد هذا الطريق؟

الأب (في معطف ذي بطانة حمراء)

يا عزيزي، الكونت بيوكر اندريفيتش

كلينمخيل!

## حديث في العربية

- ١ -

أيها الخريف الأغر! المعافى الجذل  
النسيم ينعش القوى المتعبة،  
الثلج الخفيف على النهر البارد  
يستلقي كأنه سكر يذوب،

حول الغابة، كالفراس الوثير،  
يمكن الإغفاء، هدوء ورحابة!  
الأوراق التي لم تذو بعد  
ترقد صفراء ناضرة كالسجاد.

أيها الخريف الأغر! الليالي القارسة  
وضاحة، الأيام هادئة...

لا قبح في الطبيعة! لا في الحفر ولا  
في طحالب المستنقعات وبقايا الأشجار،

كل شيء حلو تحت سنا القمر،  
أينما كان أتملى روسيا الحبيبة...  
أعدو سريعاً على القضبان الحديدية

أيها الأب الطيب لماذا تُبقي  
فانيا الذكي لا يعرف شيئاً؟  
اسمح لي تحت ضوء القمر  
أن أوضح له الحقيقة.

كان هذا العمل، يا فانيا رهيباً بضخامته -  
لا طاقة لفرد واحد عليه!  
يوجد في العالم قيصر: إنه قيصر كاسر،  
اسمه الجوع.

يقود الجيوش، يوجه المراكب  
في البحر، يحشر الناس في مجاميع،  
يسير خلف المحراث، ويقف على أكتاف  
الحجار والحائك

ساق حشداً من الناس إلى هنا.  
كثيرون - في صراع رهيب -  
بعثوا الحياة في الأماكن الوعرة المجذبة،  
وثوت قبورهم هنا.

السكة مستقيمة : جسيرات ضيقة  
اعمدة، قضبان، جسور،  
وعلى الجوانب دائماً، العظام الروسية...

ما أكثرها! يا فانيشكا<sup>(٦٦)</sup>، أتعرف ذلك؟

أواه! سمعت نداءات رهيبة!

وقع أقدام وصرير أسنان،

ترامت ظلالها على الزجاج الجليدي...

ماذا هناك؟ حشد من الموتى!

إنهم يَعدُّون أمام السكة الحديدية،

أو على جانبيها.

أوتسمع الأغنية؟... «في هذه الليلة المقمرة»

ليتنا نرى ثمرة عملنا!

لقد تهدمنا تحت وطأة القipzig والبرد،

ظهورنا محنية دائماً،

عشنا في الحفر، قارعنا الجوع،

جمدنا، تبللنا، مرضنا بالإسقربوط<sup>(٦٧)</sup>

الرؤساء المتعلمون سلبونا،

جلدونا، وخنقتنا الفاقة...

صبرنا على كل شيء، نحن جيش الله،

أبناء العمل المسالمين!

إخوتي! أنتم تقطفون ثمارنا!

ونصيبنا أن نفنى في الأرض...

أتذكروننا، نحن الأشقياء، بخير

٦٦. تصغير فانيا.

٦٧. بسمونه داء الحفر أيضاً.

لم نسيتمونا منذ أمد بعيد؟ ...»

لا ترفعوا من أغنيتهم الوحشية!  
هؤلاء الفلاحون، كلهم إخوتكم!  
من قول خوف، وأما الفولغا وأوكا،  
ومن مختلف أرجاء الدولة الكبرى.

مخجل أن توجل، وتحتجب بالقفاز،  
لم تعد صغيراً! ... يا أشقر الشعر،  
تري السيلوسي الفارع القامة  
يقف مريضاً مضى من الحمى....

الشفاه بلا نجيع، الأجفان مهدلة،  
القروح على يديه الهزيلتين،  
غاطس دائماً في الماء إلى ركبته  
أقدامه متورمة وشعر رأسه مصاب بالقرع،

ضامر الصدر يعمل جاهداً بالمعزقة  
يوماً بعد يوم وطوال العمر...  
أمعن النظر إليه يا فانيا بانتباه:  
بلاي كسب الإنسان رزقه!

لم ينتصب ظهره المحدوب،  
وما زال الآن أيضاً، صامتاً ببلادة  
يضرب الأرض المتجمدة،  
ضرباً آلياً برفشه الصديء!

هذه العادة على العمل النبيل

لا يسوؤنا التحلي بها أنا وأنت...  
بارك عمل الشعب،  
وتعلم احترام الفلاح.

أجل لا تخف على الوطن الأنيس...  
تحمل الشعب الروسي كثيراً.  
تحمل سكة الحديد هذه.  
ويتحمل كل ما يرسله الرب!

يتحمل كل شيء، وبصدره العريض الصافي  
يشق الطريق لنفسه.

يؤسفني فحسب أننا- لن نعيش  
في هذه الحقبة الرائعة- لا أنا، ولا أنت.

-٣-

دوت في هذه اللحظة صفارة مُصمة،  
وتواري حشر الموتى!  
«رأيت، يا أبي، حلماً مذهلاً،  
قال فينا: خمسة آلاف فلاح،

من القبائل الروسية وممثلي السلالات  
ظهروا بغتة، قال امرؤ لي:

ها هم بُناة سككنا!...

وقهقه الجنرال!

كنت قبل فترة قصيرة في الفاتيكان،  
تجولت ليلتين في المسرح المدرج في روما  
ورأيت في فينيا، إسطفيان المقدس،

ماذا... أكل هذا من خلق الشعب؟

سامحني على ضحكي الوقح،

إن منطقتك لغريب قليلاً،

فهل ترى أبولون بيلفيدير<sup>(٦٨)</sup>

أسوأ من قِدرِ فخار؟

ها هو شعبك - هذه الحمامات والأبنية،

روائع الفن، - شيدها كلها!

«لا أقول هذا لك، وإنما لفانيا...»

لكن الجنرال لم يسمح بالمعارضة:

إن أصحابك السلافيين والإنجلو سكسونيين

والجرمانيين لم يبنوا، إنهم ماهرون بالهدم،

برابرة! حشد من السكارى المتوحشين!..

على أي حال، حان موعد العمل يا فانيوشا،

أتعلم، إنها لخطيئة إثارة قلب الطفل

بمشاهدة الموت والكآبة،

خليق بك أن توضح الآن

الجانب المضيء...»

- ٤ -

إنني مسرور لإيضاح ذلك!

أضع يا عزيزي: العناء الرهيب

٦٨. نحاس يوناني اشتهر بنحته بيلفيدير تورسو، تلك التحفة الفنية التي تعتبر من روائع النحت العالمي. وقد أنجز هذا العمل في منتصف القرن الأول قبل الميلاد وهذا التمثال موجود الآن في الفاتيكان.

انتهى - الألماني يضع القضبان.  
الأموات دفنوا في الأرض، المرضى  
اختفوا في الحفر، الشعب الكادح  
اجتمع حشداً متزاحماً عند المكتب...  
صمت صمتاً مطبقاً، هرش أبدانه:  
ظل كل واحد منه مديناً للمقاول،  
لقد تسلموا ما جمعوه في أيام!

دوّن الرئيس كل شيء في الدفتر - سواء  
استقرضوا للحمام، أو مرضوا:  
«ربما أخذوا زيادة الآن،  
ها هوذا، تعال أنت!...» ولوّح بيده...

متملق جليل، في رداء أزرق  
بدين، جلس قليلاً، أحمر كالنحاس،  
يسير المقاول بين الصفوف في العيد  
يسير متفحصاً أشغاله.

الشعب البطل ينشق باحترام...  
المقاول يمسح العرق عن وجهه  
ويقول متخصراً مبتهجاً:  
«طيب... لا شيء... أحسنتم... أحسنتم!...»

أهنتكم، إلى بيوتكم الآن، حفظكم الله،  
(اخلعوا قبعاتكم، عندما أتكلم!)  
أهدي العمال برميل خمر

وأتنازل لكم عما تبقى من ديون لي!...»

هتاف أحدهم «هورا»<sup>(٦٩)</sup>. وواصل الآخرون الهتاف،

الذي أصبح أكثر ارتفاعاً ووثاماً وامتداداً... انظر:

دخرجوا البرميل مع أغنية لرئيسهم..

وهناك لم يستطع الخامل الوقوف!

حلّ الشعب عُدة الحصان وأسرع

المقاوم في الطريق مع هتاف «هورا!...»

أيها الجنرال، يبدو صعباً رسم

صورة أكثر مرحاً؟..

١٨٦٤

٦٩. هتاف يعني يعيش أو عاش بالروسية

## ألكسندر بلوك

ALEKSANDER BLOK

(١٨٨٠ - ١٩٢١)

- نشأ في عائلة معروفة باتجاهها العلمي والثقافي في بطرسبورغ، أنجبت كثيراً من العلماء والكتاب.
- ولد في بيت جده أن. بيكيتنوف عميد جامعة بطرسبورغ، وكان داره يقع داخل الجامعة.
- تربي في بيت جده بيكيتنوف لأن والديه افترقا بعد ولادته وعاش كل منهما حياته الخاصة.
- لما بلغ التاسعة من عمره تزوجت والدته ثانية وعاش معها في منطقة جميلة من مناطق بطرسبورغ.
- أنهى المدرسة عام ١٨٩٨ ودخل كلية الحقوق وبعد قضاء ثلاث سنوات فيها لم يستطع تقبل المواضيع القانونية فانتقل إلى كلية التاريخ وتخرج في الجامعة عام ١٩٠٦.
- تزوج عام ١٩٠٣ لوبوف مينديفيا ابنة مينديليف العالم الروسي المشهور بجدول العناصر الفلزية.
- قام عام ١٩٠٩ برحلة إلى إيطاليا وألمانيا ونظم على إثرها «قصائد إيطالية».

- استدعي عام ١٩١٦ للخدمة في الجيش وعمل في وحدة الهندسة والبناء، وسمع هناك نبأ سقوط الحكم القيصري.
- نظم قصيدة «الاثنا عشر» تأييداً لثورة أكتوبر ١٩١٧.
- توعكت صحته في أيار ١٩٢١ وظهرت عليه علائم مرض عضال أودى بحياته، وهو ما زال شاباً. توفي في ٧ آب ١٩٢١.

## الغريبة

في الأماصي، يتصاعد في المطاعم  
هواء حار ضار ثقيل،  
وتحمل أنفاس الربيع والعفونة  
صياح السكارى.

بعيداً، فوق غبار الأزقة،  
وعلى البيوت الريفية الضجرة،  
نلمع لمعاناً باهتاً يافطة المخبز<sup>(٧٠)</sup>!  
ويسمع بكاء طفل.

كل مساء، وراء حاجز الطريق،  
المازحون المتمرسون  
يميلون قبعاتهم  
ويتزهون مع الفتيات بين الخنادق.

فوق البحيرة تطلق المجاذيف  
ويتعالى صراخ امرأة،  
في السماء يميل قرص القمر،

<sup>٧٠</sup> تزين يافطة المخبز سابقاً برغيف ذهبي اللون.

المألوف عنده كل شيء، لا مبالياً.

كل مساء يتراءى في كأسى.

صديقي الأوحده،

مستكيناً، مصعوقاً مثلي،

من الشراب الخضل القوي الغريب.

قرب الطاولات المجاورة

يمكنك الخدم النعّاس،

والسكارى، بعيون كعيون الأرناب،

يصرخون: «الحقيقة في النيذا»<sup>(٧١)</sup>.

كل مساء، في ساعة محددة

(ولعله مجرد حلم تراءى لي؟)،

يتحرك قدّ صبية توشّحت بالحريير

في شرفتي الضبابية.

تمر متوانية بين السكارى،

وحيدة، بلا رفقاء دائماً،

تتنفس شذى وضباباً،

وتجلس عند النافذة.

يعبق حريرها اللين

وريش قبعتها الأسود

وخواتم يدها الصغيرة

٧١. العبارة مكتوبة باللاتينية في نص القصيدة.

باساطير الأزمان الغابرة.

يشدني تقارب غريب،  
وأحذق إلى الوشاح الداجي،  
فأرى شاطناً مسحوراً  
ومدى نائياً سحرياً.

أسرار مبهمة أئتمنت عليها  
وشمس امرء ما عاهدت إلي،  
انساب النيذ اللاذع  
في ثنايا روجي كلها.

تأرجح في عقلي  
ريش النعام المائل،  
وتفتحت على الشاطئ النائي  
العيون السود العميقة.

يرقد كنز في روجي  
ومفتاحه مؤتمن لدي فحسب!  
محق أنت، أيها الوحش الثمل!  
فأنا أعرف: الحقيقة في النيذ

١٩٠٦

نسيت على أرض الأحزان  
البسالة والبطولة والمجد،  
عندما تألقت على المنضدة أمامي  
صورة وجهك في إطارها البسيط.

لكن أذفت الساعة، وخرجت من البيت.  
ورميت في الليل الخاتم المقدس.  
ربطت مصيرك بامرءٍ آخر،  
وأنا نسيت الوجه الرائع.

جرت الأيام، متحركة في سرب لعين..  
الخمرة والعاطفة عذبتا حياتي..  
تذكرتك واقفة أمام مذبح الكنيسة،  
وناديتك كشبابي.

## في حقل كوليكوفو<sup>(٧٢)</sup>

- ١ -

النهر ينبسط يجري، يكتئب متوانياً  
ويغسل شواطئه.  
فوق الصلصال القاحل في الجرف الأصفر  
تنصب أكداس مكتئبة في السهل.

\*\*\*

أواه، يا روسيا! يا زوجي! إن طريقنا  
الطويل جليّ لحد الألم!  
طريقنا - سهام حرية التتر القدماء  
وهي تخرق صدورنا.

\*\*\*

طريقنا، طريقنا السهلي، هو الألم اللامتناهي  
الملك، أواه، يا روسيا!  
وحتى الدجي الليلي الهاجع وراء الحدود

٧٢. سبق وأشرنا إلى معركة كوليكوفو في تعليقنا على قصيدة ريليف المسماة «دبضري دونسكوي» وهي المعركة التي دارت في حقل كوليكوفو بين الروس والتتر عام ١٣٨٠، في منطقة يمر فيها نهر الدون ونيربادفا.

لا أهابه.

\*\*\*

دع الليل يأتي . سنبث ونصل . نضيء بالمشاعل  
السهول البعيدة.

وتتألق في سديم السهول الراية المقدسة  
وسيوف الخان الفولاذية.

\*\*\*

طعان متواصل! السلام مجرد حلم  
بين الدماء والغبار..  
تخبّ، تخبّ فرس السهول.  
وتدوس الأعشاب..

\*\*\*

لا نهاية! تومض المسافات والمنحدرات..  
قف!

تمضي وتمضي الغيوم الفرعة،  
والغروب مخرج بالنجيع!  
الغروب مخرج بالنجيع! والنجيع يسيل من القلب!  
ابك، أيها القلب، ابك..  
لا سلام! فرس السهول  
يعدو واثباً!

-٢-

نحن، وأنت أيتها الصديقة توقفنا في السهل عند منتصف الليل:  
لا عودة: لا التفات إلى الوراء،

خلف نبيريادفا يصبح الإوز  
بعيد ويعيد الصباح ..

في الطريق، الحجر<sup>(٧٣)</sup> الأبيض المتقد.  
خلف النهر الأقوام الكافرة،  
لن ترفرف قط

الراية المضئفة فوق سرايانا.

طأطأ صديقي هامته إلى الأرض  
وقال لي: «اشحذ سيفك،  
كي لا تقاتل التتر سدى،

وستخر صريعاً من أجل القضية المقدسة!»

لست أول محارب، ولست الأخير.

سيظل الوطن متألماً طويلاً.

صلي في الصباح الباكر أثناء الطقوس الدينية  
لحبيبك أيتها الزوجة العزيزة الطيبة.

-٣-

في الليل، حينما ربض المامي<sup>(٧٤)</sup> مع قومه

في السهول والجسور

كنت انا وانت في الحقل الداجي

فهل عرفتنني؟

أمام الدون، ظلام وشؤم

٧٣. حجر سحري مقدس في الفولكلور الروسي.

٧٤. المامي - أمير التتر وقائد جيشهم في معركة كوليكوفو.

وبين حقول الليل

سمعت صوتك بفؤادي المتنبئ

وفي صياح الإوز.

منذ منتصف الليل نهضت كالغمام

سرايا الأمير،

في المنأى، في المنأى تضرب الأم نفسها

على الركاب وتولول.

طيور الليل تحوم دائرة

وترفرق بعيداً.

بينما وميض الصيف الخفيف فوق روسيا

ويحرس الأمير.

العقاب يصيح فوق معسكر التتر

منذراً بالكوارث،

بينما اتشح نيريادفا بالضباب

مثل أميرة في خمار.

ومع الضباب المحتوي نيريادفا الوسنان

اتجهت حالاً إلي

هبطت في ثياب ساطعة،

ولم يجفل فرسي.

كموجة فضية سطعت على

سيف صديقك الفولاذي،

وبعثت الطراوة في درعي المغبر

فوق كتفي.  
حينما تقدم القوم، في الصباح الباكر،  
كغمامة سوداء،  
كانت صورتك، التي لم تخلقها يد أنسان، تسطع  
على درعي دائماً.

-٤-

مرة أخرى، مع الهم القديم،  
مالت الأعشاب إلى الأرض.  
مرة أخرى من وراء النهر الضبابي  
تناديني من بعيد.

عدت قطعان الأفراس  
في السهول وتوارت دون أثر،  
جمحت شهوات وحشية  
تحت سطوة القمر المحاق.

وأنا والهم القديم،  
كذئب تحت القمر المحاق،  
لا أدري ما أفعل مع نفسي  
والى أين سأطير وراءك!

أسمع جلجلة الطعان  
وصرخات أبواق التتر،  
وأرى بعيداً فوق روسيا  
لهيباً واسعاً هادئاً.

تجولتُ على جوادي الأبيض  
وهموم مريرة تحتوي كياني ..  
التقيت الغمام الهائم  
في أعالي الليل الداجي .  
تعالَت أفكار مضيئة  
في فؤادي الممزق،  
هوت الأفكار المضيئة  
واحترقت في النار القاتمة ...

«اظهري يا أعجوبة الأعاجيب!  
وعلمي أن أكون منيراً» .  
وانتصب عرف الجواد...  
وهتفت السيوف وراء الريح...

-٥-

إن عتمة العاديات لا مفر منها  
وقد غطت النهار الوليد.  
فل . سولوفيوف

مرة أخرى اعتلى الدجى  
حقل كوليكونوف وافترشه،  
وكغمامة كالحة  
حجب النهار الوليد.

وراء السكون العميق  
والدجى المنتشر  
لا يُسمع قصف المعركة الهائلة،

ولا يُرى وميض المعمة.

لكني أعرفك، يا مطلع

الأيام الشامخة المتمردة!

فوق معسكر الأعداء، كما في الماضي،

لمعان وأبواق كصياح الإوز.

لا يستطيع الفؤاد العيش في دعة،

وليس عبثاً أن تتجمع الغيوم.

الخوذ ثقيلة، كما كانت قبل المعركة.

لقد أزفت ساعتك الآن. فصل!

١٩٠٨

## من القصائد الإيطالية

رافينا (٧٥)

كل ما هو زائل وفانٍ  
دفتته انتِ في العصور.  
أنت، يا رافينا كالطفل تغفين  
بين أيدي الأبدية الوسنانة.  
لن يحمل العبيد الفيسفساء  
عبر بوابات روما.  
الطلاء الذهبي يتوهج  
على جدران المعابد الباردة.  
إن رضاب القبل البطيئة  
لَيَنْت غلظة قُبة القبر،  
حيث تخضوضر توأبيت  
الملكات والرهبان المقدسين.  
صامته صالات القبول

---

٧٥. زار بلوك إيطاليا عام ١٩٠٩ ونظم سلسلة قصائد بها. ورافينا عاصمة الإمبراطورية الرومانية الغربية.

ظليلة وباردة عتباتها،  
كل لا تستيقظ من خلال الأحجار  
عيون غالاً<sup>(٧٦)</sup> السود وتتوقد.  
منسية ومندرسة الآثار الدامية  
لوبيلات الحرب وسبابها،  
كي لا يبعث صوت بلاكيذا للحياة  
ويغني عواطف السنين الخوالي.  
تراجع البحر<sup>(٧٧)</sup> منذ أمد بعيد،  
وتجمعت الأزهار حول الأسيجة  
كي لا يحلم ثيودوريك<sup>(٧٨)</sup>  
الراقد في لحدّه، بعاصفة الحياة.  
على امتداد كروم العنب،  
البيوت والناس - كلهم رموس.  
إن البرونز اللاتيني الجليل فحسب  
يقرع بلاط القبور كالبوبق.  
في النظرات الثابتة الساجية فحسب  
لعذارى رافينا، تمر أحياناً كآبة  
متعاقبة مرتبكة

٧٦. غالاً أو بلاكيذا - كما جاء في المقطع التالي - هي غالاً بلاتسيديا افكوستا  
زوجة الإمبراطور الروماني قسطنطين، وقد دفنته في رافينا.

٧٧. ابتعد بحر الأدرياتيك حوالي سبعة كيلومترات عن شواطئ رافينا منذ قديم  
الزمان.

٧٨. الملك الذي غزا رافينا وجعلها عاصمة بلاده.

عن البحر الذي لن يعود.

في الليل، فحسب، يميل نحو الوهاد

ظل دانتني، بصورة عقاب جانبية

مغنياً لي عن الحياة الجديدة<sup>(٧٩)</sup>.

وحاسباً القرون المتعاقبة والمقبلة

١٩٠٩

---

٧٩. قضى دانتني سنوات حياته الأخيرة في رافينا ودفن فيها ويشير هنا إلى كتابه  
المسمى «الحياة الجديدة».

## خطوات كومان دور<sup>(٨٠)</sup>

إلى ف. أ. زروغينفيري<sup>(٨١)</sup>

ستارة سميكة ثقيلة عند المدخل،  
وخلف شرفة الليل، ضباب.  
ما جدوى حريتك المضجرة الآن،  
والمخاوف التي عاناها دون جوان؟

غرفة النوم البهية، باردة وخاوية،  
الخدم نائمون، والليل موحش.  
من البلد السعيد المجهول النائي  
يُسمع صياح ديك.

ما نفع الحان الهناء عند غدار؟  
إن لحظات الحياة معدودة.  
دونا أنا نائمة، ويدها متقاطعتان فوق صدرها  
دونا أنا تحلم...

٨٠. تدور القصيدة حول نبيل إسباني يشبه دون جوان، يغري فتاة نبيلة - دونا  
أنا - ويتركها تلقى مصيرها التعس.

٨١. شاعر وصديق بلوك

من تجمدت قسماته الصارمة  
وانعكست في المرايا؟  
آنا، آنا، أجميل النوم في اللحد؟  
أجميلة رؤية أحلام غير دنيوية؟  
الحياة خاوية رعناء، لا يسبر غورها!  
اخرج إلى المعركة، أيها القدر القديم!  
وكان الجواب - مظفراً وودوداً -  
بوقاً يغني في الدياتير الثلجية.  
انطلقت، نافثة النيران في الليل،  
سيارة سوداء هادئة كالبوم.  
وبخطوات بطيئة ثقيلة  
دخل كومان دور البيت..

الباب مفتوح على مصراعيه، ومن الصقيع الكثيف  
يترامى صوت أجش كدقات ساعة في الليل،  
دقات الساعة: «لقد دعوتني للعشاء.  
وجئتُ. أنت حاضر؟...»

لا جواب عن السؤال القاسي.  
لا جواب - سكون.  
غرفة النوم البهية، مربعة ساعة الفجر  
الخدم نائمون، والليل شاحب.

في ساعة الفجر برد وغرابة،  
في ساعة الفجر - الليل مكفهر  
يا عذراء الضياء! أين أنت، يا دونا آنا؟

آنا؟ آنا- سكون.

في ضباب الصباح المتوعد فحسب

تدق الساعة للمرة الأخيرة!

دونا آنا تنهض في ساعة الموت

آنا تنهض في ساعة الموت.

١٩١٢

## إلى ربة الشعر

في أركانك المكتومة  
أنباء هلاك محتومة.  
ولعنة للوصايا المقدسة،  
وتدنيس للسعادة.

ثمة قوة إغراء  
تستحثني على ترديد الأراجيف،  
بأنك هبطت بالملائكة من السموات  
فاتنة إياهم بحسبك...

حينما تسخرين من الإيمان،  
تتألق حولك بغتة  
تلك الهالة الباهتة الأرجوانية - الرمادية  
التي رأيتها في حين من الأحيان.

أشريعة أم خيرة أنت؟ أنت كلك، من عالم آخر  
يا لغرابة ما يقولونه عنك:  
للآخرين - أنت ربة الشعر والأعاجيب.  
أمألي - فأنت العذاب والجحيم.

لست ادري، لماذا لم أمت

في الفجر، عندما نضبت قوتي؟  
لكني لمحت وجهك،  
وظليت مؤاساتك.

وددت لو كنا خصمين  
فلماذا قدمت عطايك لي -  
مُرْجاً مزهراً وقبة مرصعة بالنجوم،  
وكل لعنات حسنك؟

كانت ملاطفتك الرهيبة  
أشد غدراً من ليل الشمال،  
وأكثر نشوة من الآي<sup>(٨٢)</sup> الذهبي،  
وأقصر من حب المرأة الغجرية..

وكانت نشوة مهلكة  
في الدوس على ما هو مقدس وحبيب،  
وهذه العاطفة المرة كنبات الشَّيْح،  
بمثابة مسرات هو جاء للفرؤاد.

١٩١٢

ليل، شارع، مصباح، صيدلية،  
ضوء باهت خاوي الدلالة.  
عش ولو ربع قرن آخر.  
كل شيء سيظل هكذا. فليس ثمة من مخرج.  
ستموت - وتبدأ بداية جديدة،

٨٢. الآي نوع من أنواع الشمبانيا.

يتكرر كل شيء كما في الماضي:  
الليل، وتموجات القنال الثلجية.  
الصيدلية، الشارع، المصباح.

١٩١٣

## الفنان

من قيظ الصيف وعواصف الشتاء الثلجية،  
في أيام الأعراس والأفراح والمآتم،  
أنتظر صوتاً خفيفاً لم يرن بعد  
كي يبدد ضجري المهلك.

ها هو، يتعالى. انتظر باهتمام فاتر  
كي أدركه، وأمسك به وأقتله.  
إنه يمتد كخيوط تصعب رؤيته  
أمام انتظاري المتيقظ.

أمن البحر تهب الزوبعة؟ أم طيور الفردوس الخرافية  
تغني بين الأوراق؟ أم الزمان يقف متسماً؟  
أم أن اشجار التفاح تنثر في أيار  
أزهارها الثلجية؟ أم هو الملاك يمر طائراً؟

الساعات تطول، حاملة عبء العالم؟  
تنتشر الأصوات والحركة والضوء.  
الماضي يرنو عاطفياً إلى المستقبل.  
ليس ثمة من حاضر. ولا شيء يرثى له.

أخيراً عند تخوم ولادة

روح جديدة، وقوى مجهولة.  
تقاتل اللعنات الروح كالرعد.  
يتغلب العقل الخلاق - ويقتلها.

أغلق القفص البارد  
على الطائر الطليق الخفيف الرقيق،  
الطائر الذي أراد دفع الموت عن نفسه  
الطائر الذي حلق لينقذ روحه.

ها هو قفصي - من الفولاذ الثقيل  
يسطع كالذهب في وهج المساء،  
ها هو طائري، الفرح في حين من الأحيان،  
يتأرجح في طوقه، ويغني في النافذة.

قصت جناحاه، وحفظت أغانيه.  
أتحب الوقوف تحت الشرفة؟  
الأغاني تحلو لك. وأنا معذب،  
انتظر جديداً - ويضنني السأم مرة أخرى.

١٩١٣

## إلى زن. غيبوس (٨٣)

أولئك المولودون في أعوام الركود  
لا يتذكرون طريقهم.

نحن - أطفال السنوات المريعة في روسيا -  
ليس بمستطاعنا نسيان أي شيء.

أيتها الأعوام المحولة كل شيء رماداً  
تبشرين بالجنون، أم بأنباء الأمانى؟  
إن أيام الحروب، وأيام الحرية<sup>(٨٤)</sup>

تركت ألقاً دمويّاً على الوجوه.

ثمة سكينّة - أو صخب هادر

أجبرنا على كمّ أفواهنا.

في القلوب العامرة بالحماسة، في حين من الأحيين.  
ثمة خواء مميت.

دع الغربان تنعب وتحلق

فوق فراش موتنا،

لعل أولئك الأكثر جدارة، أو اه أيها الرب، أيها الرب

٨٣. شاعرة وناقدة ومن أعلام الاتجاه الرمزي.

٨٤. يعني الحرب اليابانية - الروسية وثورة ١٩٠٥.

يبصرون ملكوتك.

١٩١٤

أتذكرين؟ في خليجنا الوسنان  
والأمواه الخضراء غافية،  
عندما دخلت السفن الحربية  
تاركة آثارها، واحدة تلو الأخرى.

أربع منها رمادية. أقلقتنا  
التساؤلات ساعة كاملة،  
البحارة الذين لوحتهم الشمس  
يروحون ويجيئون مزهوين قربنا.

غدا العالم أرحب وأكثر اغواء،  
فجأة أبحرت السفن وذهبت.

رأينا السفن الأربع  
تتوارى في المحيط والليل.

عاد البحر طبيعياً مرة أخرى.  
أومضت المنارة العائمة مكتئبة  
عندما أعطى السيمافور<sup>(٨٥)</sup>.  
الإشارة الأخيرة...

ما أقل ما نحتاجه في هذه الحياة،  
نحن، الأطفال، وأنت وأنا.  
فالفؤاد يفرح جذلان

٨٥. جهاز يعطي اشارات ضوئية لتنظيم مرور السفن.

لأبسط الأشياء جِدة.  
قد تجد، مصادفة، على سكين الجيب  
ذرات غبار من البلاد النائية،  
ويغدو العالم مرة أخرى غريباً  
متدثراً في ضباب ملون.

١٩١٤

أنا - هاملت. الدم يتجمد  
حينما تنسج الدسيسة شباكها،  
والحب الأول في الفؤاد  
حيّ لوحدته في الوري.

من أجلك يا أوفيليا  
حملت بعيداً برد الحياة.  
وأموت، أميراً، في وطني  
بطعنة نصل مسمومة.

١٩١٤

كالنهار مضيئة، غامضة،  
إنها موجودة، لكنها أشبه بأشتات حلم،  
إنها تأتي بحديث جلي  
وفي أثرها يأتي الربيع دائماً.

ها هنا تجلس، تثرثر  
إنها تهوى إثارتي،  
وترى، أن كل واحد يعرف  
عن عواصف نيرانها المكتومة.

لكنتني لا أصغي بثبات  
لحديثها المتدفق،  
بل أتابع قلقها المتصاعد  
في إشراقه عينها وارتعاش كتفها.  
عندما تمس الأحاديث فؤادها  
وتشمل روحها،  
أهيم بعينها وكتفها  
كما أهيم بريح الربيع والشعر،  
يتألق المعصم البارد،  
تقطع الحديث،  
مؤكد، أن قوة العواطف-  
تافهة أمام برود العقل!...

١٩١٤

كنتِ أسطعن وأخلصهن وأروعهن،  
لا تلعنيني، لا تلعنيني!  
قطاري يطير، كأغنية غجرية،  
كأيام اللاعودة..  
ما كان حبيباً، كله عابر، عابر  
-والمقبل درب مجهول...  
مبارك، ثابت  
لا عودة له... سامحيني!

١٩١٤

أواه، أيها الربيع اللامتناهي المترامي -  
والحلم اللامتناهي والمترامي!  
أعرفك أينها الحياة! أتقبلك!  
وأحبيك بجلجلة الدروع!

أتقبلك، مع الإخفاق  
والنجاح، أبعث سلامي!  
إلى ميدان البكاء العسير  
وأسرار الضحك - فلا شيء مشين!

أتقبل الأحاديث المسهّدة،  
والصباح في ستائر النافذة المعتمة  
كي يُرعى الربيع ويُثمل  
نظراتي المتوقّدة!

أتقبل أعباء الفلوات  
وآبار المدن الأرضية!  
والفضاء المنير تحت السماء  
وعناء جهود العبيد!

ألتقيك عند العتبة  
مع الريح العاصفة في الشعر الشعباني الأجدد،  
مع اسم الله الغامض  
على الشفاه الباردة المنكمشة...

أمام هذا اللقاء العدواني  
لا أرمي أبداً الدرع...

لم تكشفني أبداً عن كتفيك...  
لكن حلماً نشواناً يحوم فوقنا!  
أحرق، وأسبر أعماق العداوة،  
مبغضاً، لاعناً ومحجاً:  
فأنا أعرف- من أجل العذاب والهلاك  
أتقبلك، مهما يكن الأمر!

١٩٠٧

غنى الناي على الجسر  
وأشجار التفاح مزهرة.  
رفع ملاك إلى الأعالي  
نجمه خضراء واحدة،  
وغداً بديعاً على الجسر  
أن تنظر إلى تلك الأعماق  
وإلى تلك الأعالي.  
الناي يغني: وبزغت نجمة،  
الراعي، يسوق القطيع...  
وتحت الجسر تغني الأمواه.  
انظر، باللمجى المتدفق،  
دع القلق إلى الأبد،  
فمثل هذه الأعماق الشفافة  
لم ترها أبداً...  
وهذا الصمت العميق  
لم تسمعه أبداً...

انظر، باللمجرى المتدفق،  
آيان رأيت هذه الأحلام؟..

١٩٠٨

أرى سناء سهوته،  
وعيته لومضة،  
الكمان تعزف، أغنية أخرى  
وثمة صوت خفيض عميق.

كيف استجابت الصديقة  
لحبي الأول.  
مازلت أحسه  
في تلك الايام، عندما تثور العاصفة،  
عندما يمر الماضي بلا أثر.  
والعواطف الغريبة فحسب  
تذكرنا أحياناً،  
تذكرني، بالسعادة.

١٩١٣

## مساء صيفي

أشعة الغروب الأخيرة  
ترتمي على حقل الجُودار المحصود.  
الأعشاب في الأتلام غير المحصودة  
غارقة في وسن وردي.

لا نسمة، لا تغريد طائر،  
فوق الغابة قرص القمر الأحمر،  
تجمدت أغنية الحاصدة  
بين سكينه المساء.

أنسى الهموم والكآبة،  
أندفع دون وطر على الجواد  
في الضباب، في الرياض النائية،  
للقاء الليل والقمر!

١٨٩٨

حملت النسائم من بعيد  
ملاح أغنية ربيعية،  
في مكان منير وعميق  
فتحت السماء كوة.

في هذه الأعماق اللازوردية  
في الأسفار القريية من الربيع  
ناحت العواصف الشتوية،  
وحامت أحلام النجوم.  
وجلة، فائمة، عميقة  
ناحت أوتاري.  
وحملت النسائم من بعيد  
أغانيك الرنانة.

١٩٠١

## من القصائد الإيطالية

الفن عبء على المنكبين  
من أجل هذا نظري، نحن الشعراء،  
الحياة في شذراتها العابرة،  
ما أحلى الأخلاذ للاسترخاء،  
والشعور بالدماء تنساب  
مغنية في العروق،  
والارتقاء في لهيب العشق  
واصطياد الغيمة الشاردة،  
والتصور أن الحياة ذاتها  
تنهض بكل ألق الشمبانيا  
وفي صلصلة مترنمة رقيقة  
لومضات السينما!  
بعد عام، في بلد أجنبي:  
النصب ومدينة مجهولة،  
الجمهور - ومرة أخرى أرى على اللوحة  
قسمات حسناء فرنسية! ...

١٩٠٩

## الملاك - الحارس

أحبك أيها الملاك - الحارس في الظلام.  
في الظلام. لأنك معي دائماً على الأرض.

لأنك كنت عروساً متألفة،  
لأنك انتزعت سري.

لأن الأسرار والليل يجمعاننا  
لأنك أنت أختي وعروسي وابنتي.

لأن حياة طويلة مكتوبة لنا،  
آه، بل حتى لأننا - زوج وزوجة!  
أحبك من أجل سلاسلي وقضبانك.  
ومن أجل اللعنات العائلية علينا.

ولأنك لا تحب، ما أحبه.  
ولأنني أنفجع على المعوزين والبائسين.

ولأننا لا نقدر على العيش في وفاق

ولأنني أريد، ولا جرأة لي، القتل -  
والانتقام من وضيع، يحيا بلا نار

ذلك الذي أهان شعبي وأهانني!

ذلك الذي أوصد السجن على الأحرار والأشداء،

ذلك الذي لم يثق بنيراني.

ذلك الذي يروم حرمانني النهار بالمال،

ويبتاعني مستكيناً كالكلب..

لأنني ضعيف ومستعد للمهادنة،

لأن أجدادي - جيل من العبيد،

ولأن السم حطم نعومة الروح

بينما هذه اليد لا ترفع السكين...

لكنني أحبك لضعفي،

ومن أجل مصيرك المر وبأسك.

أما ما أحرقتة النيران فقد صُب رصاصاً-

لا أحد يجرؤ على تحطيمه!

نظرت معك إلى هذا الفجر-

وأنظر معك في هذه الهاوية السوداء.

مصيران مزدوجان مقدران علينا:

نحن أرواح حرة! نحن عبيد حاقدون!

استكن! تجرأ! مكانك! انصرف!

النار أم الظلام أمامنا؟

من ينادي؟ من يبكي؟ إلى أين نسير؟

أنا وأنت- بلا انفصام - أنا وأنت إلى الأبد!

أنبعث؟ أنهلك؟ أنموت؟

١٩٠٦

ستنغمر حتى الرأس في الأعشاب الكثيفة  
وتدخل في بيت هادئ، دون أن تطرقه...

وتحتضنك ذراع وتضفر جديدة لك  
وتقول فتاة هيفاء: «مرحبا، أيها الأمير.

لدي هنا شجيرة أزهار بيضاء،  
هنا بالأمس تمايل اللبّاب.

أين كنت، هل ضعت، ما وراءك من أخبار؟  
من يهوى، ومن لا يهوى، من يطاردنا؟»

ستنسى ما كان، فالأيام تمضي،  
ستنسى ما كان وتسامح الفخور والحاقد.

وتنظر إلى الغمام ينهض بعيداً  
وتسمع أغاني القرى النائبة...

يبكي الفؤاد في الجهة الغربية  
طالباً القتال، منادياً هاتفاً...

يقول فقط: «وداعاً. عودي الي»  
ويدندن الجرس مرة أخرى خلف الأعشاب...

١٩٠٧

## كارمين

إلى ل.أ.د. (٨٦)

-١-

كما يغير المحيط ألوانه،  
كما يسطع فجأة ضوء خاطف  
في الغمام الكثيف،  
كذلك الفؤاد، تحت إيقاع العاصفة  
يتغير بنيانه، خشية أن يتهد  
ويتدفق الدم في الوجنتين،  
وتختنق دموع السعادة في الصدر  
أمام المشهد الكارميني<sup>(٨٧)</sup>.

-٢-

السماء صافية، هالة القمر  
مستحمة، غافية في الزرقة، والنسيم هادئ،

---

٨٦. نظم هذه المجموعة من القصائد عندما التقى لوبوف ألكسندر وفنايا  
ديلماس، وهي ممثلة بارعة كانت تقوم بدور كارمين العجربة في أوبرا كارمين  
للموسيقار بيزيه.

٨٧. نسبة إلى كارمين.

يمر الربيع وكتل الثلج الأخير،  
وتدخل الروح القلقة في عاصفة وسنانه...  
ماذا أرق من القمر وأعلا من مرأى الغروب؟  
اعرف في سريرتك، اسكت، لا تقل لأصدقائك:  
في الطابق الأخير، هناك تحت السقف العالي،  
نافذة، لا تضيء من الفجر وحده.

-٣-

هناك شيطان الصباح. سطع دخاناً،  
ذهبي الشعر، سعيد.  
كالسما، زرقه الثوب المتمايل  
كله في أصداف متلونة.  
لكن كما تتراءى عتمة الليل في زرقه السماء،  
كذلك يتراءى هذا الوجه مرعباً أحياناً،  
الشعر الذهبي - أحمر داكن،  
الصوت - زمزمة العواصف المنسية.

-٤-

عربد الربيع الثلجي  
وحولت طرفي عن الكتاب...  
آه، يا للساعة الرهيبة، عندما كانت  
تقرأ كف تسوينغي<sup>(٨٨)</sup>.  
التقت نظرتها عيني خوسيه!  
سطعت العيون ساخرة،

٨٨. الأسماء الواردة في المقطعين الرابع والخامس شخصيات في أوبرا كارمين.

تألق صف الأسنان اللؤلؤي،  
ونسيتُ الأيام والليالي كلها،  
وتدفقت الدماء في القلب،  
وتوارت ذكري الوطن...  
غنى صوت: تُفدي حياتك  
لي، ثمناً للحب!

- ٥ -

بين عشاق كارمين  
المندفعين حشداً متبايناً،  
داعين إياها إليهم،  
امرؤ، كالظل عند الجدران الرمادية،  
إنه ليلاس - باستيا خمّار الحانة الليلية،  
ينظر عبوساً صامتاً،  
لا ينتظر ولا يطلب المشاركة.  
عندما يجلجل الدف  
وتصلصل أساور معصمها بخفوت -  
يتذكر أيام الربيع،  
بين الأنغام الرنانة  
وينظر إلى خصرها الشادي  
ويرى أحلاماً خلاقة.

- ٦ -

نظرة غضبي لعيون بلا لون.  
وتحدٍ شامخ مزدرٍ.

وأسرار كل المنعطفات وأغانيها.  
هكذا التقيتك للمرة الأولى.  
في الصلاة، في الليل أيصعب التنفس.  
الثوب الأسود قريب، قريب مني...  
والوجه الشاحب.... وخصل  
الشعر مهدلة منخفضة...  
ليست بأولى لقاءات غريبة  
أعاني فيها من رعب أبكم!  
لكن هاتين اليدين والكتفين المتوترين  
أشبه برهافة مخيفة...  
في حركات الهام الشامخة  
علامات كدر واضحة!...  
(هكذا تنظر الليوث متجهمة  
إلى الناس من وراء الأسيجة).  
هناك تحت القنديل المدور، هناك  
صمتت السيغيديل<sup>(٨٩)</sup>،  
واستبد بك الحقد والغيرة، لأن  
إسكاميلو<sup>(٩٠)</sup> العاشق لم يأت إليك.  
لست من تسحبين جبل المصباح  
لتطفئي النور الذي لا حاجة له،  
لن يلمع صف الأسنان اللؤلؤي  
لذلك الإنسان التعس...

٨٩. أغنية ورقص إسباني.

٩٠. أحد شخصيات أوبرا كارمين.

آه، لا تنظر، اصمت، لا قدرة  
على الكلام، لا ضرورة وغير ممكن...  
وأنت (كالنجمة في الليل)  
تنسابين في مشية سريعة  
تمضين في خطوات مسترخية  
وأغنية كتفيك الناعمين  
مألوفة ألفة رهيبة،  
والفؤاد مقدر عليه أن يصون،  
كذكرى من بلد آخر،  
صورتك الحبيبة إلى الأبد...  
ويهتف امرؤ مانت...  
هناك: لِنَفِّرْ، لِنَفِّرْ من الحياة  
لِنَفِّرْ من هذه الحياة الكثيبة!  
وآذار يحمل ثلجاً ندياً.

-٧-

الصفصاف - هو ذوبان الثلوج في الربيع،  
وشيء من الأسف المضيء،  
وهو يعني أن الشمعة لم تخب  
وصلاتي حارة،  
وألتمك في كتفيك.  
سنبلة الشعير - حقول  
وصياح الغرنوق الرنان،  
وهي تعني - أن انتظر عند السياج المصفور

حتى غياب النهار الحار.  
وتعني - أنك تنتظريني.

الأزهار - مرعب لون هذه الأزهار إلي،  
أهذا ليل جدائك الأحمر،  
أهذه موسيقى الغدر المكتوم؟  
أهذا الفؤاد في الأسر عند كارمين؟

- ٨ -

أنت كصدي أنشودة منسية  
في مصيري الأسود الموحش.  
آه، كارمين، تلفني كأبة وغرابة  
لأنني حلمت بك.

خفقة الربيع، التمتمة، الحفيف.  
الرؤى العميقة الموحشة،  
ومفاتيح الضارية -  
كقيثارة، كدق الربيع!

تمرين في الفكر والأمانى  
كقيصرة عصور النعيم،  
مدثرة بالأزاهير من هامك  
ومغمورة في حلم سحري.

تغنين، تتلوين بنزوة كالأفعوان  
تغنين في خدر وترين في الحلم،  
المنأى البحري والشواطئ السعيدة

ورؤيا لا أفهمها.

ترين يوماً بلا غروب لاهب  
ووطنك الحبيب العزيز،  
أزرق، أزرق، مغن، مغن  
راسخ - رغيد كالفردوس.

في ذلك الفردوس سكينه مصمته،  
في أدغال الأغصان المضفورة  
صوتك الرائع وحده، منخفض غريب  
يمجد عاصفة العواطف العجورية.

- ٩ -

أجل، الحب طليق كالطائر.  
أجل، مهما يكن الأمر - فأنا لك!  
أجل، مهما يكن الأمر سأحلم  
بقدك الناري!  
أجل، في قوة يديك البديعتين الضارية  
في مقلتيك، حيث كآبة الخيانة.  
كل هذيان عواطفى اللامجدية،  
ولياي، يا كارمين!  
سأغنيك، وأوصل  
صوتك إلى السماوات!  
وإذا تحقق نذري  
فسأحول لهيب حبك نجوماً!  
أنت تنهضين كموجة العاصفة

في نهر أشعاري،  
لن أغسل عن يدي  
عبيرك، يا كارمين...  
في ساعة سكون، ليلاً، تسطعين  
لحظة كالشعلة،  
تتلاً أمامي أسنانك البيضاء  
ووجهك اللجوج.  
أجل، تمضني الأمانى الحلوة،  
ووجودك في بلد أجنبي،  
وأنك في يوم ما ستفكرين بي  
في شرك....  
من أجل عاصفة الحياة، من أجل القلق،  
من أجل كآبة كل الخيانات.  
لتكن هذه الفكرة صارمة  
بسيطة بيضاء، كالطريق  
كالدرب النائي، يا كارمين!

- ١٠ -

كلا، لست لي، ولن تكوني لأحد.  
هذا ما جذبني من هاوية الأعوام الحزينة،  
من هاوية الأيام الفارغة، التي لا تسلم من ثقلها.  
ومن أجل هذا فأنا عاشقك وشاعرك!  
هنا، بصمات رهيبية للصدود النسوي  
والجمال الرائع، الذي لا طاقة على بلوغه.

- ٤٦٥ -

هناك، تلاحم ضارٍ للعوالم، حيث وخذة الروح الكونية  
تنحب، منطلقة وهي تسطع تناسقاً.

هذه هي حماستي وخوفي في ذلك المساء، في الصالة المعتمدة!  
هذا مصدر قلقي عليك أيتها المسكينة!  
يا من شيعتني عيونها بغرابة  
قبل أن تحدثس، أو تعرف أو تهوى!!

أنت شريعة بذاتك، تطيرين تطيرين قريباً  
إلى نجوم أخرى، دون أن تسيري في الفلك،  
وهذا العالم عندك - غمامة دخان فحسب  
يرن فيه شيء، يغني، يثير ويلتهب!

في ألقه، شبابك العنيف...  
وكل الأشياء - الموسيقى والسناء: لا سعادة، ولا خيانة...  
الحزن والسعادة يصدحان بالألحان فقط  
لكنتي أحبك: لأنني أنا أيضاً على هذه الصورة يا كارمين.

١٩١٤

غنت فتاة في الجوقة الكنسية  
عن كل المتعبين في البطاح الأجنبية،  
عن كل المراكب المبحرة في اليم،  
عن كل من نسوا أفراحهم.  
هكذا غنى صوتها، صاعداً إلى القبة،  
وسطع شعاع على الكتف الأبيض،  
نظر كل امرئ من العتمة وأصغى،

إلى غناء الفستان الأبيض في الشعاع.  
تراءى للجميع، أن السعادة آتية،  
وأن المراكب في سير هادئ  
وأن المتعبين في البطاح الأجنبية  
ينعمون بحياة مضيئة.

كان الصوت حلواً، كان الشعاع رقيقاً،  
وفي أعالي البوابات المقدسة وحدها  
بكى طفل، مشاركاً الأسرار،  
على كل ما لا عودة له.

١٩٠٥

## سرغي يسنين

SERGEY ESENIN

(١٨٩٥ - ١٩٢٥)

- ولد في قرية كونستانتينوفو في محافظة ريزان. وهو ابن عائلة فلاحية قضت ردها من حياتها في الريف.
- تعلم في مدرسة ريفية وكان جده يقص عليه الحكايات ويقرأ له آيات من التوراة.
- سافر عام ١٩١٢ إلى موسكو حيث كان أبوه يعمل في دكان، وشرع يساعد أباه في عمله.
- نشر قصائده الأولى في المجلات الموسكوفية.
- سافر عام ١٩١٥ إلى بطرسبورغ وتعرف على الشاعر بلوك الذي عرفه على الأدباء والشعراء الروس في العاصمة.
- أصدر ديوانه الأول عام ١٩١٦ ويصور فيه الحياة الفلاحية والمعتقدات الدينية.
- عندما اندلعت ثورة أكتوبر عام ١٩١٧ أيدها شأنه شأن العديد من الشعراء المعروفين ونظم كثيراً من القصائد فيها. لكن الأمانى التي كان يصبو إليها لم تتحقق ولذلك عاش معاناة عميقة عذبت فكره وروحه.

- بلغ نضوجه الشعري وإبداعه الفني الذروة في أواخر حياته وكتب  
بين ١٩٢٤-١٩٢٥ ما بينف على مئة قصيدة.

- عصفت التناقضات الفكرية العميقة، التي تعاظمت مع ممر السنين،  
بحياته وازداد بعده الروحي عن الواقع الذي يعيشه مما أفضى به  
إلى الانتحار في ٢٧ كانون الأول عام ١٩٢٥ في ليننغراد

## رسالة إلى أمي

أما زلت على قيد الحياة يا عجوزتي؟  
وأنا ما زلت حياً. سلام اليك، سلام!  
ليتدفق فوق بيتك الريفي

ذلك النور المسائي المحال وصفه

يكتبون إليّ، أنك تُخفين قلقك،

وأنت شديدة الحزن عليّ،

وأنت غالباً ما تسيرين في الطريق

في معطفك البالي ذي الزي القديم.

غالباً ما يترأى لك شيء واحد

في عتمة المساء الزرقاء-

تصورين أمراً غمد مدية

في قلبي إبان شجار في الحانة.

لا شيء من هذا، يا عزيزتي! اطمئني.

إنه مجرد هذيان مضمّن.

فما أنا بالسكير المدمن لدرجة أن

أموت ولا أراك.

فما زلت كالسابق، ذلك الحنون

وأحلم بشيء واحد فحسب،  
الفرار من الكآبة العاصفة  
والعودة إلى بيتنا الصغير.

سأعود، عندما تنشر حديقتنا البيضاء  
الأغصان على النمط الربيعي.  
لا توقظيني فحسب، عند الفجر  
كما كنت تفعلين قبل ثماني سنوات.

لا توقظي الأحلام المتلاشية  
لا تثيري تلك الأمانى الخائبة،  
قدّر عليّ أن أعاني في الحياة  
من الضياع والنصب المبكرين للغاية.  
لا تعلميني الصلاة. لا حاجة لذلك!  
فلا رجوع إلى الماضي.  
أنت وحدك العون والحبور،  
أنت وحدك النور المحال وصفه.

إذن دعي قلقك،  
ولا تُفرطي في الحزن عليّ.  
لا تسيري غالباً في الطريق  
في معطفك البالي ذي الزي القديم.

١٩٢٤

إننا نرحل الآن رويداً  
إلى تلك البلاد، حيث السكينة والهناء.

ولربما يتحتم عليّ في الدرب عاجلاً  
أن اجمع أمتعتي الفانية.

غابات أشجار البتولا الحبيبة!  
وانتِ، أيتها الأرض! وأنتِ يا رمال السهول!  
لا طاقة لدي على إخفاء غمي  
أمام هذا الحشد من الراحلين.

احببت بإسراف في هذا العالم  
كل ما يكسو الروح بالجسد.  
سلاماً للهور ناشراً أفنانه.  
الرائية إلى الأمواه الوردية!

افكار جمّة خامرتني في السكون،  
وأغانٍ كُتِرَ نظمتهَا مع نفسي،  
أنا سعيد، لأنني تنفست وعشت  
على هذه الأرض الكالحة.

سعيد لأنني لثمت النساء،  
وهرست الورود واستلقت على الأعشاب  
ولأنني لم أضرب أبداً على الرأس  
الحيوانات، أخوتنا الصغار.

أعرف أن الأجمة لن تزهر هناك،  
ولن يصلصل الجودار الشبيه بعنق الإوز.  
ولذلك تعتريني الرعشة دائماً  
أمام حشد الناس الراحلين.

أعرف، في تلك البلاد لن توجد  
حقول القمح هذه، الذهبية في الظلام.  
لذلك أعز أولئك الناس  
الذين يحيون معي على الأرض..

١٩٢٤

كفّت الغابة الذهبية عن الحديث  
بلغّة أشجار البتولا المرححة،  
والغرائيق تطير حزينة،  
دون أن تأسف على أحد.

وعلى من تأسف؟ أو ليس المرء جوال في العالم؟  
يمر، يعرج على دار ويتركه مجدداً.  
البدر الوضاح فوق الغدير الأزرق  
يحلم مع حقل القنب، بكل الناس الراحلين.

وحيداً أقف في السهل الأجرد،  
والرياح تحمل الغرائيق بعيداً.  
أنا مفعم بالفكر عن الصبا المرح،  
ولا شيء آسف عليه في الماضي.

لا آسف على الأعوام المبددة سدى،  
لا آسف على لون روحي الليلكي،  
في البستان تشتعل أخشاب الغبراء الحمراء،  
لكنها لا تستطيع تدفئة أحد.

لن تنسفح أعذاق الغبراء،

لن تهلك الأعشاب من اصفرارها  
وكما تلقي الشجرة بهدوء أوراقها،  
كذلك ألقى الكلمات الشجية.

إذا الزمن، بعد أن تنشرهم الريح،  
يكدهم في كومة عديمة الجدوى...  
حسبكم أن تقولوا.. كف الغابة الذهبية  
عن الحديث بلغتها الحبيبة.

١٩٢٤

وداعاً يا خَلِّي، وداعاً.  
يا عزيزي، أنت في فؤادي  
ان فراقنا المحتوم  
يعدنا باللقاء المقبل.

وداعاً يا خَلِّي، لا مصافحة باليد ولا كلمة،  
لا تكتُب ولا تُقَطِّب حاجبيك -  
ليس جديداً أن تموت في هذه الحياة،  
ولكن العيش، طبعاً، ليس أكثر جدة.

١٩٢٥

## أغنية عن الكلبة

صباحاً في مخزن الجودار،  
حيث يتذهب حصير مضافور  
ولدت الكلبة سبعة،  
سبعة جراء حمر.

لاطفنهم حتى المساء،  
لحستهم بلسانها،  
وكان الثلج الذائب ينساب  
تحت بطنها الدافئة.

مساءً، عندما تلوث  
الدجاجات مجثمها.  
خرج المالك المتجهم  
ووضع الجراء السبعة في كيس.

وَبُتُّ على الكئيبان الثلجية،  
هارعة لمواكبهم،  
وارتعشت طويلاً طويلاً وهي تركض  
فوق سطح الأمواه الثلجية الذائبة.  
وعندما آبت متعبة

لعمت العرق المتصبب على جانبيها،  
وبدا لها البدر المطل على الكوخ  
جرواً من جرائها.

رنت إلى السماء الزرقاء  
وانتجت عالياً،  
تسلل البدر الأهيف  
وتوارى خلف التلال في الحقول.

وكما يعطون صدقة،  
أو كما يرمي أحد حجراً ملاطفاً،  
انسابت، خافتة، دموع الكلبة  
نجوماً ذهبية على الثلج.

١٩١٥

آه، أيتها الحقول المحروثة، الحقول المحروقة، الحقول المحروثة،  
ويا أحزان كولومنا<sup>(٩١)</sup>.

الأمس في فؤادي  
وروسيا تضيء في فؤادي.  
المسافات تصفر كالطيور  
تحت حوافر الجواد،  
والشمس تذر رشاش  
المطر عليّ.

آه، يا أرض الغمر الرهيب

٩١ كولومنا- مدينة في روسيا.

وقوى الربيع الوادعة،  
هنا، كان الفجر والنجوم  
المدرسة التي اجتزتها.

فكرت وقرأت  
من توراة الرياح،  
ورعى اسياه<sup>(٩٢)</sup> معي  
بقراتي الذهبيات

١٩١٧-١٩١٨

غداً أيقظيني باكراً،  
أواه يا أمي الجلودة!  
سأمضي خلف ربوة الطريق  
لأستقبل ضيفنا العزيز.

رأيت اليوم في الأجمة  
آثار عجلات عريضة على المرج.  
الريح تختلج تحت الغمام  
بطوقها الذهبي.

غداً ستندفع عند الفجر،  
البدر المكتمل مائل خلف الشجيرة،  
والفرس يلوح لاهياً  
بذيله الأحمر على السهل.

غداً أيقظيني باكراً،

٩٢. اسياه - نبي يهودي، يقال انه ولد في القدس عام ٧٦٠ قبل الميلاد.

ولتتنور غرفتنا بالضياء  
يقولون، عما قريب، سأضحى  
شاعراً روسياً شهيراً.

سأغنيك أنت وضيفنا  
وموقدنا وديكنا وبيتنا..  
وعلى أغاني سيسيل  
حليب أبقارك الحمراء

١٩١٧

كل ما هو حي له صفة متفردة  
موسومة منذ حقبة مبكرة.  
لو لم أكن شاعراً،  
فلربما كنت نصاباً أو سارقاً.

نجيف، قصير القامة،  
بطل دائماً بين الصغار،  
طالما، طالما عدت إلى الدار  
مكسور الأنف.

عند لقاء ماما الفزعة أقول  
وأنا أرشح من الفم المدمى:  
«لا شيء! لقد عثرت بحجر،  
كل هذا سيندمل غداً».

الآن، بعدما بردت  
الحروف الملتهبة لتلك الأيام،

انسكبت على قصائدي  
كقوة مضطربة متقحمة.

أكوام كلمات ذهبية،  
على سطورها ارتسمت بلا حدود  
البسالة الماضية  
لذلك العريد الشقي.

ما زلت، كما في الماضي، باسلاً وشامخاً،  
خطاي تمضي في أرضٍ بكَرٍ فحسب...  
وإذا لطمت سابقاً على وجهي.  
فالآن روحي كلها مخرجة بالدماء.

لا أقول الآن لماما،  
بل للأوباش المقهقهين الغرباء:  
«لا شي! لقد عثرت بحجر،  
كل هذا سيندمل غداً!».

## رسالة إلى امرأة

إنك تذكرين،  
إنك تذكرين، بلا سبب كل شيء  
كيف وقفتُ.  
مقترباً من الجدار،  
وأنت تذرعين الغرفة مضطربة  
ثم قذفت في وجهي  
كلاماً غليظاً.

قلت لي:  
أزفَ وقت الفراق،  
وإن حياتي الطائشة  
قد أعبتكَ،  
وكان وقت الشروع بالعمل،  
أما مصيري -  
فالانحدار بعيداً نحو الحضيض.

حييتني!  
أنت لم تحبيني،  
أنت لم تعرفي، أنني بين حشود الناس

كنت كالجواد المنهك، المزبد الشدقين

يسوطه فارس مقدم.

أنت لم تعرفي،

أنني في دخان كثيف،

في فوضى عاصفة الحياة

أتعذب لأنني لا أدرك

إلى أين تقذفنا الأقدار.

حينما نقف وجهاً لوجه

لا تسبين الوجه الذي أمامك،

فالجليل يرى على مسافة.

وأيان يهيج سطح البحر

فالسفينة في حالة مفجعة

الأرض - سفينة!

يقودها بغتة

امرؤ بجلال،

مباشرة نحو صلب العواصف والزوابع،

من أجل حياة جديدة وأمجاد جديدة.

لكن من منا على سطح السفينة الكبير

لم يهو، لم يبصق، لم يشتم؟

قله هم، ذوو الروح المحنكة!

ومن ظلوا راسخين وسط الاهتزازات.

عندئذ، أنا أيضاً،

في الصخب الضاري،  
مع معرفتي عملي برشاد،  
هبطت في عنبر السفينة،  
كيلا أنظر إلى قيء الناس.  
كان ذلك العنبر  
خماره روسية.  
انحنيت على الكأس،  
كيلا أتألم لأحد،  
ولأفني روحي  
في سورة سُكْر.

حييتي!  
لقد عذبتك،  
كانت الكآبة  
في مقلتيك المتعبتين:  
لأنني أضعت نفسي  
أمامك بجلاء في العريضة.

لكنك لم تعرفي،  
أنني أتعذب  
في الدخان الكثيف  
في فوضى عاصفة الحياة  
لأنني لا أدرك،  
إلى أين تقذفنا الأقدار...

الآن مضت السنون.  
وأنا في عمر آخر.  
أحس وأفكر على نمط آخر.  
أقول ونبئذ العيد أمامي:  
الحمد والمجد لله يا موجّه الدفّة!

أنا اليوم  
بين طرق الأحاسيس الرقيقة  
تذكرتُ ضناك الحزين.  
وها أنا الآن  
أتعجل في إخبارك،  
كيف كنت  
وما حدث لي!

حبيبتي!  
يروق لي أن أقول:  
تفاديت السقوط من المنحدر.  
الآن أنا في الجانب السوفيتي  
من أكثر رفقاء الطريق حماسة.

لم أعد ذلك المرء  
الذي كنت آنذاك،  
لن أعذبك  
كما فعلت في السابق،  
أنا مستعد للذهاب حتى إلى المانش  
في سبيل راية الحرية

والعمل المشرق.

سامحيني...

أدرك: أنك لست تلك المرأة السابقة.

أنتِ تعيشين

مع زوج جاد ذكي،

ولا حاجة بك إليّ

وأنا نفسي

لا حاجة بي إليك بتاتاً.

تعيشين هكذا،

كما تفقد النجمة طالعك

تحت الأجمة

سلام إليك

من الذي يتذكرك دائماً

وأحد معارفك

سرغي يسنين

١٩٢٤

أواها إني أوّمن، فالسعادة موجودة،

والشمس لم تغب بعد.

وفجر كتاب الصلوات الأحمر

يتكهن بنبأ مبارك،

أواها إني أوّمن، أوّمن، فالسعادة موجودة!

اصخبي، اصخبي، يا روسيا الذهبية!

واعصفي أيتها الريح  
طوبى لمن لاحظ بحبور  
حزرك الرعوي.  
اصخبي، اصخبي، يا روسيا الذهبية.

أهوى هدير المياه الهائجة  
وسنا نجمة على الموجة.  
الآلام مباركة  
والشعب مبارك.  
أهوى هدير المياه الهائجة

١٩١٧-١٩١٨

أواه يا قريبتى، روسيا،  
أكوأخك، كأيقونات لمسوح القديسين..  
لا تُرى لها نهاية ولا تخوماً،  
الزرقة وحدها تمتص العيون

انظر إلى حقولك،  
كورعٍ عابر.  
وعند اسيجتك الواطئة  
يذوي الحورُ مصلصلاً  
تُشم رائحة التفاح والعسل  
في عيد سباس<sup>(٩٣)</sup> الوديع.  
وتعالى أغاني المتزهين

٩٣. عيد كنسي في شهر آب، الذي ينضج فيه التفاح في روسيا ولا يأكل المتدبنون التفاح إلا بعد هذا العيد

وفي المروج رقصه مرحة.

اركض في الممرات المتغضنة

في مرنع الأعشاب الخضراء

ويستقبلني، كالعُرْجُون،

ضحكُ الصبايا الرنّان.

وإذا صاح القديسون:

«أترك روسيا، وعش في الفردوس!»

اقول: «لا حاجة بي إلى الفردوس،

حسبي وطني».

١٩١٤

لم يجف بعد غيثُ الأمس -

فالماء الأخضر ما زال على الأعشاب!

تكتب الحقول المحروثة المستلقية،

ويذوي، يذوي القاقلي<sup>(٩٤)</sup>.

أطوف بالشوارع والبرك،

ان يوم الخريف مخيفٌ وموحش.

ولدى التقاء أي وجه

أروح بلوغ وجهك الحبيب.

انت اكثر غموضاً وحسناً

حينما تنظرين إلى الأماكن الغامضة.

٩٤. أعشاب برية ذات ازهار صفراء. يترجمها القاموس الروسي - العربي بالقاقلي. بينما يفسره القاموس الرائد بأنه نبات مالح يكثر في رمال الساحل.

آه، نتمنى لك السعادة فحسب .  
مع مودتي الخالصة.

وإذا المنون أسبلت عينيك  
بمشيئة الله،

اقسم أني كظل في الحقل الرحب  
امضي للموت وإليك

١٩١٦

لا تجوال، لا تفتيت للفاقلي  
بين الشجيرات الأرجوانية، ولا بحث عن أثر  
مع خصل شعرك الشوفاني  
نسيك الى الأبد.

عصير التوت الأحمر على أهدابك،  
انك وديعة حسناء، وكنت  
عند الغروب كالوردة،  
وكالثلج، مشعة ومضيئة.

غلال عينيك تناثرت وذوت،  
وتلاشى الاسم الرقيق كالصوت،  
ولكن في طيات الشال المتفضنة  
ظلت رائحة العسل من اليدين الطاهرتين.

في ساعة سكونية، حينما يكون الفجر على السطح،  
كجرو يغسل فمه بقدمه،  
اسمع حديثاً وديعاً عنك

في أصوات القاطنات المائيات المغنيات مع النسيم.

ليهمس لي المساء الأزرق أحياناً،  
كي تمسي أنت أغنية وحلماً،  
فكل من أبدع قدك اللدن وكتفيك -  
وضع شفاهه على سر مضيء.

لا تجوال، ولا تفتيت للقاقلي  
بين الشجيرات الأرجوانية، ولا بحث عن أثر.  
مع خصل شعرك الشوفاني  
نسيتك إلى الأبد.

١٩١٥-١٩١٦

لا آسف، لا أنادي، لا أبكي،  
كل شيء سيزول كدخان أشجار التفاح.  
ذبول الذهب يلفني،  
لن أكون شاباً بعد الآن.

الفؤاد مسه البرد  
ولن ينبض الآن كما كان،  
وبلاد أطمارها شجرة البتولا  
لا تغري على التطواف مشياً.

أبتها الروح المتجولة إنك نادراً، نادراً  
ما تحركين شعلة الشفاه.  
أواه، يا نضارتي الضائعة،  
ويا وهج العيون ويا فيض العواطف،

الآن بتُّ أكثر ضناً بأمانِي،  
أهذه حياتي، أم طيف تراءى لي؟  
كأنني مع همهمة الربيع الباكِرة.  
أثبُّ على جواد وردي.

كلنا، كلنا إلى الفناء في هذا العامل،  
القطرات تسيل من أوراق القيقب بهدوء...  
كن مباركاً إلى الأبد،  
لأنك تفتحت ومُتَّ.

١٩٢٢

الجواد هاجع. السهل الحبيب،  
وطراوة بنات الشيخ الرصاصية.  
إن أي وطن آخر  
لا يمنح صدري حرارته.

اعلم، كلنا ننتهي لهذا المصير،  
والأفضل أن تسأل كل امرء-  
فهو يفرح ويثور ويتعذب،  
ويطيب له العيش في روسيا.

ضوء القمر غامض مديد،  
الصفصاف يبكي، والحدود يهمس.  
لا أحد يقلع عن حب حقول الآباء  
تحت صياح الغرائيق.  
والآن، عندما مست الحياة.  
مصيري أيضاً بنور جديد،

بقيت مع ذلك شاعر  
البيت الخشبي الذهبي  
في الليالي، ألتصق بوسادة السرير  
وأرى، كخصم قوي،  
فتوة غريبة تثب كأرض بكر  
في سهولي ومروجي.  
ومع ذلك، فتلك الأرض البكر ضيقة،  
أنا قادر على الغناء بصدق:  
هبني وطني الحبيب،  
كي أحب كل شيء، واموت بهدوء!

١٩٢٥

خلف التلال، خلف الوهاد الصفراء  
تمثل دروب القرى.  
أرى الغابة وسنا المساء،  
وسياج الأغصان المحاط بالقرّاص.  
هنالك منذ الصباح فوق ذرى الكنائس  
يزرّق رمل سماوي،  
والنسائم المشبعة بماء البحيرات  
تهز الأعشاب على جانبي الطريق،  
أهوى الرحاب الخضراء  
لا من أجل أغنية الربيع فوق السهول،  
فقد أحبيت أحزان غرائق  
الدير فوق الربوة الشاهقة.

كل مساء، كما تعتم الزرقة،  
وكما يسترخي الفجر على الجسر،  
تسيرين يا متجولتي المسكينة،  
وتنحنين للحب والصليب.

وديعة روح قاطن الدير  
إنه يسمع المواعظ متلهفأ.  
صلي أمام صورة المنقذ  
من أجل روجي الهالكة.

١٩١٦

أضناني العيش في بلدتي  
كثيباً بين حقول الحنطة السوداء،  
سأترك كوخي  
وأمضي كجوال ولص.

أسير في وضح النهار  
باحثاً عن مأوى للمساكين.  
وصديقي الحبيب يشحذ  
سكيناً لأضعها في الجزمة عند ساقني.

الدرب الأصفر يغمره  
الربيع وشمس المرج،  
وتلك التي أصون اسمها  
تطر دني من عتبة الباب.  
وأعود ثانية إلى بيت أبي

متعللاً بفرح غريب،  
في مساء أخضر وتحت الشرفة  
سأشوق نفسي بكُمِّي.

الصفصاف الأشيب عند السياج  
سيحني هامته برقة أكثر،  
يدفنونني على نباح الكلاب  
بلا استحمام.

والبدر يعوم ويعوم،  
قاذفاً المجاذيف على البحيرات،  
وتحيا روسيا على النمط ذاته،  
ترقص وتبكي عند السياج،

١٩١٥-١٩١٦

## الشاعر

شاحب. يفكر بالدب الرهيب.  
في روحه تحيا الرؤى.  
صدره طعين بضربات الحياة،  
ووجنتاه مشربتان بالريبة.

شعره مرسل خصلاً،  
وجبهته العالية متغضنة،  
لكن أحلام جماله الصافية  
تتقد في لوحات عميقة التأمل.

يجلس في علية ضيقة،  
بقايا الشمعة تؤذي بصره،  
والقلم في يده  
يسره أحاديثه الهامسة.

يكتب أغنية الفكر الشجية،  
ويلتقط بمشاعره ظلال الماضي.  
وهذا اللجب، اللجب الروحاني<sup>(٩٥)</sup>...  
يحملة غداً ويعطيه لقاء روبل واحد.

١٩١٠-١٩١٢

---

٩٥. يعني قصائده التي ينشرها في المجلات.

## النجوم

أيتها النجمات الصافية، النجمات السامقة!  
ما الذي تدخرينه في خباياك، ما الذي تكتمينه،  
النجوم المنطوية على أفكار عميقة،  
بأية قوة تأسرين الروح؟

أيتها النجمات المتعددة، أيها النجوم المتزاحمة!  
ما الذي فيك من روعة، ما الذي فيك من بأس؟  
بماذا تجذبين، أيتها النجوم السماوية،  
القوة الهائلة للمعرفة المتأججة؟

لماذا أنت تسطعين على هذه الصورة  
تبيلين في السماء، في الرحاب الفسيحة؟  
انظري برقة، ولاطفي الفؤاد،  
أيتها النجوم السماوية، أيتها النجوم النائبة!

١٩١١-١٩١٢

وداعاً، أيها الأجمة الحبيبة،  
سامخي، أيها الينبوع الذهبي.  
نعوم الغيم وتندفع  
على حزم الأشعة الشمسية.

اسطع أنت، أيها النهار الصافي،  
أما أنا فأريد أن أحزن.

لن أحمل بعد الآن  
سكيناً في الجزمة عند ساقِي.

لن أنام في الليل المقفر  
تحت بطن المهر  
ولن أبوح  
بفرح الغابات الرنان.

ولن أتحاشى العاصفة،  
ولن أتلافى ما ضاع،  
لكي ترن في الزرقة السماوية.  
أطواق بوابات غير مرئية.

١٩١٦

## ابن الكلبة

أبحرت السنون مجدداً من العتمة  
وها هي تضحج كمرج الأقحوان.  
وتذكرت الآن كلبة،  
كانت صديقة صباي.

الآن مضى صخب صباي،  
مثل القيقب الذاوي تحت نافذتي،  
بيد أنني تذكرت فتاة في رداء أبيض  
كانت الكلبة ساعي بريد لها.

ليس لدى كل امرء من خليل  
لكنها كانت كالأغنية،  
لأن رسائلي القصيرة  
لم تأخذها من طوق الكلب.

لم تقرأها أبداً  
وخطي كان مجهولاً عندها،  
لكنها حلمت طويلاً بشيء ما  
عند شجيرات بيضاء الزهور وراء البركة الصفراء.

تعذبت... وابتغيت جواباً...  
لم أطق الانتظار... رحلت... وها أنذا  
بعد أعوام... شاعر مشهور  
وها إنني هنا مجدداً، عند البوابات الحبيبة.

ماتت تلك الكلبة منذ أمد بعيد،  
لكن أذهلني نباح قوي  
من الفصيلة نفسها، إذ التقاني  
ابنها الفتى الضارب لونه إلى الزرقة.

يا إلهي! كم هما متشابهان!  
وأبحر الألم مرة أخرى إلى روعي.  
وكانني عدت شاباً مع هذا الألم،  
وإذا شئت فسأكتب رسائل قصيرة مجدداً.

جذل لسماعي أغنية الماضي  
لكن لا تنبح أنت! لا تنبح! لا تنبح!  
أتريد أيها الكلب، أن أقبلك  
من أجل ايار الذي استيقظ في فؤادي؟

أقبلك وألصق جسدي بك  
وكصديق أدخلك إلى البيت...  
أجل، أعجبتني فتاة في رداء أبيض،  
ولكنني الآن أهوى فتاة في رداء أزرق.

١٩٢٤

## مقطعان من «المطلون للموتى» (٩٦)

- ١ -

أرأيتم انتم  
كَيْفَ بِسْرَعِ الْقَطَارِ بِأَقْدَامِهِ الْحَدِيدِيَّةِ  
فِي السَّهْوَلِ،  
مَخْتَبِئًا فِي ضَبَابِ الْبَحِيرَاتِ،  
شَاخِرًا بِمَنْخَرِهِ الْحَدِيدِيِّ؟

يَسْبُ خَلْفَهُ،  
عَلَى الْأَعْشَابِ الْمَرْتَفِعَةِ،  
مُهْرًا بِعَفْرَتِهِ الْحُمْرَاءِ  
قَاذِفًا بِقَدَمِيهِ الرَّفِيعَتَيْنِ إِلَى رَأْسِهِ  
كَأَنَّهُ فِي عَيْدِ سَبَاقِ مَسْتَمِيَّتٍ؟

بَا حَيْبِي، حَيْبِي الْأَحْمَقِ الْمَضْحَكِ،  
لَكِنْ إِلَى أَيْنَ، أَيْنَ تَعْدُو؟  
أَحْفًا لَا يَعْلَمُ، أَنْ الْجِيَادَ الْأَحْيَاءِ  
قَدْ غَلَبَهَا الْفَارَسُ الْحَدِيدِيُّ؟

٩٦. المقطعان الثالث والرابع من القصيدة.

أحقاً لا يعلم أنه في الحقول الكالحة  
لن يُرجع عدوه تلك الأيام،  
عندما كان مالك الجياد يبدل  
حسناوين روسيتين لِيَتِي العود  
مقابل جواد؟  
القدر غير طبيعة الأسواق،  
فقد تعالي أزيز سكة الحديد،  
مقابل أطنان من جلود الخيول ولحمها.

- ٢ -

ليأخذك لشیطان، ايها الضيف البغيض !  
أغنيتنا لا تأنس بك  
وأسفاه لم يخطر لي في الطفولة  
أن أغرقك كدلو في بئر.  
يطيب لهم الوقوف والتطلع،  
الشفاه تصطبغ من تقبيل الصفيح،  
سأغني كمردد الترانيم حسب  
فوق بلادي الحبيبة اغنية «اليلوي»<sup>(٩٧)</sup>  
وسأهشم رأسي عند السياج،  
في أوحال شهر أيلول،  
وعلى الرمل البارد الجاف،  
ويسيل الدم على حبات الغُبراء.  
ومنه يتصاعد الألم.

٩٧. اغنية تغنى في الكنيسة.

على وقع الحان الأكورديون الرنانة.  
بينما الفلاح الذي تفوح منه رائحة القش  
يتشرق بالفودكا اللاذعة.

١٩٢٠

## رسالة إلى جدي

لقد تركتُ  
مثواي الحبيب.  
يا عزيزي! يا جدي!  
أكتب إليك مجدداً..  
الآن عندك تحت النافذة  
تولول العاصفة الثلجية،  
وفي المدخنة  
عويل وضجة متواصلان.  
كأن مئة عفريت تسللوا إلى العلية  
أنت لا تَغْفُ طوال الليل  
وتهز قدميك  
أن تخلع سترتك  
وتذهب هناك  
وتضربهم جميعاً بالمسعر.  
سداجة حبيبة  
لروح نقية!  
وليس عبثاً أن أباك

أخذك إلى الشماس  
في قفز مهجور  
وأعطاه ثلاثة مكابيل من الشوفان  
مقابل تعليمك: «وجود الله»  
و«الصلاة» و«رمز الإيمان».

يرعى الجواد الجيد  
ويتعهدونه  
بعلف متقى.

بينما أنت تدين نفسك  
من تلقاء ذاتك،  
وشرعت تعلم حفيدك  
الشيء ذاته.

ولكن الحفيد لم يفقه  
هذا التعليم

وغمك

أن يرحل إلى بلد غريب.

أنا الآن - حسب رأيك.

أطوف جوالاً،

وتهجس هواجسي

بأشعار بليدة لا جدوى منها.

أنت تقول:

إنهم سرقوني منك،

وأني أحقق.

والمدينة - ضالة ومسرفة

لكن حسبك يا جدي أنه

قلما، قلما

يسوق السارق

جواداً رديئاً.

الجواد الرديء

لا يساق من الزريبة،

لكن من يروم

تحسس طريق آخر،

يقول:

كي لا تتعفن في المنعطفات،

عليك ترك

بلدك الحبيب.

وها أنذا مضيت.

أنا في بلد ناءٍ.

الربيع،

هنا الأزهار كبيرة

وأنا أرسل إليك

في وحدتك المكتوبة عليك،

سلامها الدافئ

من بعيد.

العاصفة الثلجية الآن

تولول بكل قوتها في ريزان<sup>(٩٨)</sup>

أما أنت -

فلديك لهفة لرؤيتي .

لكنك تدرك أنه

لا يمكن لأية زلاقات

أن توصلك إليّ

هنا .

أعرفُ -

أنك تود المجيء للزهور

والدفء

ولكن هناك بلية واحدة،

أن لعناتك

قوية كقوة القاطرة،

ولن تحركك أبداً .

إلى أي مكان .

وإذا مُت؟

أسمع يا جدي؟

ساموت أنا؟

أنجلس في مركبة القطار أم لا،

كي تحضر

عرس جنازتي

وتغني لي في الأحران

---

٩٨ . المنطقة التي ولد وعاش بها يسنين .

الأخيرة أغنية «البلوي»؟  
وقتئذ اجلس أيها الكهل.  
اجلس بلا دموع،  
وثق  
بالجواد الحديدي.  
أواه، ياله من جواد  
أي جواد هذه القاطرة!  
لعلمهم  
ابتاعوها من ألمانيا.  
إن فاها الحديدي  
ألف النار،  
والدخان فوقها كعفرة الفرس  
فاحم وكثيف ومدو  
لو كانت هذه العُفرة  
لدى جوادنا-  
فكم سنحتاج  
من المماسح والفرش المتنوعة!  
أعرفُ-  
الزمن يحطم حتى الحجر..  
وأنت، أيها الكهل  
ستدرك في وقت ما،  
أن أفضل جواد،  
تربطه بالعربة

في الأماكن النائية  
لا تبقى منه سوى العظام...

وتدرك أيضاً،  
أنني لم أرحل عبثاً  
هناك، حيث العدو  
أسرع من الطيران،  
في البلاد التي تحتويها العواصف الثلجية  
والحرائق،  
لا يسوق السارق  
جواداً رديئاً.

١٩٢٤

سألت اليوم الصيرفي  
ما يساوي نصف تومان بالروبل  
كيف أقول لللالا الجميلة  
«أحبك» كلمة رقيقة بالفارسية؟  
سألت اليوم الصيرفي، سؤالاً  
أخف من النسيم وأهدأ من مجرى فانا،  
كيف أقول لللالا الجميلة  
كلمة لطيفة «قبلة»؟

سألت الصيرفي أيضاً،  
والرجل أخفيه دفيناً في فؤادي  
كيف أقول لللالا الجميلة،  
كيف أقول لها، أنت «لي»؟

أجابني الصير في موجزاً:  
عن الحب لا يتحدثون بالكلمات،  
عن الحب يتأوهون خلسة،  
بينما العيون تتقد كالياقوت.

ليس ثمة اسم للقبلة،  
القبلة ليست نقشاً على الأضرحة،  
القبلة زهرة حمراء تتورد  
أوراقاً تذوب على الشفاه.

في الحب لا يطلبون ضماناً،  
ومعه يعرفون الأفراح والأتراح.  
«أنت لي» تقولها الأيدي فحسب،  
التي تنتزع النقاب الأسود.

١٩٢٤

شاغنيه<sup>(٩٩)</sup> أنت لي، يا شاغنيه!  
وربما لأنني من الشمال،  
فأنا مستعد لأحكي لك كثيراً  
عن الجواد المتموج تحت القمر،  
شاغنيه أنت لي، يا شاغنيه.

ربما لأنني من الشمال،  
والقمر هناك أكبر مائة مرة،  
ومهما كانت جميلة شيراز،

---

٩٩. اسم فتاة، ومعناه أيضاً سيدتي أو أميرتي

فليست بأفضل من بطاح ريزان  
ربما، لأنني، من الشمال.

إنني مستعد لأحكي لك كثيراً،  
خذ هذه الشعرات أخذتها من الجودار،  
إذا شئت! اضفريها على إصبعك،  
ولن أشعر قط بالألم.

إنني مستعد لأحكي لك كثيراً!

احدسي من شعري الأجد  
عن الجودار المتموج تحت القمر.

عزيزتي، امزحي، ابتسمي،  
لا توقظي فحسب الذكرى فيّ،  
عن الجودار المتموج تحت القمر

شاغنيه أنت لي، يا شاغنيه!  
هنالك في الشمال فتاة أيضاً،  
مذهل شبهها بك،  
لربما تفكر بي...  
شاغنيه أنت لي، يا شاغنيه.

١٩٢٤

## حلم

(من كتاب «قصائد عن الحب»)

- ١ -

في الغابة المعتمة بين الشربين الأخضر  
تلمع مذهبة أوراق الصفصاف  
أخرج إلى الشاطئ المرتفع  
حيث الخليج يتهادى بهدوء.  
هلالان يهزان طرفيهما  
مكدرين التموجات بدخان أصفر.  
سطح البحيرة الأملس والعشب لا يفترقان.  
العجاج ينوح بهدوء عند المستنقع.  
أسمع نداء مألوفاً للفؤاد  
في هذا الصوت وفي المرج المحروث.  
أنت تناديني يا صديقتي،  
لأكتب عند الشواطئ المشمسة.  
لأعوام عديدة لم أكن هنا، وحظيت  
بكثير من اللقاءات المرححة والفراق،  
ولكن صنتُ بحرص في داخلي

الشايا الرقيقة ليديك الضبايتين.

- ٢ -

فتى هادئ، مرهف الشعور  
يقبل الشفاه كحمامة،  
عشقت فيك يا حلمي  
قدك الرقيق ومشيتك المسترخية.  
طففت المدن والقرى،  
ويحثت عنك، وأين تعيشين،  
وغالباً ما تغريني إلى الجودار  
بضحكة لعبوية مرحة.  
اختبأت وراء سياج الدير،  
ودخلت مرة في المعبد الأبيض:  
الشمس تستحم بأمواء زرقاء  
وترامت انعكاساتها على قدمي.  
وقفت مستمراً في بريق أحمر،  
وفجأة شدّ الصمت حنجرتي...  
دخلت في نقاب فاحم  
وأطرقت عند النافذة.

- ٣ -

من طنف الكنيسة تحت قرع الناقوس  
هبطت في عقب الشموع  
لم أستطع، وأنا أرتعش برقة،  
إلا أن المس يديك وكتفيك،

وددت قول الكثير لك،  
عن كل ما برح الروح منذ ضحى أيامها،  
لكن الطريق الساجي لفه السديم  
وملاسة البحيرات لم تتوار.  
نظرت بهدوء إلى الوادي،  
حيث دبت عتمة جعداء....  
وترامى الشيب الخفيف  
على جبهتك الداوية..  
وبهتت قليلاً ثنانيا الثياب،  
ولاح في مجرى المياه المعتمة،  
فمك الأردد المغمغم  
وأزردد آمالي ومضى.

-٤-

لكن البرودة لم تعذب الروح طويلاً.  
وكجناح ملتصق بقديمها،  
جمعتُ صندوقاً جديداً من العواطف  
وسرت إلى شواطئ جديدة.  
التم الجرح في القلب بلا قطب  
وأنطفأت العواطف ومضى الهوى.  
لكنك جئت مجدداً من الضباب  
وكنت جميلة ونيرة  
همست، محتجبة بيدك،  
«انظر، كم أنا شابة.  
إن حياتك جعلتني أخافك،

لكني ما زلت كالهواء والماء.  
في أصوات المرج المحروث  
أسمع نداء مألوفاً للفؤاد.  
أنت تناديني يا صديقي،  
لأكتب عند الشواطئ المشمسة

١٩١٨

عزيزتي، لنجلس متجاورين،  
ولننظر في عيني بعضنا البعض.  
انني ابتغي من النظرة الودية  
الإصغاء إلى العاصفة العاطفية.

هذا الذهب الخريفي،  
وهذه جديدة الشعر الضاربة إلى البياض،  
يمثل كله خلاصاً  
لفتى طائش قلق.

تركت بلدي منذ أمد بعيد،  
حيث تزهو المروج والأجمة.  
وبين الأمجاد المدنية المرة  
أردت العيش ضائعاً.

أردت الفؤاد أن يتذكر  
عميقاً البستان والصيف،  
حيث أصبحت شاعراً  
على موسيقى الضفادع.

هناك الآن الخريف ذاته...  
والقيقب والزيفون على نوافذ الغرف،  
الأغصان تلقي أذرعها  
وتبحث عن أولئك الذين تذكرهم...  
لقد تواروا منذ أمد بعيد من الوري.  
البدر مظل على المقبرة المتواضعة  
ملقياً شعاعه على الصُلبان،  
ونحن سنعودهم زائرين.  
إننا أيضاً بعدما يولي اضطرابنا  
سنأتي تحت هذه الأجمة.  
الدروب المتموجة كلها  
تتدفق أفراحها للأحياء حسب.  
عزيزتي اجلسي قربي،  
ولننظر في عيني بعضنا البعض.  
إنني أبتغي من النظرة الوديعة  
الإصغاء إلى العاصفة العاطفية.

١٩٢٣

لا تعذبيني بفتورك،  
ولا تسألي كم عاماً عمري.  
أصبت بمرض مرير  
وبانت روحي كهيكل أصفر.  
مضى وقت، عندما كنت في الضيعة

أحلم بطقولة في السديم،  
بأنني سامسي ثرياً ومشهوراً  
ويجبني الجميع.

أجل! ثري أنا، ثري بإفراط.  
كان عندي قبة، وراحت الآن.  
ويقي قميص واحد حسب  
وحذاء حديث بال.

وليست شهرتي أسوأ حالاً-  
من موسكو إلى رعاغ باريس  
يوحى اسمي بالرعب،  
مثل شتائم بذينة عالية.

والحب أو ليس ضرباً من اللهو؟  
أنت تلثم، بينما الشفاه كالصفيح.  
أعلم أن شعوري قد أینع  
بينما لا يمكن لشعورك أن يورق.

ما زال الوقت مبكراً كي أحزن  
لكن الأسي ليس رزءاً  
الفاقلي اليانع بصخب، وهو  
أشقر من جدائك فوق الربوة.

أود العودة مرة أخرى إلى تلك الأماكن.  
كي أغرق إلى الأبد في المجهول.  
تحت صخب الفاقلي اليانع

وأحلم بطفولة في السديم.  
على أن أحلم بشيء آخر جديد،  
متعذر إدراكه على الأرض وأعشاب القاقلي -  
فلا الكلمة تعبر عن مكنون الفؤاد  
والمرء يحار في تسمية معاناته.

١٩٢٣

## الفهرست

٥	توطئة.....
٩	الشعر الروسي وتطوره.....
٦٩	أغنية حملة إيغور.....
٩٥	من أشعار البيلينا.....
١١٦	أشعار دينية.....
١٢٧	ميخائيل لومونوسوف.....
١٣١	غافريل ديرجافين.....
١٤١	فاسيلي جوكوفسكي.....
١٥٥	قسطنطين باتشكوف.....
١٦١	كوندراتي ريليف.....
١٧١	ألكسندر بوشكين.....
٢٣٣	يفغيني باراتينسكي.....
٢٤٩	نيقولاي يازيكوف.....
٢٥٩	الكسي كولتسوف.....
٢٧٣	ميخائيل ليرمنتوف.....
٣٠٩	فيودور توتشيف.....
٣٣٥	أفاناسي فيت.....
٣٤٩	ياكوف بولونسكي.....
٣٦١	الكسي تولستوي.....

٣٧٧ ..... نيقولاي نيكراسوف

٤٢١ ..... ألكسندر بلوك

٤٦٩ ..... سرغي يسنين

الشعر الروسي غور لا يسبر ولا يمكن أن يحتويه  
كتاب واحد بين دفتيه، شأنه شأن الشعر القومي  
في أي بلد يمتلك تراثاً شعرياً ضخماً.



ومع شعورنا أن هذه المختارات غيض من فيض،  
فإننا عقدنا العزم على ترجمتها لتوفير انطولوجيا  
في الشعر الروسي الذي يشغل منزلة رفيعة بين  
عيون الشعر العالمي، ولإطلاع القارئ العربي على نماذج تعتبر - حسب رأينا  
- من غرره.

القرن التاسع عشر هو الفترة الزمنية التي توخينا الترجمة لشعرائها، لكن  
وجدنا لزاماً علينا العودة إلى بداياته ومعرفة امتداداته القديمة التي لعبت دوراً  
كبيراً أو قليلاً في تطوره وبلورته. لذلك صارت «أغنية حملة إيغور» وأشعار  
البيليني والأشعار الدينية وبعض شعراء القرن الثامن عشر؛ نقطة البدء في  
ترجمتنا، لكي نستطيع أن نعطي صورة تاريخية واضحة عن نشوئه. وقد نقلنا  
«أغنية حملة إيغور» عن ترجمة أبولون مايكوف الشعرية لها إلى اللغة الروسية  
مع مقارنتها - بقدر ما استطعنا - مع النص الأصلي الذي كان مكتوباً نثراً.

ترجمنا لسبعة عشر شاعراً يمثلون مختلف الاتجاهات والمراحل التي  
شهدها مسرح الحياة الشعرية. ومع ذلك لم يتسع أماننا المجال لتقديم  
شعراء آخرين مثل كريلوف Krylov وفياتيمسكي Vyazemsky وكارولينا  
بافلونا Karolina Pavlova وغيرهم ممن كان لهم نصيب في رفد الشعر  
الروسي ونمائه.

ISBN 978-2-843090-06-6



9 782843 090066